

د. فرج فودة

حتى لا يكون كلاماً في الهواء

التنوير

دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه

الاسكندرية



د. فرج فودة

حتى لا يكون كلاماً فى الهواء



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

هذا الكتاب وكاتبه

هل لو مات الدكتور فرج فودة فى صمت وهدوء مثل ملايين الذين يموتون بالسكتة القلبية أو نزيف فى المخ أو حادث من حوادث الطرق ، هل كان من الممكن ان يتحدث عنه الملايين كما تحدثوا عنه بعد اغتياله ؟

إننى لا أكاد أذكر كاتبا اكتشفه الناس بعد رحيله كما حدث مع فرج فودة .. لا أذكر كاتبا عرف الكثيرون قيمته الفكرية وتحدثوا بعد موته عن مقالاته وأفكاره ومواقفه وشجاعته وجرأته كما حدث مع فرج فودة .

فى حياته لم يكن حوله هذا الصخب الذى فجره اغتياله برغم أنه كان يتمنى بالفعل أن يعيش وان يجد هذا الصخب .. فى حياته كان يبدو ان قراءه محدودون وان كان من الكتاب الذين يضيفون إلى رصيدهم عددا جديدا من القراء كل أسبوع بسبب الطعم الخاص الذى كانت تتميز به كتاباته وأسلوبه المختلف الذى يصاحبه فكر محدد درس صاحبه طويلا إمكان الوصول بسهولة وثقة إلى عقل القارئ فى هدوء وقوة . وكان منطقه يبدو مترابطا لدرجة أننى تصورت أنه من خريجى كلية الحقوق وأنه درس القانون بل إننى لفترة اعتقدت أنه محام ثم كانت المفاجأة عندما اكتشفت أنه درس الزراعة ولكنه كان عاشقا مدمنا للقراءة وللكتابة .

وعندما دعوته للكتابة فى مجلة أكتوبر وكنا فى شهر يوليو ١٩٩١ كان أسعد الناس بهذه الدعوة .. وقال لى بعد يومين إنه ظل ساهرا بلا نوم فقد وجد نفسه حائرا لا يعرف كيف يواجه قارئ أكتوبر . وقلت له واجهه كما أنت .. إن القارئ الذكى يستطيع أن يكتشف المصنعية أو الصدق بسهولة فى أى كاتب .. فكن أنت ولا تحاول أن تفتعل المصنعية .. قال يسألنى : وحدود الحرية المتاحة ؟ قلت أجيبه : أنا من المؤمنين بأن صاحب القلم يعيش هذه الأيام أزهى الفترات .. لقد عاصرت مهنة العمل الصحفى نحو ٤٠ سنة وأستطيع أن أقول بلا تزيد إننا لم نشهد حرية بهذه المساحة التى نعيش فيها اليوم . إن الحرية ليست أن تكتب فقط ولكن أن تقول أيضا وتتكلم وتجد ما تقوله منشورا ومطبوعا وموزعا ومحمولا إلى الملايين .. وليس هناك صاحب رأى فى مصر اليوم لا يكتب أو لا يتكلم ..

قلت مضيفاً : إن قيمة أية حرية هى فى استثمارها بالمقاييس التى تفيد الوطن .. ليس هناك شىء بدون فائدة .. الحرية لها فائدة ، الديمقراطية لها فائدتها .. أى شىء فى الدنيا إذا لم تكن له فائدة يصبح عديم القيمة ويلقى به فى أقرب سلة قمامة .. وفائدة الحرية أن نفيد بلدنا بالصدق لا بالغش .. ربما أكون مخطئا فى تفكيرى ولكن صادقا فى نواياى واتجاهاتى .. وما دمنا جميعا نلتزم أدب الحديث والحوار والكتابة فأنا أستطيع أن أراهن أننا قادرون على أن نكتب عن أى موضوع بغير تحفظات .

وأرسل لى الدكتور فرج فودة أول مقال له للنشر فى مجلة أكتوبر وكان عن شركات توظيف الأموال ، واتصلت به أبدى اعجابى بالمقال وأطلب إليه أن يختار عنوانا ثابتا نضعه لمقالاته .. قال إنه لم يسبق أن فعلها ، فهو كان يكتب مقالات متناثرة فى بعض الصحف الحزبية

ولكن بغير عنوان .. لكنى أقنعته بأنى من المؤمنين بأن كل كاتب لابد أن يكون له عنوانه الثابت لأن الناس سوف تذكره ، دائما بهذا العنوان .. وأرسل لى فى اليوم نفسه ثلاثة عناوين تركتها على مكتبى إلى اليوم التالى .. كان أحد العناوين الثلاثة : فى الهواء ، وكان العنوان الثانى كلام ودخان ، ولا أذكر العنوان الثالث لأنه لم يجذبنى .. وقلت له وأنا أحدثه على التليفون : حيرتنى .. وقلت وعيناى تنتقلان بين كلمات العنوانين الأول والثانى : ما رأيك نجمع بينهما ويكون العنوان : كلام فى الهواء ... ؟

□ □ □

وفى اليوم الثانى لنشر مقاله الأول فى مجلة أكتوبر اتصل بى وهو فى حالة ذعر .. قال إنه لم يسبق أن شعر بنفسه كاتبا كما حدث منذ صدور أكتوبر وقال مضيفا إننى انتهيت من كتابة مقالى الجديد وسأرسله إليك فورا .

وكان هذا المقال الثانى له يمس موضوعا تخصص فيه ولكنه خشى أن يكتب عنه فى أول مقال له .. وهذا المقال كثيرا ما أتذكره وأنا أستمع فى أثناء صلاة الجمعة لبعض الخطباء الذين مفروض ان يتحدثوا عن الدين والعبادات فيتحدثوا عن السياسة ويخوضوا فى موضوعات أجد نفسى فى خلاف معها وأود لو أننى وقفت وقلت للخطيب : حيلك .. ما هذا الذى تقول .. والصحيح هو كذا وكذا ، ولكننى بالطبع أسيطر على انفعالاتى وأحاول أن أسرح بعيدا هربا مما أسمع ، أو أتحمل انفعالاتى كاتما .

مثل هذا أعتقد أنه حدث لكثيرين غيرى وقد أحسن الدكتور فرج

فودة التعبير عن هذا الموقف الذى نواجهه فى مقاله الذى حمل عنوان « لا لتسييس منابر المساجد »

□ □ □

وبرغم أن الدكتور فودة كان ضخم الجسم يخيف منظره من لا يعرفه ، فإن كل من اقترب منه انضم بسرعة إلى قائمة محبيه عندما كان يفاجأ برقة سلوكه وأدبه وعفة لسانه ورقة مشاعره وبراءة الطفل داخله مع قوة فى الدفاع عن فكره ودلائل لا تنفد جمعها من التاريخ ورتبها فى ارشيف عقله وكانت قدرته عظيمة فى استخراجها بخفة ، وعرضها برشاقة ، واقحام محاوره بسهولة .

□ □ □

ولقد بدأ فرج فودة الكتابة فى مجلة أكتوبر فى نهاية يوليو من عام ١٩٩١ .

وعندما سألوا الذى اتهم باغتياله يوم الاثنين ٨ يونيو ٩٢ عن أسباب جريمته قال لهم : بسبب مقالاته فى أكتوبر تحت عنوان كلام فى الهواء .

ولا أظن أن هذا المتهم باغتيال فرج فودة قد قرأ مقالا واحدا له ، فمستوى تعليمه يدل على أنه بالكاد يفك الخط ، وأنه إذا قرأ لا يفهم كثيرا كل معانى ما يقرأ .. وأن هناك مترجما نقل إليه ما جعله يؤمن أنه كافر ملحد زنديق وأن اغتياله جاء فى سبيل الله ، وهو مالم يكن صحيحا .. ولا يملك بشر أن يقوله عن بشر ..

أذكر أنى كنت أنظر بغير ارتياح إلى شاب من عائلة من أصحاب الملايين .. كنت أرى وجهه ينطق بالصرامة والشدة والعجرفة .. وكان يبدو فى خلال اللحظات الخاطفة التى أراه فيها فى النادى مترفعا على كل من حوله .. كأنه امتلك الدنيا .. وقلت فى نفسى : طبعا ..

مليونير فما الذى يهمه ؟ ثم فى مرة كنت فيها فى زيارة السعودية فى غير مواسم الحج والعمرة وانتهزت الفرصة لزيارة الكعبة ، وكانت من المرات القليلة التى كان الحرم المكى فيها غير مزدحم .. وكانت أكبر مفاجأة أن شاهدته هناك .. هذا المليونير الذى تصورت أنه ملك الدنيا ولا يعرف الله .. كان يجلس فى جانب بعيد كأنه لايريد أن يراه أحد ممسكا بالمصحف وهو يقرأ .. وعرفت من موظف الفندق أن هذا الرجل تعود أن يختار الشهور التى ليس فيها زحام ليأتى إلى مكة ويمضى ثلاثة أيام ، وإن زياراته لهذا المكان لا تقل عن أربع مرات فى السنة !

ولأول مرة أدركت معنى الحديث الشريف « هلا شققت عن قلبه » ؟ ! .

وكدت أركع على قدمى وأنا أتمتم : أستغفرك يا الله .. فأنت وحدك الذى تعلم ما فى النفوس .. أما أنا أو أى واحد فلا يستطيع أن يتهم إنسانا فى دينه وعقيدته .. فمن نحن وماذا نرى وماذا نعلم عن الآخرين ؟ .. فلان جاهل ممكن ، أو دمه ثقيل جايز ، أو مشكوك فى ذمته ربما ، ولكن كافر .. حاشا ياربى أن نشاركك علمك واختصاصك وعدالتك ووحدانيتك ..

□ □ □

اغتالوه لأنه كافر .. هكذا أقنعوا الذى أمسك بالمدفع وصوبه عليه .. وفى حياته لم يمسك مسدسا أو مدفعا .. وعندما بعثوا إليه يوما يطلبون منه أن يصاحبه أحد الحراس خصوصا بعد حضوره الندوة التى حضرها فى معرض هيئة الكتاب وكان يحاور فيها كبار رجال الدين فإنه وافق على أن يصحبه الحارس عدة أيام ثم ضاق به وأعلن استعداده أن يستمتع بحريته حتى ولو مات مقتولا بعد أيام ، بدلا من أن يظل مقيد الحرية ويمتد عمره سنوات ..

وبرغم أنه لم يظهر فى ندوة تلفزيونية ولا إذاعية وإنما كان نشاطه محصورًا فى مقالاته التى يكتبها فى مجلة أكتوبر فإنهم لم يتحملوا هذه المقالات التى لم تدم سوى عشرة أشهر.

وكان من الممكن أن يكتب فرج فودة ربما عشر سنوات أخرى ثم يموت كملايين الناس الكثيرين دون أن يستشعر الناس خطورة أو أهمية أو قيمة ما كتب .. ولكنهم اغتالوه .. اغتالته يد الإرهاب والغدر والجبن .. وقد تصورت أنها بإنهاء حياته قد أغلقت ملف واحد من أشجع الذين تصدوا للإرهاب والتسلط باسم الدين ..

ولكن على العكس تمامًا حدث ..

لم تهز جريمة اغتيال رفعت المحجوب المجتمع كما هزته جريمة اغتيال فرج فودة ..

ربما لأن رفعت المحجوب كان يسير فى حراسة وفى موكب أما فرج فودة فقد كان يسير بغير حراسة مثل ملايين البشر ..

وكان رفعت المحجوب بصرف النظر محسوبًا على السياسة ، وقد شهد التاريخ اغتيالات سياسية عديدة ، أما فرج فودة فكان رجل فكر وقلم ولم يسبق أن شهدت مصر اغتيالا فكريًا كما حدث لفرج فودة ..

كان اغتيال فرج فودة رصاصة موجهة إلى العقل والفكر والرأى ..

وإذا كنا بعد سنوات طويلة قد وصلنا إلى حد أن يقول كل واحد فينا رأيه بحرية ، فها هى ذى رصاصة من مدفع فى يد شاب يقصد ما يريد - وهذا وجه الخطورة والخطر - تغتال أجمل وأعز وأعظم ما استطعنا أن نصل إليه .. هذه الحرية ..

لم تكن الرصاصات القاتلة موجهة إلى فرج فودة وحده ، وإنما كانت موجهة إلى كل صاحب رأى .. كل متعلم .. وكل مثقف .. وكل من يقول إنه يريد أن يقول ويتكلم ..

إن أزمة هذا الشعب مع الحرية أنه كان يستشعر فى فترة من الزمان أن هناك من يحومون حوله بالمدافع والرشاشات ويرتدون ملابس الدولة الرسمية ليمنعوه من فتح فمه بغير الهتاف للحاكم والتصفيق له ..

وعندما تحررنا من هذا خرج علينا من داخلنا من غير الأجهزة الرسمية من يحاول تخويفنا وإرهابنا وإدخالنا سجن أفكاره !

وعلى عكس ما كانوا يتصورون بدأ الحديث عاليًا عن فرج فودة بعد اغتياله .. وجاء من يبحث عن مقالاته وعما كتبه وسجله من فكر ...

وهكذا كان هذا الكتاب الذى الذى يجمع بعض مقالاته التى كتبها فى خلال عشرة أشهر فى مجلة أكتوبر وتحت عنوان « كلام فى الهواء » .. وعندما جاءوا يسألوننى عن عنوان الكتاب كان ردى على الفور :

حتى لايكون كلامًا فى الهواء ؟

إن اسفى أننى لم أعرف فرج فودة طويلا وقد كنت اتمنى لو تحقق لى ذلك . ولكننى باغتياله عرفت الكثير عن معركة بلدى وشعبى ووطنى .. وهو ما يجعلنى اعتقد أن ما كتبه رغم قلته لم يكن بالفعل كلاما فى الهواء .

صلاح منتصر

لا لتسييس منابر المساجد

أمامى العدد الأخير من النشرة الاخبارية التى تصدرها المنظمة العربية لحقوق الإنسان ، وتتناول انتهاكات هذه الحقوق فى الأقطار العربية ، وأحد هذه الانتهاكات من وجهة نظر المنظمة ، يتمثل فى (وقف عالمين عن إلقاء الخطب والمحاضرات فى المساجد) فى إحدى الدول الخليجية ، والسبب – وفقا لتقرير المنظمة – يتمثل فى إبداء آراء سياسية فى الخطب المنبرية ، وهو ما يمثل من وجهة نظر المنظمة (ممارسة للحقوق المشروعة فى الاعتقاد والتعبير) خاصة أن (أيا منهما لم يرتكب أى عنف) ..

ونبدأ بالرأى الآخر ..

فالقضية ساخنة ، ومطروحة على طول الساحة العربية وعرضها ، والذين ينادون بحرية عرض الآراء السياسية من فوق منابر المساجد ، خاصة فى خطب الجمعة ، يقدمون منطقا متسلسلا مفرداته على النحو التالى :

● كان هذا هو دور المنبر فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى عهد الخلفاء الراشدين ، وفى عهد من تلاهم من الخلفاء ..

● من الصعب إن لم يكن من المستحيل فصل أمور السياسة عن أمور الدين ، أو منع علماء الدين من إعلان الرأى الشرعى فى القرارات السياسية ..

● حرية الرأى لا تتجزأ خارج المسجد أو داخله ، وحرية التعبير أيضا لا تتجزأ ، خارج إطار السياسة أو داخل هذا الإطار ..

● إذا كان المجتمع يقبل حقا الديمقراطية ، فالقيد الوحيد الذى يقبله الجميع ، هو حظر استخدام العنف فى التعبير عن الرأى ، وحظر استخدام (القهر) فى دفع البعض إلى اعتناقه ، أو دفع البعض الآخر إلى التخلى عنه ، والتعبير عن رأى الدين فى القضايا السياسية ليس فيه من العنف شىء ، ولا من القهر شىء ، ولابد والأمر كذلك أن يكون فى إطار المسموح به ، إن لم يكن محل ترحيب ..

● إن أحدا لا يقبل الازدواجية فى إلقاء الأحكام المتناقضة على نفس الواقعة ، فليس معقولا أو مقبولا أن يكون الإمام على المنبر محل ترحيب واحتفال وقبول إذا ناصر الحاكم ، وأيده فى قراراته بالأدلة الشرعية ، وأعلن مساندته له بالأسانيد الفقهية ، ثم يصبح نفس الإمام محل استنكار ونقد ، ولوم وهجوم ، وإيقاف ومنع ، إذا تعارض رأيه مع رأى الحاكم ، وتناقضت أسانيده مع قراراته ، واختلفت أدلته وبراهينه مع قرارات القيادة السياسية ..

التسلسل هنا منطقى ، والحجة تبدو فى ظاهرها متماسكة ومنطقية ، والقارئ يتصور أن أنصار الرأى الآخر فى موقف عصيب ، فأين المفر من أدلة تستند إلى التاريخ ، وإلى الحاضر ، وإلى سند الرأى الآخر ، الذى ينطلق منه ، ويعتمد عليه ، ويدعو إليه ، وهو الديمقراطية ..

ولا بأس من مقدمة ..

وهى مقدمة نراها ضرورية ، فنحن لا نعتقد أن هناك قضية تعلو على المناقشة وقرع الحجة بالحجة ، ولا نأخذ بمخاوف البعض من الاقتراب من القضايا (اللغمية) التى تنفجر فيمن يقدم عليها بمحاولة الحوار أو الأخذ

والرد ، ولا نفعل ما يفعله البعض من تشويه للرأى الآخر ، وطمس لحججه ، وتزييف لآرائه ، توصلا لانتصار فكرى رخيص ، بل نعتقد أن هذا المنهج هو الذى أوصلنا إلى ما وصلنا إليه ، ووضعنا فى موقف لا نحسد عليه ، ومن أين يأتى الحسد والخطأ يلبس زى الصواب ، والباطل يبدو وكأنه حق لا يختلف عليه اثنان ؟

ونبدأ من حيث انتهى رأى الآخرين ..

ونسلم معهم بالديمقراطية ، ونسألهم عن حرية التعبير عن الرأى ، هل هى مقصورة على الإمام ، أو أنها لا تتجزأ ، وتشمل الامام والمأموم معا ؟ .

ثم نسألهم عن حقوق الإنسان ، هل هى قابلة للتجزئة ؟ وهل احتجاجنا على انتهاك ما نتصور أنه حق للإمام ، يبرر لنا السماح بانتهاك حقوق المأمومين ؟ .

الأسئلة جافة ، وصعبة ، ومرهقة ، ومن حق القارئ علينا قبل أن نخوض فيها أن نتحاور معه حول مثال تخيلى ، نتصور فيه أن حكم أحد مباريات الكرة ، أوقف المباراة ، ثم أشار إلى مساعده أن يناوله مكبرا للصوت ، أمسكه بيده ، وانطلق يلقى على جماهير المشاهدين خطابا سياسيا حماسية ، أو موعظة دينية بليغة ..

ماذا يمكن أن يحدث فى مواجهة ذلك ؟

لست أشك فى أن الجماهير سوف تثور ثورة عارمة ..

والسؤال التالى ..

هل لهذه الثورة علاقة بمضمون حديث الحكم ، الذى قد يكون موضوعيا وبليغا وجذابا وخلابا ؟ والإجابة بالنفى ، فالبلاغة لن تغنى عن الغضب ، والمنطق لن يشفع فى منع الثورة .

والسؤال الأهم : هل منع هذا الحكم من الاسترسال فى خطابه السياسى ، يعتبر حجرا على حريته فى إبداء رأيه ، لأن حرية إبداء الرأى لا تتجزأ ؟ وهل إذا أخرجناه خارج الملعب ، واستبدلناه بحكم آخر يستأنف المباراة ، نكون قد انتهكنا حقه الإنسانى ، وحجرنا على حريته ، مادام لم يلجأ للعنف .. الإجابة بالنفى طبعا ، غير أنى ألمح اعتراضا يرد على ذهن القارئ ، وتساؤلا يلح عليه ، عن العلاقة بين هذا المثال وواقعة منع إمام المسجد من التعبير عن آرائه السياسية ، ولعل القارئ يبتسم فى ذكاء وهو يردد ، ها هو ذا الكاتب يخطئ فى أول الطريق ، ويستعين بمثال يرتد إليه ، وينقلب عليه ، فليست هناك علاقة بين الكرة والسياسة ، لكن الكثيرين يجدون علاقة بين أمور الدين والقضايا السياسية ، سواء اتفق الكاتب معهم واختلف ، وأنا أقبل منهم هذا الرأى – إلى حين – وأنبههم إلى أن وجها من وجوه الثورة على الحكم الذى أشرنا إليه ، ينطلق من حقيقة موضوعية ، تتمثل فى انتهاك هذا الحكم لحقوق المشاهدين ، فهم أتوا من أجل مشاهدة الكرة ، ولم يأت واحد منهم لسماع رأى سياسى أو دينى ، وقد هيأ المشاهدون وجدانهم لقبول ما سعوا إليه ، فلما فوجئوا بغيره كانت الثورة وكان الغضب ، وشبيه بهذا ما يحدث لمن هيأ وجدانه ، وطهر بدنه ، وذهب إلى المسجد خاشعا لسماع مالا يمكن أن يختلف عليه أحد ، وهو قول الرحمن ، وحديث الرسول الكريم ﷺ ، وتفسير القرآن ، وأركان الدين ، وأحكام الإسلام ، فإذا به يسمع حديثا سياسيا يستحيل أن يكون محل اتفاق أو إجماع ، فالمسلمون يجتمعون بالدين ، ويتفرقون بالسياسة ، ومن الممكن أن يرى الإمام رأيا سياسيا ، ويرى المأموم رأيا سياسيا آخر يختلف معه على طول الخط ، دون أن ينقص هذا من دينه أو تدينه ، فلماذا يكون موقفه فى هذه الحالة ؟ .

هل يصمت ؟ ، وإذا صمت فهل من المقبول أن تبدل خطبة المنبر

راحته غضبا ، وسلامة النفسى ثورة ، وهدوءه الداخلى اشتعالا ؟ وهل من حقه إذا استبد به الغضب أن يعترض على الأمام ، أو يطالبه بالرجوع إلى الحق أو بالنزول عن المنبر ، أو يأخذ الأمر (من قصيره) ويخرج تاركا المسجد للإمام ، لكى يصول فيه ويجول ، ويصيب ويخطئ ، وكلاهما وارد ، وينجو بدينه ودنياه بعيدا عن ساحة المسجد الذى ينبغى أن يكون جامعا ، وأن يكون مكانا للاتفاق ، وملاذا للساعين إلى راحة النفس ، ونقاء السريرة ، وصدق الإيمان ؟

هنا نقترب أكثر من طبيعة المأزق الذى نتصوره ، وهنا أيضا قد يرد علينا البعض بأن من حق المعترض على الإمام أن يقف ويعلن اعتراضه خلال الخطبة ، مستندا فى هذا إلى ما تواتر عن اعتراض امرأة على عمر رضى الله عنه فى شأن المهور ، واعتراض أحد المسلمين عليه فى طول ثوبه ، ومثل هذا الرد نرد عليه بسؤال سهل وبسيط ، عن أعراف عصرنا التى تأبى ذلك كل الاباء ، عن شكل الخطبة المنبرية إذا اعترض هذا على الامام ، وإذا دافع ذاك ، وإذا رأى ثالث خطأ هذا وذاك ..

وهناك ما هو أهم ..

فلا شك أننا تقدمنا فى الحور خطوة ، ولاشك أيضا أننا لسنا فى حاجة إلى تذكير المتشدقين بإمكانية معارضة الإمام إذا اختلفنا معه ، بأن هذا يطرح أسئلة أخرى ، تخرجنا عن إطار الجد إلى إطار الأسى والفزع ، فنحن لا نتصور أن الخلاف السياسى داخل المسجد يمكن حله بإنشاء منابر للمعارضين ، أو بتداول الوقوف على المنبر لأصحاب الآراء المختلفة أسبوعا بعد أسبوع ، مادام لكل منهم أدلته الشرعية وأسانيده الفقهية ، ولا نقبل أيا اقتراح أن تتخصص المساجد ، فيصبح هذا المسجد متخصصا فى التأييد ، وذاك متخصصا فى التنديد ، فذلك كله عبث لا يليق بديننا

العظيم ، وما كان أغنانا عنه فى ساحة الدين ، لكنها السياسة لعنها الله ، ولعن ما تدفعنا إليه من خيال سقيم ، وتصورات لا تستقيم ..

ثم هناك ما هو أخطر وأهم ..

من قال يا عزيزى القارئ أن الامام فى عرضه لرأيه السياسى ، يعبر عن رأى الدين ؟

لا أحد يملك أن يدعى هذا أو يؤكده ، وأقصى ما يقال أن الإمام فى هذه الحالة يعبر عن اجتهاده الشخصى فى أمر من الأمور ، وقد يتفق هذا الاجتهاد مع صحيح الدين وقد يخالفه . فإذا خالفه وهذا وارد ، أفلا يحق لنا أن ندعو إلى تجنب ذلك من الأصل ، وقصر خطبه المنبر على ما يتفق فيه وعليه الجميع ، وأقصد به قيم الدين الرفيعة ، وأسسه وأركانه ، وأصوله وفروعه ، وثوابه وعقابه ؟

وأى ديمقراطية هذه التى تفرض على الجالس رأيا لا يراه ، ولا يملك أن يخرج عليه ، وتلزمه باحترام إجبارى ليس لرأى الإمام على المنبر ، بل لمكان يستحب فيه الخشوع والخضوع ، والسماع والاستيعاب والصمت والتسليم ؟

هى إذن ديمقراطية : ولا اسمع ولا ترد ، واستوعب تعترض ، والتزم ولا تناقش ، واصمت ولا تفتح فمك ، ولو حدث هذا كله فى أمر من أمور الدين ، وشأن من شئون العقيدة ، لكان هذا كله خيرا ، ولنزل على قلوب المؤمنين بردا وسلاما ، لكن الكارثة أنه يحدث فى أمور السياسة والحكم ، وهى أمور يصبح الساكت فيها عن الحق شيطانا أخرس ..

والأمثلة واضحة ..

وأى مثال أوضح من موقف بعض رجال الدين من قضية الخليج ، التى

يعتقد كاتب هذه السطور أنها أحدى القضايا النادرة ، التى كان فيها الحق واضحا ، والباطل أوضح ؟

ألم يجتمع رهط من العلماء فى جدة لمناصرة تحرير الكويت ، والحكم على صدام حسين بالبغى ، والدعوة للجهاد ضد من روعوا شعب الكويت المسلم ، وأضاعوا أمنه ، وأهدروا أمانه ؟

وألم يجتمع رهط آخر من العلماء فى بغداد لكى يناصروا صدام ، ويساندوا راياته ، ويدافعوا عنه ويهاجموا أعداءه ؟

هؤلاء وأولئك لا يختلفون حول قضايا الدين ، ولا يتباعدون إذا قصروا اجتهادهم على القيم الدينية وإعلاء شأنها فى نفوس المسلمين ، لكنهم يتنافرون ويتصارعون حين يدخل كل منهم ساحة السياسة ، فيرى رأيا ويرى الآخر رأيا معاكسا ، وهم إن اختلفوا على صفحات الصحف ، أو فى ساحات الأحزاب أو فى جلساتهم الخاصة أو العامة فلا لوم ولا تثريب ، لكن اللوم كله ، والتثريب كله ، إذا انتقلت خلافاتهم إلى ساحات المنابر ، وأكسبوها احتراما استمدوه من وقوفهم على منابرهم ، وفرضوه على الجالسين أمامهم وفى روعهم أن ما يستمعون إليه هو صحيح الدين وأصيل الاعتقاد ..

أليس الأكرم للإسلام والمسلمين ، أن نقصر ساحة المسجد على الموعظة الدينية ، وعلى الدعوة بالتى هى أحسن ، للذى هو أحسن ، وهو صلاح الدنيا وسعادة الآخرة ؟

والتاريخ ذو شجون ..

فالمسلمون قد تنازعوا ، وأسالوا دماء بعضهم ، حين اختلفوا حول أسلوب الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه فى الحكم ، وحين

اختلفوا حول الثأر له ، وحين اختلفوا حول تولية من يليه ، وهو الخليفة العظيم على بن أبى طالب رضى الله عنه ..

الخلاف بدأ ، والدماء سالت ، والسيوف استطالت ، والأعناق ضربت ، والأطراف تمزقت ، حين دخلت السياسة من باب الدين ، فتمزق حبل الإجماع المتين ، وأصبحت هذه الأيام السوداء فتنة وصفها المسلمون فيما بعد بالفتنة الكبرى ..

ونعود إلى المعترضين ..

ونذكر لهم أن إطلاق حرية الدعاة فى خلط أوراق السياسة والدين ، وتصوير اجتهاداتهم الشخصية على أنها رأى الدين الصحيح ، ومن خلال مواقعهم على المنابر ، ليس فيه شىء من الدعوة للحرية كما يدعون ، فالحرية لا تتجزأ ، وما يتاح لأئمة المنابر المسيسين ، لا يزيد على كونه تعبيرا عن رأى فريق من الفرق ، وتيار من التيارات ، هو تيار الإسلام السياسى ، بل أن شئنا الدقة ، فهو تعبير عن الآراء المختلفة فى ساحة هذا التيار ، فأين حق التيارات الأخرى فى التعبير وهى جميعا تنتسب للإسلام دينًا ، وتتمسك به اعتقادًا ؟ وأين فرصتها المتكافئة فى عرض الرأى والدعوة إليه ؟ ومن هذا الذى يملك أن يستقل بالإسلام ، أو أن يعتبره قطاعًا خاصا به ، يختص به فريقه ، وتحتكره جماعته ، ويؤممه تياره لصالحه ؟

ويبقى الحديث عن صدر الإسلام ..

وهو حديث يستند إلى هذه الفترة الزاهية ، ويجد فيها سنداً لرأيه ، فقد كان المسجد بالفعل فى هذه الفترة منبرا للتوجيه ، وساحة للحوار ، ووسيلة للاتصال ، وهنا نستعير قول الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله

عنه ، فى شأن سهم المؤلفة قلوبهم ، حين قال : لقد كان ذلك والإسلام يومئذ قليل ، ونحن نكرر نفس القول ، فقد كان المسجد فى ذلك الزمن وسيلة الاتصال الأولى بالمسلمين ، فهل أصبح كذلك فى عهد تقدم وسائل الاتصال وترامي أطراف ديار المسلمين ، وإمكان توصيل الرأى والأمر والقضايا إلى كل مسلم فى داره ، وفى أى لحظة من لحظات ليله أو نهاره ؟

نعم كان المسجد مكانا للحوار والنقاش فى كل الأمور بما فيها الأمور السياسية ، فهل هو اليوم أصلح مكان لهذا ؟ وهل هو أقوى فى تحقيق ذلك من ساحات البرلمان والصحف والأحزاب وأجهزة الاعلام المسموعة والمرئية ؟

نعم أيضا كان المسجد مكانا للرأى والرأى الآخر ، وقت أن كان المسلمون قلة ، وكان تماسكهم قائما ، وكانت قضاياهم واضحة ، واختلافاتهم محدودة ، فهل أصبح ممكنا أن يقوم المسجد بهذا الدور ؟ فى زمن تشابكت فيه القضايا وتعقدت ، وتعددت فيه الآراء السياسية فى ذات القضية ، وانعكس هذا على الاجتهادات الدينية ، فكان ما كان من خلافات رجال الدين فى كل القضايا السياسية ، وكان ما عاصرناه جميعا من نماذج فجة للخروج على كل الأعراف والآداب والقيم فوق منابر بعض المساجد من قلة من الأئمة ، تحقيقا لمآرب سياسية لصالح تيار سياسى محدد ، أو توصلا إلى شهرة إعلامية تكفلها شرائط الكاسيت المثيرة ، ولدينا منها نماذج لا نود التعرض لها ، لأننا لا نشك فى أنها نماذج إن أدانت فهى تدين أصحابها ، ولا تمس الإسلام العظيم السمح من قريب أو بعيد .

ونصل إلى نتيجة ..

وهى نتيجة نعتقد أنها منطقية ، فللديمقراطية تواجدها ، ولممارسة حرية

الرأى ما يناسبها من ساحات ، وما يتلاءم معها من أساليب ، ونحن ضد قمع أى رأى وضد الحجر على أى فكر ، وضد منع أى فرد من حقه الطبيعى فى الممارسة السياسية المشروعة ، غير أننا نجد أن لهذا كله ما يناسبه من ساحات وأماكن ، والتدخل مثلا بمنع أحد السياسيين من القاء محاضرة على ركاب أحد الأتوبيسات ليس حجرا على حريته السياسية ، وليس انتهاكا لحقه الإنسانى ، ولكنه تنظيم لممارسة الحرية ، والاستمتاع بالحق ، وهو أيضا احترام لحق ركاب الأتوبيس فى الاستمتاع بوقتهم على النحو الذى استهدفوه ، وهو حق إنسانى ، فهم استهدفوا الوصول إلى مكان محدد ، وليس إلى رأى محدد فى قضية لم يسع أحد منهم إليها ، أو إلى معرفة أبعادها ، وكذلك المصلون ، الذين استهدفوا السعى الى المعرفة الدينية الصحيحة ، وسعوا إلى المسجد كساحة للاتفاق الدينى ، وليس كساحة للخلاف السياسى ، وإذا كنا نرى أنه ليس من حق الدولة أن تمنع إماما من إبداء رأيه فى محفل سياسى ، لكونه إماما ، فإننا نرى أن من حقها أن تمنعه من توظيف منبر المسجد لتحقيق أهداف سياسية ، لكونه إماما ، يسعى إليه المسلمون للتفقه فى أمور دينهم ، وما نظن أن إثارة الفرقة بين المسلمين ، واستثارة مشاعرهم لصالح تيار معين ، باب من أبواب الفقه أو هدف من أهدافه ..

ولهذا نختلف مع المنظمة ..

فالمنظمة معنية بحقوق الإنسان ، ومنشغلة بالدفاع ضد انتهاكات هذه الحقوق ، ومنع بعض الأئمة من استغلال منابر المساجد فى التعبير السياسى ، ليس انتهاكا لحقوق الأئمة ، فحقهم مكفول فى حدود وظيفتهم وأهدافها ، لكنه منع لهم من انتهاك حقوق المصلين ، بإجبارهم على سماع ما يختلفون حوله وعليه ، وهو أيضا انتهاك لساحة هى باليقين أعز من أن

توظف خدمة لطموح فريق ، أو لجنوح قائل ، أو لجموح اجتهاد .. مع كل الاحترام لحقوق الإنسان ، ومع كل التوقير للإسلام ، ومع كل الاعتذار لمن يسعون إلى توظيف الإسلام لينتهكوا حقوق الإسلام والإنسان معاً ..

لابد من تونس
وإن طال السفر

كانت زيارتى الأولى للجمهورية التونسية الشقيقة ، منذ عامين ، حيث أتيحت لى فرصة دراسة وضع التيار السياسى الدينى هناك عن قرب ، وأثار انتباهى ، وربما انزعاجى ، ذلك القدر الهائل من ازدواجية الخطاب السياسى ، الذى يقدمه هذا التيار للجماهير التونسية ، فعلى السطح ما يسمى بحزب النهضة ، الذى يتوجه للمثقفين ، والليبراليين ، والذى يتبنى معك أى شىء ، ويوافقك على كل شىء ، وينثنى معك أينما انثنيت .

وعبثا يذهب جهدك إن حاولت إحراجه ، أو ظننت أنك بأسئلتك سوف تضعه فى مأزق ، فلو سألته عن موقفه لو قدر له أن يحكم أو يشارك فى الحكم ، من صناعة الخمور لأجابك لا بأس ، وعن بيعها لا بأس ، وعن تداولها لا بأس ، وعن لباس البحر ذى القطعتين لا بأس ، وذى القطعة الواحدة لا بأس ، وعن السفور لا بأس ، وعن الاختلاط لا بأس ، وباختصار فهو حزب يسعى إلى طمأنة الرأى العام المعارض له فى أى شىء وفى كل شىء ، فإذا سألته عن فهمه الخاص للإسلام تسارعت الألفاظ الضخمة الرنانة إلى لسانه ، وحدثك عن النهضة والهوية وفقه الحضارة ، وإذا سألته عن العنف استنكر ، وعن تكفير المجتمع أنكر ، وعن اغتيال المعارضين بسمل واستغفر ، وهنا لابد أن تسأل نفسك إن كنت مختلفا معه ، أو على النقيض منه ! ماهى المشكلة إذن ؟ ولماذا هذا العداء المتبادل بينه وبين نظام الحكم ؟ خاصة أن الرئيس الحالى هو الذى

أخرج زعماءهم من السجون ، وفتح صفحة جديدة معهم ، وسمح لهم أخيرا بإصدار صحيفتهم (الفجر) ، وهى صحيفة بينى وبينها قضية تداولها المحاكم التونسية ، وهذا موضوع حديث آخر ، لا أريد أن يشغلنى أو يشغل القارئ عن السؤال عن سر العداء بين حزب (لا بأس) ونظام الحكم التونسى ، وهو عداء لا يشغل الطرفين فقط ، بل يشغل أيضا الشعب التونسى ، الذى يتمنى أن ينتهى ، وأن تزول أسبابه ، فهو شعب طيب ، رقيق فنان ، مثقف ، عاشق للحياة إلى أقصى حد « ساع إلى الهدوء النفسى ، والاستقرار السياسى ، قريب للحضارة بالعقل ، وللأصالة بالوجدان .

وحدثت المواجهة ..

فى أعقاب محاضرتى الأولى ، التى ألقيتها فى صفاقس ، استأذن مقدم المحاضرة ، الأخ الأستاذ الأسعد الجموسى ، فى أن يتلقى الأسئلة كلها مكتوبة ، ويلقيها دفعة واحدة ، وأتولى إجابتها جميعا مرة واحدة فاعتذرت . وطلبت منه أن يسمح لكل صاحب سؤال بالبقاء ، وأن تولى الاجابة سؤالا بسؤال ، فإذا به يكرر الطلب ، وملامح القلق بأدبه على وجهه ، وهو قلق تبينت أسبابه فيما بعد ، واستسلم أمام إصرارى على رأيى ، وبدأت الأسئلة ، واستمرت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل ، فقد كنا فى رمضان ، وكان موعد بدء المحاضرة فى التاسعة مساء .

وانكشف الوجه الآخر

كشفت الأسئلة لى عن الوجه الآخر للحركة الاسلامية فى تونس ، فما يقوله الزعماء شىء ، وما يقوله الشباب المنتمى للحركة شىء آخر تماما ، وإذا كانت مقولات حزب النهضة هى المعلنة على لسان الكبار ، فمقولات

حزب التحرير الاسلامى هى المتداولة على ألسنة الصغار ، وهى مقولات تقترب كثيرا من مقولات أعضاء تنظيمات (الجهاد) و (التكفير والهجرة) و (الجماعة الاسلامية) و (الناجون من النار) و (الناجون من الكفتة) و (قف وتبين) و (كل واشكر) .. إلى آخر هذه الأسماء الغريبة التى أتحفنا بها زماننا الردىء ، ووجه التقارب يتمثل فى تبنى العنف كأسلوب للتغيير وقد أتيحت لى الفرصة للحصول على الكتب التى توضح فكر هذا الحزب ، وهى كتب فاخرة كان أعضاء الحزب يوزعونها بالمجان بعد محاضرة لى فى برلين ، لكن هذه قصة أخرى ، ويستطيع القارئ أن يكتشف كثيرا من أوجه الشبه بين الفكر الراديكالى للثورة الخمينية ، وملامح فكر حزب التحرير الاسلامى ، الذى نشأ خارج مصر ، ونجح فى استقطاب الأنصار فى سوريا والأردن والعراق وفلسطين وبعض المغرب العربى ، ولم تسمع عنه مصر إلا فى حادث الفنية العسكرية المشهور ، الذى قام به تنظيم صالح سرية ، ومع فشل التنظيم الذريع فى تحقيق أهدافه ، انتهى وجود الحزب وتأثيره فى مصر .

نعم للإسلام .. لا لتونس ..

بدت الأسئلة لى عنيفة وحادة ، وكانت إجاباتى عنها أعنف وأحد ، وصفق المؤيدون للسائلين وصفق المعارضون لهم لإجاباتى وصفق أغلب الحاضرين للأسئلة والاجابات معا ، لكن أغرب تعقيب أتى من شاب صغير ، أعلن عن استعداده للموت فى سبيل الإسلام ، وعدم استعداده للموت فى سبيل تونس ، فهو يؤمن بعالمية الدعوة ، ولا يؤمن بإقليمية الأوطان ، وهو يرى فى الأوطان بقايا احتلال بغيض ، واستسلاما لدعاوى استعمارية لا هدف منها سوى الكيد للإسلام ، والتعويق لقيام دولة الخلافة الإسلامية .

هكذا لخص الشاب الصغير منطقه فى عبارة بدت لى غريبة ، وهى (نعم لعالمية الإسلام ولا للوطنية التونسية) .

الحق أقول للقارئ إننى انزعجت ، وإن سذاجة السائل والسؤال قد أصابتنى بالغضب ، فهذا شاب ولد بعد الاستقلال ، ولم يدرك ما فعله جيل آبائه من أجل استقلال تونس ، وكيف كانت تونس محورا لحياتهم وجهادهم ، وكيف سالت الدماء الزكية من أجل ما ينكره هذا الشاب الساذج المندفع وكيف كان الإسلام رصيدا إيجابيا فى حركة الاستقلال الوطنى ، ثم ما هذا العبث ؟ ومن أين يأتى التناقض ؟ وما هى المشكلة فى الجمع بين الولاءين : الولاء للدين ، والولاء للوطن ؟ ويبدو أن الغضب قد تسلل إلى حديثى الذى أحرص دائما على أن يكون هادئا فى مواجهة أى استفزاز ، ويبدو أيضا أن الغضب قد تحول فى نفوس الجالسين إلى حماسة نبيلة وأصيلة للوطن الحبيب ، فاشتعل التصفيق فى أرجاء القاعة وأنا أردد ، لا كنت أنت ، ولا كنا نحن ، إن أتى اليوم الذى ينكر فيه واحد منا ولاءه لوطنه وانتماءه له واعتزازه بتاريخه ، لقد كانت تونس قبل الاسلام ، وبقيت مع الاسلام ، وستبقى على مدى الأيام ، وكذلك كانت مصر وتكون وستكون ، وقد كانت مكة بالنسبة للرسول العظيم أحب الأماكن إلى قلبه ، وأقرب البلدان إلى فؤاده ، كانت كذلك بالنسبة له قبل الاسلام ، وظلت كذلك بالنسبة له بعد الإسلام ، كانت مكة بالنسبة له وطنا ، وكان الإسلام بالنسبة له دينا ، وما تعارض الوطن والدين أبدا ، وقد آوته المدينة ونصرته ، وعلى مدى سنوات هجرته ، ظلت المدينة موطنا للأنصار ، وظلت مكة موطنا للكفار ، وظل الرسول العظيم يردد وهو يناجى مكة ، أنها أحب البلاد إليه ، ولولا أن قومه أخرجوه منها ما خرج ، وهكذا يكون الوطن ، أحب البلاد ولو أساء أهله ، أما أنت أيها الصبى فجزء من مسلسل الصدام الذى لا ندرى له سببا ، فمرة

تصطدمون بالإسلام مع العصر ، ومرة مع الوطن ، ومرة مع الحاكم ، ومرة مع المحكومين ، وكأن الاسلام لا يعرف من اللغة العربية إلا لفظا واحدا ، هو لفظ (لا) ، لا للوطن ، لا للحضارة ، لا للدولة ، وقد جاء علينا الدور لكى نقول لأمثالك لا ، لا تشغلنا يابنى بهذه التفاهات ، وإذا كان لديك سؤال فاسأل فى موضوع المحاضرة وهو (حقوق الانسان والدولة الدينية) ..

التيار السياسى الإسلامى .. والخصوصية التونسية ..

الشاهد هنا أن كثيرا من أسئلة الشباب كانت تعكس هذا المنطق الساخط ، الرافض العنيف ، وآسف أيضا إذا أضفت ، والساذج أيضا ، فى كل مكان ذهبت إليه ، فى تونس والقيروان وسيدى بوزيد ، وجفصة وغيرها ، وقد تأكد لى أن مظلة التيار السياسى فى تونس تجمع بين نقيضين ، رأس مداور مناور بلا قدمين ، وقدمان شرسان عنيفان بلا رأس ، وإذا اجتمع الرأس والقدمان معا فلمواجهة نظام الحكم ، كل بطريقته ، وكل لتحقيق هدفه ، الرأس المفكر بالشعارات الرنانة الواسعة المرنة ، لجمع المعارضة حولها وإسقاط النظام أو إحراجه ، والأقدام الباطشة بعنف القول أو الفعل تعبيرا عن أزمات حقيقية لا علاقة لها بشعارات الفريق الأول ، وإنما علاقتها وثيقة بأزمات البطالة والتضخم وضيق فرص العمل فى الخارج والداخل ، والذى يحكم على التيار السياسى الدينى فى تونس ، من واقع تجربته فى مصر يخطئ خطأ كبيرا ، فتونس لم تعرف حتى الآن أشباه التنظيمات الدينية المسلحة فى مصر ، ولم تهب عليها بعد أعاصير الاغتيالات على يد أصحاب (الجلاليب) البيضاء والقلوب السوداء والأيدى الملطخة بالدم ، وهى أيضا قطر متماسك عقيديا ، فالكل مسلمون ،والكل مالكيون (نسبة لمذهب الامام مالك) .

وفقهاء (الزيتونة) يختلفون عن فقهاء الأزهر ، ويتسامحون مع كثير مما لا يتسامح معه الأزهريون ، وأوضح الأدلة على ذلك موقفهم من تعدد الزوجات ، حيث يباركون منعه بالقانون ، وللقارئ أن يقارن هذا بالمذابح الفكرية التى حدثت فى مواجهة قوانين الأحوال الشخصية فى مصر ، التى لم يجرؤ قانون منها أن يقترب من هذه الدائرة المحرمة ، والقضايا التى يتغنى بها صبية الجماعات الإسلامية فى مصر ، والتى تشمل تطبيق الشريعة فورا وبالقوة ، وتكفير الحاكم ، وتشبيه الدستور والقوانين بشريعة التتار ، ليست جزءا من أدبيات شباب هذا التيار هناك ، فالخلاف فى جوهره خلاف سياسى ، وإن كان التيار السياسى الدينى التونسى حريصا على إلباسه ثوبا دينيا ، يبدو لى وللكثيرين قصيرا إلى درجة الحرج شفافا إلى درجة الخجل .

خارج هذه التركيبة غير المتماسكة للتيار السياسى الدينى فى تونس ، توجد مجموعة من المفكرين الإسلاميين أصحاب الفكر المعتدل ، الذين يتملكون ما يجب أن يتملكه أى متحدث عن الإسلام أو باحث فى قضاياه .. وأقصد به الوجدان الجميل ، والأفق المتسع ، والرغبة فى الجمع بين العزيزين ، العصر والإسلام ، ويوجد أيضا علماء الدين الذين التقيت بهم ، والذين أشك فى أننى سألتقى يوما بمن هم أكثر منهم فهما وعلما وتواضعا .

وفجأة هب الإعصار

وللإعصار مقدماته ، وإحداها تتمثل فى التركيبة القيادية للتيار السياسى الإسلامى التونسى ، الذى يتمثل أساسا فيما يطلق عليه (حزب النهضة) . والذى يمثل كما ذكرنا خليطاً من أنصار (لا بأس) وأنصار البأس الشديد . والذى يتزعمه اثنان ، احدهما هو راشد

الغنوشى ، والثانى هو عبد الفتاح مورو ، وقد فضل الأول أن يقيم فى باريس ويلدغ كالنحلة ، ويحوم كالفراشة ، ويصدر البيانات والتصريحات ، ويحلم بتكرار تجربة عودة الخمينى إلى كرسى الحكم على جناح الإيرفرانس ، والثانى عبد الفتاح مورو . وهو قاض شرعى ، فى الأربعينات من عمره ، له قبول واسع لدى أنصار التيار السياسى الإسلامى ، يتمتع بهدوء الأعصاب ، وقدر ملحوظ من خفة الدم المحببة لدى التونسيين ، وقدرة أكبر على التعامل السياسى مع جميع التيارات ، وربما لهذا السبب ، فضل البقاء فى تونس ، والذى لا يعلمه الكثيرون أنه كان مرشحا لزعامة التيار ، وأنه اعتذر عن رفضها لإصابته بمرض السكر ، فكان اختيار الغنوشى ، وهو اختيار أعتقد أن التيار السياسى الدينى فى تونس سوف يدفع ثمنه ، إن لم يكن قد بدأ فى دفع هذا الثمن بالفعل .

لقد قدر لى أن أدرس شخصية عبد الفتاح مورو من خلال كل ما كتب وكل ما كتب عنه ، فقد أعلنت فى إحدى محاضراتى عن استعدادى لمناظرة زعماء التيار السياسى الدينى فى التليفزيون ، وفوجئت بمكالمة تليفونية من الأستاذ عبد الرحيم الزويرى أمين الحزب الحاكم فى ذلك الوقت ، ووزير العدل حاليا ، يخبرنى فيها بقبول الأستاذ عبد الفتاح مورو للمناظرة ، وتحديد موعد فى الساعة التاسعة والنصف مساء للمناظرة فى مبنى التليفزيون ، حيث يجب أن أكون هناك فى التاسعة لترتيب موضوعات المناظرة ، التى ستحضرها أربع شخصيات عامة ، يتعاطف بعضها مع التيار السياسى الدينى ، وخلال ساعات اليوم المتبقية ، لم يكن لدى شاغل سوى جمع كل يمكننى جمعه عن هذه الشخصية المجهولة بالنسبة لى ، والتى سأتحاور معها أمام جمهور المشاهدين .

باختصار ، حتى لا تقودنا القصص الطريفة إلى ما يأخذنا بعيدًا عن

الخط الأساسى للمقال ، كنت هناك فى الموعد ، وحضر ثلاثة من الأربعة المدعوين . واعتذر الرابع وهو الأستاذ صالح الجورشى ، وفى التاسعة والربع رن جرس التليفون ، لكى يعلن اعتذار الأستاذ عبد الفتاح مورو عن عدم الحضور ، بعد مشاورته لقيادات الحزب ، وكانت الحجة الظاهرية أن البث لن يكون مباشرا ، وهى حجة مردود عليها بوجود (المراقبين) الأربعة ، الذين سيشتركون فى الحوار ، وباستحالة البث المباشر فى مثل هذه المناظرات الساخنة ، فمن يضمن لمسئول التليفزيون ألا يخرج الأستاذ مورو من جيبه مثلا ، بيانًا سياسيًا يدعو فيه لقلب نظام الحكم ، أو أن تتحول المناظرة إلى معركة حقيقية أو .. أو .. إلى آخر هذه (المحظورات) المنطقية ..

انقسم الرأى ، وسيطر على الجلسة قرار إلغاء التسجيل ، وكان رأيى على العكس من ذلك تمامًا ، حيث طالبت بتسجيل الحلقة ، مع وضع لافتة باسم الحاضرين ، وترك لافتة الغائبين امام مقاعدهم الخالية ، وكانت وجهة نظرى أن الانسحاب من المناظرة موقف سياسى لابد من إعلانه ، وقد تم هذا ووجهت حديثى إلى (الغائب الحاضر) وهو التعبير الذى نشرته الصحافة التونسية ، وأذيع التسجيل فى التليفزيون وكان صداه واسعا .

ونعود إلى مقدمات الاعصار ، التى تتمثل فى ثلاث مقدمات ، أولاها أحداث الجزائر التى تنعكس آثارها على المغرب العربى كله بأكثر مما نتخيل فى شرقنا العربى ، وثانيها ذلك الحادث المثير ، الذى تمثل فى الهجوم على المقر الرئيسى للحزب الحاكم (التجمع الديموقراطى الدستورى) وهو مجرد هجوم رمزي أسفر عن قتل أحد الحراس ، وقامت به جماعة ملثمة تنتمى للتيار السياسى الدينى ، ومثل هذا الحادث يبدو لنا فى مصر ، كأنه (لعب أطفال) ، لكنه يبدو شديد الخطورة بالنسبة

للتونسيين ، فقد زرت كثيرًا من الوزراء فى منازلهم ومكاتبهم ، وركبت مع بعضهم سياراتهم ، وفوجئت بأنه لا توجد أى حراسة خاصة على منازلهم أو فى سياراتهم ، ومعنى هذا أن درجة الاحساس بالأمان عالية ، ومن هنا تبدو جسامة تأثير هذه الحوادث العنيفة على الرأى العام ، وكانت ثالثة المقدمات ذلك الانقسام الذى حدث فى قيادات التيار السياسى الدينى التونسى ، فى أعقاب حادث الهجوم ، حيث استقالت بعض القيادات واستنكرت ، وكان على رأسها عبد الفتاح مورو ، الذى أطل على الساحة السياسية بوجه كنت أتوقعه ، وهو وجه متسامح وليبرالى وعصرى ، وهو الآن يسعى لتكوين حزب شرعى ، على أسس ديموقراطية ، وداخل إطار النظام وليس خروجا عليه ، وأظن أن هذا كان فى سبيله للتحقيق لولا تجربة الجزائر المريرة ، التى أضافت إلى ذاكرة أهل المغرب العربى درسًا قاسيًا ، يتمثل فى أن حصول التيارات السياسية الدينية على الشرعية ، كان مدخلا لمحاولة القضاء على الشرعية بالعنف والإثارة .

كانت هذه هى مقدمات الإعصار ، الذى ما لبث أن هب ، وتمثل فى الإعلان عن اكتشاف مؤامرة لقلب نظام الحكم ، اشتركت فيها جماعات مدنية وعسكرية ، وترتب عليها أن أصبح الصراع واضحًا ومكشوفًا بين النظام المدنى والتيارات السياسية الدينية وهو صراع سوف تكشف الأيام القادمة عن آثاره وتداعياته .

وحتى إشعار آخر :

يضع الجميع أيديهم على قلوبهم ، فى انتظار ما تسفر عنه الأحداث فى تونس ، والأمر المؤكد لكل من له دراية بالأوضاع التونسية ، أن الواقع التونسى يختلف كثيرًا عن الواقع الجزائرى ، فالأوضاع فى تونس أكثر

استقرارًا ، وأكثر المتشائمين لا يتوقع تهديدًا حقيقيًا لنظام الحكم المدنى ، والذى يشغل الجميع حقا هو مستقبل التجربة الديمقراطية التونسية ، ومدى نجاح الحكم فى تجاوز الظروف الاقتصادية الصعبة ، وهذا فى تقديرى هو العامل الحاسم فى تحديد هذا المستقبل ..

وللحديث بقية

فما أكثر القصص المسلية والطريفة التى استبعدناها حتى لا يتشتت السرد ، وما أعمق الحب الذى أحمله لهذا القطر الشقيق ، وما أكثر الشوق إلى زيارتى للقطر التونسى فى الشهر القادم ، وسأنقل للقارئ من خلالها مما يحدث هناك ، بنظام البث (المباشر) من ساحة الصراع الساخنة ..

ولابد من تونس وإن طال السفر ..

يا أهلاً بالمعارك
حرب الفيديو لفضائح بعض القيادات العربية فى تونس

ما يزال الحديث عن تونس متصلاً ، وهو حديث قريب إلى وجدان كاتب هذه السطور ، فليس هناك شك فى أننى أحببت هذا القطر الشقيق ، وأن الكثيرين من أبنائه قد بادلونى حبا بحب ، وقد اندهشت وأنا أشاهد فى شريط الفيديو لمحاضرتى الأولى فى نفس يوم وصولى إلى تونس ، بعد سفر مرهق جوا وبرا ، كيف كنت على راحتى تمامًا وأنا أتحدث ، وكيف امتلأ حديثى بالمداعبات والضحكات المتبادلة ، وكأننى أتحدث مع أبناء قريتى فى ريف دمياط ، ولا تفسير لهذا الاقتراب أو التجاذب ، إلا بالتجاوب النفسى بين المتحدث والمستمع ، وهو تجاوب يسهل عليك أن تتلمس صداه ، ويصعب عليك أن تفسر أسبابه ..

مازلت أذكر حديث صديقة من أحد الأقطار العربية ، حين ذكرت لى أن الفن (يولد فى مصر ، ويعيش فى تونس ، ويموت فى ..) ، ولن أذكر القطر الأخير ، حتى لا أغضب أحدًا ، فقد كان القطر الذى تنتمى هذه الصديقة إليه ، وربما دفعتها الدعابة إلى هذا القول ، بيد أن الفقرة الثانية تظل صحيحة ، فالفن يعيش فى تونس ، وأجمل تسجيلات حفلات أم كلثوم كانت هناك ، وقد ذكر لى مدير المراسم أن سيارة السيدة أم كلثوم قد توقفت فى أول أحد الشوارع الرئيسية ، وأنها سارت على

قدميها حتى نهاية الشارع ، لكى تحيى الجماهير المحتشدة على جانبى الطريق ، والتى استقبلتها كما لم تستقبل الرؤساء أو الزعماء من قبل ومن بعد ..

فى تونس تجد جمهورًا لكل الفنانين ، أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد وعبد الحليم وسيد مكاوى وعدوية والشيخ إمام وفيروز ومارسيل خليفة وشهر زاد ، وللفنانين الشبان هناك تجارب رائعة وجريئة ، وقد استمعت فى مدينة الحمامات من مطرب شاب إلى إحدى أغرب وأجمل الأغنيات التى سمعتها فى حياتى ..

كانت الأغنية تتحدث عن (جنازة) أحد الفنانين ، وكيف كان جسده يقود المشيعين ، وصوت المطرب يردد (فى القلب جريدة ، مرشوقة سعفة ورا سعفة) ..

فى ليلة رمضانية أخرى ، جلست فى مقهى شعبى خلف مسجد الزيتونة ، وكانت هناك فرقة موسيقية صغيرة ، وكان الشبان والفتيات يتجاوبون مع الغناء بالتصفيق والترديد والرقص ..

هذا الشعب الفنان يستحيل عليه أن يستجيب لهواة (النكد الأزلى) ، الذين يحلو لهم الحديث عن حرمة الموسيقى والغناء والفن ، وقد تقسو الظروف الاقتصادية على التونسى فيخرج عن طبعه ، لكنه لا ينفصل أبدًا عن طبيعته ، والذين لا يفهمون ذلك يعزلون أنفسهم عنه ، وقد يفسر هذا موقف كثير من الرافضين للتيار السياسى الدينى ، الذين لا يكتفون بالرفض ، بل ويتجاوزون ذلك إلى العداء الشديد ..

ممنوع لأقل من ١٨ سنة ..

وما دمنا نتحدث عن العداء الشديد ، فلا بأس أن نذكر هنا قصة تشغل الرأى العام التونسى حاليًا ، وهى قصة شهيرة تناقلها التونسيون

حتى وصل الأمر إلى ضرورة تدخل رئيس الدولة بإصدار تصريح نشرته جميع أجهزة الاعلام ، بعدم نشر شريط الفيديو الخاص بالأستاذ على العريض لأن الحياة الخاصة لا يجوز أن تكون مجالاً لتصفية حسابات سياسية ..

ما هى قصة الشريط ، ومن هو الأستاذ العريض ؟..

الأستاذ العريض هو الشخصية الثالثة تقريبا فى مثلث قيادات حزب النهضة (الغنوشى - مورو - العريض) ، وهو يمثل الحدة والعصبية والتهور أحياناً تماماً كما يفعل بلحاج فى الجزائر ..

هذا عن الاستاذ العريض فماذا عن شريط الفيديو ..

لا بأس من مقدمة ترتبط بما ذكرناه عن العداء الشديد الذى تحمله بعض التيارات لدعاوى التيار السياسى الدينى الجامدة والمتصلبة والعنيفة أحياناً ..

جريدة (الاعلان) التونسية تمثل قمة هذا العداء ، ومحرروها على استعداد للوصول بهذا العداء إلى أقصى مداه ، وقد فوجئ التونسيون بصدور عدد من جريدة الاعلان عليه تحذير واضح جدا يقول (ممنوع قراءة هذا العدد لمن هم أقل من ١٨ عاماً) وتحت هذا التحذير إعلان بالبنط العريض جدا عن حصول الجريدة على شريط فيديو (صوت وصورة) لممارسة غير طبيعية وغير أخلاقية بين أحد قيادات حزب النهضة وبعض أعضاء الحزب ..

عبارة (أحد قيادات حزب النهضة) لم تكن التعبير الدقيق الذى نشرته الجريدة فى العنوان ، وقد كتبناها لتخفيف وقع ما نشر على القارئ المصرى ، فالذى نشر فعلا هو - شريط (...) للعريض - وقد وصفت الجريدة تفاصيل الشريط وهى تفاصيل مفزعة ، ودعت من يريد للحضور لمقر الجريدة لمشاهدة محتويات الشريط ، وتحدث العريض أن ينكر

ما حدث ، والمذهل أن تسجيل هذا الشريط قد تم من بعض أعضاء الحزب لتصفية حسابات مع قياداته ، وقد قرأت عن هذه الفضيحة فى بعض الصحف العربية فلم أصدق الأمر ، لكن تصريح الرئيس التونسى الذى نشرته إحدى الصحف المصرية أكد لى أن فى الأمر شيئا ، وأنه يستحيل أن يصدر رئيس الدولة تصريحا من فراغ ، وظلت الظنون تتجاذبنى إلى أن اتصل بى أحد أصدقائى التونسيين هاتفيا ، وهو بالمناسبة أحد أشهر الصحفيين فى صحيفة الاعلام ، وأخبرنى بالتفاصيل ، وزاد على ذلك أن أخطرنى بأنه قد أرسل الشريط إلى بالبريد قبل يومين ..

هذا مثال للعداء المتبادل (شعبيا) بين التيار السياسى الدينى والتيارات الأخرى ، وقد عرضناه لأنه يمثل نموذجا مختلفا عما يحدث فى بلادنا حيث لا يصل العداء إلى هذه الدرجة الحادة الصريحة المباشرة ..

الطبيعة التونسية هنا تلعب دورها ، فالناس فى تونس مشاعرهم مباشرة وواضحة وعنيفة أحيانا ، على الرغم من تسامحهم فيما لا نتسامح فيه أحيانا فى مصر ، لكن لهذا التسامح حدودا لا يقبل التونسيون أن يتجاوزها أحد ..

خلال إقامتى فى تونس قرأت حوارا دار فى شهر رمضان بين الأستاذ مورو ومحامية تونسية يسارية ، نشرته مجلة المغرب العربى ، وهى مجلة محترمة ..

الحوار دار فى لقاء علنى بين المحامية والأستاذ مورو ، وبدأ بمداعبة من المحامية للأستاذ ، تذكر له فيها ما معناه أن حبها له يتجدد ، ولا يتبدد ، وهنا رد الأستاذ مورو ردا مباشرا فيه خفة دم واضحة ، وفيه إشارة جنسية أكثر وضوحا ، على سبيل المداعبة بالطبع ، ثم تدارك الأمر وطلب منها أن تبعد عنه حتى لا يفسد صيامه ..

التونسيون رددوا هذه الدعابة وهم يضحكون « وتمثل رد فعلهم فى

الاعجاب بسرعة بديهة وخفة دم الأستاذ مورو ، ولم أجد أحدا يتجاوز ذلك إلى لومه أو الطعن فى تدينه أو الإساءه إليه .

كان الحوار كله فى دائرة المسموح به تونسيا ، فتقبله التونسيون برحابة صدر ، ولو حدث هذا الحوار فى مصر ، لقامت القيامة ، وربما خسر صاحب الدعابة رصيده الشعبى كله ، بل وأكثر من ذلك فأنا لا أتصور أن تنشر مجلة أو صحيفة مصرية نص الحوار كاملا ، بدليل أننى شخصيا أتحرج الآن من نشر التفاصيل .. هل اقتربنا قليلا من فهم طبيعة الشعب التونسى ، وكيف أنه شعب متسامح طيب فنان متذوق للدعابة ، واضح فى مودته ، وشديد الوضوح فى عدائه أيضًا .. أتمنى ذلك ..

وتكرر الخطأ التاريخى ..

نعم وقع التونسيون فى الخطأ الذى تكرر فى أغلب البلدان العربية ، فعقب الحصول على الاستقلال ، تخصصت أغلب النظم العربية فى تمزيق أوصال التيارات المدنية المعارضة ، ووصلت بعض الأنظمة إلى حد التصفية الجسدية للمعارضين ، وكلما اضمحلت المعارضة المدنية ، فرك أنصار الحزب الحاكم أيديهم فرحا ، واحتفلوا بانتصارهم ، وسعدوا بأن أعداءهم (المدنيين) أصبحوا مثل طواحين الهواء فى قصة (سرفانتس) الشهيرة .

حدث هذا فى مصر ، وفى غيرها ، وحدث بنفس الصورة فى تونس ، مع اختلاف فى الدرجة وفى التفصيلات ، وعندما ظهر المد السياسى الدينى ، اكتشفت الأحزاب الحاكمة حجم الخطأ الذى ارتكبته ، فقد أصبحت وحدها فى المواجهة ، وبحثت عن الأحزاب المدنية التى كان يمكنها أن تواجه فلم تجد ، وأصبح قصارى حلم بعض الأنظمة أن تتزعم المعارضة فيها أحزاب مدنية ، ولكن هيهات ..

هذا ما حدث بالضبط فى تونس ، فأحزاب المعارضة هامشية تمامًا ، وبعضها يسارى ، وهو مطعون فى القلب بما حدث لليسار فى العالم كله ، وبعضها الآخر قومى ، وهو مطعون فى القلب أيضًا بما حدث ويحدث فى عالمنا العربى من انقسام وتفكك وتجارب وحدوية فاشلة وطائشة ..

فى ظل انهيار المعارضة المدنية ظهر التيار السياسى الدينى ، وتحمست له نسبة محدودة من التونسيين ، ولا يستطيع أحد أن يدعى فى تونس أن رصيد هذا التيار يمكن أن يتجاوز مثلا العشرين فى المائة ، لكن هذه النسبة تعتبر هائلة بالمقارنة بما يمكن أن تحصل عليه أحزاب المعارضة المدنية التى يحمد بعضها الله ويقبل يده ظهرا وباطنا إذا حصل على ١ ٪ أو ٢ ٪ .

المشكلة هنا أن التيار السياسى الدينى صعد بأقليته المحدودة إلى منصة المعارض الرئيسى ، وأن بعض أحزاب المعارضة المدنية الهشة وجدتها فرصة لتصفية حساباتها القديمة مع الحزب الحاكم فتحالفت معه ، وفعلت ما نردده فى النكتة الشهيرة ، عم (ولد العم) الذى أراد أن (يغيظ) زوجته ، والنتيجة بالطبع تمثل مأزقا للحزب الحاكم ، فالتيار السياسى الدينى أقلية ، لكن صوته أعلى من حجمه لغياب المعارضة المدنية الحقيقية لأسباب تاريخية ، وهو لا يؤثر فى الأوضاع القائمة ، لكنه شاء الحزب الحاكم أم أبى زعيم المعارضة أو أعلاها صوتا ، وأكثرها شعبية ..

ومن هنا نفهم ما حدث أخيرًا من لقاءات بين رئيس الدولة ، وهو نفسه رئيس الحزب الحاكم ، مع زعماء المعارضة المدنية ، وتعاونه معهم إلى درجة إرسال بعضهم برسائل إلى رؤساء الدول خلال أزمة الخليج .

هل فات الآوان ، وهل تأخر الوقت ، لا نظن ، وإن كنا نؤكد أنه لأول مرة فى تاريخ تونس بعد الاستقلال ، تصبح قوة الأحزاب المدنية المعارضة أملا للحزب الحاكم ، ويصبح حديثها ونقدها وهجومها مثل ريح

الصيف المنعشة ، وينزل كلامها العنيف على قلب الحزب الحاكم بردا وسلاما ، ولا يلقى سوى الترحيب .

والشيء بالشيء يذكر

فأحد أسباب الموقف التونسي (الرسمي) فى أزمة الخليج يتمثل فى الود المتبادل بين الحزب الحاكم والأحزاب القومية المعارضة ، وهى الأحزاب المؤهلة فى ظل ضعف اليسار لتصدر ساحة المعارضة المدنية ، وهو ليس السبب الوحيد أو الرئيسى بالطبع ، لكنه أحد الأسباب القوية بالتأكيد ، ويمكن أن نضيف إليه ذلك العداء المترسب فى أعماق الوجدان ، لدى قطاعات كبيرة من الشعب ، للغرب عموما ، بأسلوب (لا أحبك ولا أطيق البعد عنك) ، فالكثيرون يقرءون بالفرنسية ، ويتصلون أعمق الاتصال بالحضارة الغربية عن طريق اللغة ، لكنهم يشعرون أن وجدانهم بعيد عن هذا تمامًا ، وأن ثقافتهم مختلفة ، وأن لسانهم فى كثير من الأحيان فى واد ، ووجدانهم فى واد آخر ، وتزداد الأزمة تعقيدًا من خلال ما حدث لأهل المغرب فى فرنسا من اضطهاد وحساسيات ومشاكل ، خاصة بعد ظهور بعض الأحزاب العنصرية فى الساحة الفرنسية ، الأمر الذى ترتب عليه عودة الآلاف إلى الوطن الأم ، محملين بمشاعر الكراهية لكل ما هو على الجانب الآخر من البحر المتوسط ، فإذا أضفنا إلى ذلك نمط السياحة الخليجية فى تونس ، أمكننا أن نقترب أكثر من فهم رد الفعل التونسى ، رسميا وشعبيا خلال هذه الأزمة ، وأنا هنا أتحدث عن فهم رد الفعل وليس عن قبوله .

الطريف أن البعض يتصور أن نقل جامعة الدول العربية من تونس إلى القاهرة كان سببا رئيسيا لما حدث فى تونس وللجفوة الطارئة بين تونس

ومصر ، وأستطيع أن أجزم بأن هذا ليس صحيحا ، وأنه لا أحد فى تونس يتوقف أمام هذا الأمر ، لا بالغضب ولا بالرفض ولا بالحقد والكراهية .

وما يزال الحديث متصلاً

فتونس فى القلب ، وحب التونسيين لمصر لا حد له ، ولن أنسى بائع الزهور الفقير ، فى مصيف (سوسه) ، الذى كان يصر على أن يهدى زهرتين لابنتى الاثنتين كل يوم ، ويرفض إطلاقًا أن يأخذ الثمن ، تحية كما كان يقول لمصر والمصريين ، ولن أنسى أيضًا ذلك الشاب الصغير الذى وقف بعد أن انتهت محاضرتى فى مدينة (سيدى بوزيد) ، لكى يسألنى وهو يمسك بجريدة (المحرر) التى تصدر فى باريس .

- هل قرأت هذه الجريدة .

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أن عنوانها الرئيسى كان عنك .. وكان يذكر أنك دعوت إلى فتح أسواق لبيع الجوارى فى القاهرة .. هل يتناسق هذا مع حديثك عن الحضارة ، وكلماتك الرنانة عن مواجهة الردة الحضارية .

صمتت القاعة .. وفوجئ الجميع بى وأنا أضحك بصوت عال .

عندما أصبح الحجاب
قضية فرنسية ساخنة

أكتب هذا المقال فى باريس ، بعد لقاءات بكثير من الأصدقاء المصريين ، الذين يتحركون بأقدامهم على أرض العاصمة الجميلة ، ويعيشون بوجدانهم على ضفاف النيل ..

هذه هى الزيارة الأولى لباريس بعد الضجة الشهيرة التى ثارت حول حجاب فتاتين مغربيتين ، والغريب أن ما نقلته إلينا أجهزة الاعلام ، كان ملونا بنظرية المؤامرة ، وهى نظرية يعتنقها الكثيرون للأسف الشديد ، وتتلخص فى تصوير الحضارة الغربية على أنها معادية للاسلام ، بل ومتفرغة لهذا العداء ، ويمكن القارئ لبعض المقالات فى المجلات والصحف الدينية ، أن يتخيل الحضارة الغربية كأنها نشأت أساسًا من أجل هذا الهدف ..

الأسف هنا يعود إلى اعتقاد كاتب هذه السطور ، أن هذه النظرية لا أساس لها ، فالذى يشغل الغرب حقا هو المزيد من التقدم ، والانجازات الحضارية ، والتنافس القاتل حول اكتشاف الجديد والمفيد والمبهر ، لأن هذا هو شرط الاستمرار ، فالعجلة تدور بسرعة هائلة ، والذى يتوقف يسقط منها بغير رحمة ، وقد ودع الغرب منذ زمن طويل قضية خلط أوراق السياسة والدين على المستوى العام ، وأصبحت قضايا (الحروب الصليبية) و (الحكومات الدينية) ، قضايا تنتمى لديهم إلى عصور قديمة ومتخلفة ، وحلت محلها قضايا الديموقراطية ، وحرية الفكر

والعقيدة ، والمساواة دون تمييز على أساس الجنس أو الاعتقاد ، وهى قضايا لا تحتمل لديهم (الهزار) أو الاجتهاد ، أو على الأقل هذا ما أعتقده ، وما تناقشت حوله مع بعض الأشقاء العرب فى مصر ، وكان منهم من شارك فى مسئولية الحكم فى بلاده فى فترة سابقة ، فإذا بأحدهم ينبرى لى معترضًا بلهجة لم تخل من الحدة ، وعنطق انطوى على غضب واضح ، أوجزه فى عبارة مثيرة أنهى بها الحوار قائلاً (أين هى الحرية الدينية والقيم الحضارية التى تتحدث عنها . إن فرنسا - الحرة - لم تحتمل رؤية فتاتين بالحجاب) ..

دار النقاش وتشعب ، وظلت هذه العبارة تطرق ذهنى فى تساؤل ملح ، عن صحة ما ذكره الصديق ، وعن حقيقة القصة التى استند إليها فى رأيه الغاضب ، حتى أتيحت لى فرصة زيارة العاصمة الفرنسية ، فكان أول ما فعلته هو التساؤل عما حدث ..

وهكذا بدأت المعركة ..

فى صباح أحد الأيام ، فى مدرسة بإحدى مدن الجنوب الفرنسى ، دخلت شقيقتان من أصل مغربى ، أعمارهما (١٥) ، (١٦) عامًا ، إلى قاعة الدرس بحجاب .

لم يكن الحجاب مجرد غطاء (منديل) للرأس ، بل كان حجابًا لا يكشف سوى الوجه ، وينسدل على الصدر والظهر والكتفين ، فوق جلباب واسع فضفاض يصل إلى القدمين ..

التفاصيل السابقة هامة ، من أجل فهم ما دار من حوار ، وما حدث من مشكلات ، فالمدارس الفرنسية لا تعترف بالزى الرسمى الموحد للطالبات ، وتراه انتقاصًا من الحريات الشخصية للمواطنات صغيرات السن ، وهى لا تشترط فى الزى سوى أن يكون مناسبًا وعاديا ، ولفظ

(مناسب وعادى) واسع المدى ، ويسمح بالتأكيد بمنديل الرأس أو القبعة ، أو ما يشبههما ، ويسمح أيضًا بالملابس (المحتشمة) ، لكنه لا يسمح بالزى (الدينى) ، الذى يميز بين الطالبات على أساس العقيدة الدينية .

دخلت الطالبتان الفصل الدراسى ، وتصادف أن كان أحد دروس اليوم خاصا بالتربية الرياضية ، وعادة تلبس الطالبات فيه ما يلائم أداء الألعاب الرياضية شورت وفانلة أو بذلة تدريب) ، وقد اعتذرت الطالبتان عن المشاركة بحجة عدم ملاءمة الزى الرياضى ، الذى (يحف) أو (يشف) أو (يصف) ، وهنا استدعاهما مدير المدرسة ، ونبه عليهما بعدم دخول المدرسة بهذا (الزى الدينى) وبضرورة حضور الدروس الرياضية بزى رياضى ملائم ..

عبارة (زى دينى) هنا هامة أيضًا ، لأن هذا هو التفسير الذى استند إليه مدير المدرسة فى قراره بالمنع ..

وهاجت الدنيا ليس بعدها بأيام ، بل فى اليوم التالى مباشرة ، حيث صدرت عشرات الصحف وهى تنشر أخبار هذه (الحادثة) فى الصفحة الأولى ..

هنا لابد من التوقف أمام ما يطرحه كثير من العرب المقيمين فى فرنسا ، حيث تعتنقون نظرية (المؤامرة العكسية) ، ومضمونها أن القصة كلها مدبرة ، وليس دافعها هو الدفاع عن الإسلام ، بل إثارة مشكلة تزعج الفرنسيين ، ويبدو الاسلام وراءها فاعلا أصليا .

دليل أصحاب نظرية (المؤامرة العكسية) ، هو سرعة النشر وسخونته ، وهم يصلون فى تصوراتهم إلى درجة اشراك الطالبتين ، أو أسرتيهما فى هذه المؤامرة ، إن جاز التعبير ، ويبرهنون على صحة تصورهم بما حدث بعد ذلك ، وهو كثير ومثير ..

كان منطق مدير المدرسة ، كما عرض على صفحات الصحف ، وعلى شاشات التليفزيون ، بسيطا ، ويتلخص فى أن فرنسا دولة (علمانية) ، ترفض التمييز على أساس الدين داخل المؤسسات التعليمية ، وأن الزى الذى ارتدته الطالبتان ، ينطلق من فرضية دينية ، ويترتب عليه ما يشبه الاعلام عن الهوية الدينية فالطالبتان تعلنان بهذا الزى أنهما مسلمتان ، وهذا مرفوض داخل المدارس الفرنسية .

أردف مدير المدرسة فى توضيح قصده ، أنه يرفض أيضًا أن تدخل المدرسة طالبتان بزى الراهبات ، فالقضية لديه ليست موقفا من دين معين ، ولكنها قضية أعراف وقيم تسود نظام التعليم ، وتمنع التمييز أو التمايز على أسس دينية ، والمشكلة فى تصوره تجاوزت الزى إلى محاولة فرض إطار قيمى معين على نظام المدرسة ، فالطلبتان ترفضان حضور الدروس الرياضية ، وغدا سترفضان حضور دروس الفلسفة ، أو بعض دروس العلوم الطبيعية ، لأسباب عقيدية ، ويستحيل عليه وهو مسئول عن المدرسة أن يقبل بذلك .

هذه مدرسة فرنسية ، والحديث للمدير ، والكل فيها طالبات فرنسيات ، لهن كل الحق فى ممارسة دينهن كما يشأن ، والاعلان عن هويتهن الدينية بأى أسلوب ، لكن ليس داخل جدران المدرسة ، ولو تركنا الأمر دون وقفة ، فسيدخل الطلبة اليهود غدًا بطاقية الرأس اليهودية المميزة ، وسيدخل البوذيون بزى الرهبان البودى البرتقالى اللون ، وسينهدم ركن المساواة وعدم التمييز من أساسه ..

هذه حجة مدير المدرسة ، نقلتها مترجمة حرفيا من إحدى الصحف الفرنسية ، وهى حجة بدت مقنعة لكثير من الفرنسيين .

بعد يومين ، دخلت زوجة الرئيس ميتران ميدان المعركة ، بتصريح ساخن ، أعلنت فيه أن مدير المدرسة أخطأ ، وأن من حق الطالبتين أن

يذهبن إلى المدرسة بزيهن الديني ، وأن رأى مدير المدرسة لا يزيد على كونه تفسيرا شخصيا يتناقض مع مفاهيم الحرية والعلمانية ، وبعد هذا التصريح إنهال سيل من الاحتجاجات من التجمعات الاسلامية ، التى ذكرت أن ما لبسته الطالبتان ، ليس (زيا دينيا) ، ولكنه تنفيذ لتعاليم الدين ، وإذا كان من حق مدير المدرسة أن يمنع (الزى الدينى) ، فليس من حقه أن يمنع (التدين) ..

اتسع الخرق على الراتق ، كما يقولون ، ودخل الفرنسيون من مناصرة الطرفين إلى حلبة النقاش ..

أنصار مدير المدرسة ذكروا أن أحدا لا يمنع مواطنا من ممارسة الدين ، أو التدين ، لكن التدين له أماكنه ، وليست المدارس من هذه الأماكن ، وأنه على الرغم من أن الأغلبية الساحقة من الفرنسيين من المسيحيين ، إلا أنه من المحظور على المدارس أن تلزم الطالبات بزى دينى أو أن تسمح لهم بذلك ، وبرهنوا على الحرية الدينية فيما يخص المسلمين بالتحديد ، بإحصائية تثبت أن عدد المساجد وأماكن العبادة الإسلامية ، التى حصلت على تصريح بالتشييد أو النشاط ، قد تجاوز ستة آلاف مسجد وقاعة ، خلال السنوات العشر الأخيرة ، وأن أغلب هذه الأماكن قد تم إنشاؤه بتمويل خارجى ، دون أن يعترض أحد ..

رد عليهم أنصار الطالبتين بأنه من العجيب أن تثور هذه الضجة كلها من أجل قضية مثل هذه القضية ، إلا إذا كانت الدوافع شيئا آخر غير قضية الطالبتين ، والتلميح هنا واضح بالعداء بالفرنسى للاسلام والمسلمين ..

رد أنصار مدير المدرسة بأن الذى أثار الضجة هم أنصار الفتاتين ، فالأمر لم يزد عن تعليمات من مدير إحدى المدارس لطالبتين ، كان يمكنهما احترام التعليمات ، أو رفع شكوى بذلك للمستوى التعليمى أو الإدارى

الأعلى ، أو مناقشة المدير فى قراره ومحاولة إقناعه ، لكن الذى حدث أن الدنيا قامت ولم تقعد دون مناسبة ، وتحولت القضية على يد أنصار الفتاتين من قضية شخصية محدودة ، إلى قضية سياسية وقومية ودينية .

أضاف أنصار مدير المدرسة ، أن القانون يسمح للجاليات الاسلامية بأن تكون لها مدارسها ، التى لن تكون مدارس دينية بالطبع ، لكن من الممكن أن يتم فيها التوسع فى تفسير مفهوم الزى المناسب والعادى وغير المتميز دينيا .

ووصل الأمر إلى الجمعية الوطنية ..

وهذا ما لم يتصوره أحد . فقد تصاعدت القضية إلى حد مناقشتها فى الجمعية الوطنية الفرنسية (أى المجلس التشريعى) ، وتابع الفرنسيون المناقشات الساخنة ، التى انتهت نهاية درامية ، حيث تم التصويت فيها لصالح الطالبتين ، وسمح لهما ولغيرهما بارتداء الحجاب فى المدارس ، وتحولت القضية إلى معركة سياسية مثيرة ، أعطى الاشتراكيون أصواتهم فيها لصالح الفتاتين ، وارتفعت أصوات حزب الجبهة الوطنية الذى يتزعمه (لوبين) منددة بموقف الاشتراكيين ، وتصادف فتح باب الانتخابات فى إحدى ضواحى باريس ، فإذا بمرشحة حزب لوبين تكتسح منافسها الاشتراكى وهى ترفع شعار أنقذوا فرنسا من الاشتراكيين ، وكانت قصة الفتاتين هى الموضوع الانتخابى الساخن ..

ولم تنته القصة ..

للأسف الشديد ، لم تنته ، بل لعلها بدأت .. فقد استقال مدير المدرسة ، احتجاجًا على قرار الجمعية الوطنية ، وأثارت استقالته تعاطفًا كبيرًا من الرأى العام الذى يستوعب منطقه ويفهمه ، وتم التعبير عن هذا التعاطف بمقالات وحوارات ركزت على نقطة أساسية ، وهى أن الأعراف

الفرنسية المستقرة ، أصبحت مهددة من خلال الأقليات الوافدة ، التى تستند إلى الحريات الواسعة التى يكفلها الدستور الفرنسى .

بعض هذه المقالات كان عاطفيًا ، وإن لم يخل من المنطق فكثير منهم ذكروا أنهم يذهبون إلى بلدان الشرق الأوسط ، ويتنازلون طائعين عن كثير من عاداتهم الشخصية التى يمارسونها فى بلادهم ، التزاما منهم بحق الأغلبية فى ضبط السلوك الاجتماعى العام وفقا للأعراف السائدة .

أحدهم ذكر أن المواطن الفرنسى يقبل زوجته أو صديقته فى الطريق العام ، أو فى الحديقة ، وقد يفعل أكثر من ذلك لكنه لا يفعل هذا فى شوارع القاهرة مثلا أو شوارع بغداد ، والفتيات الفرنسيات ينزلن إلى البحر بالنصف الأسفل من لباس البحر ، ولا يفعلن ذلك مثلا فى شواطئ الاسكندرية أو جدة .

ونعود إلى نتيجة المعركة ..

ولعل هذا هو أهم ما فى الموضوع .. فالقضية كانت محل حوار من البداية وحتى النهاية ، وليس فى الحوار خطأ والفرنسيون انقسموا إلى مؤيدين ومعارضين ، وكثيرون منهم تحمسوا لصالح الفتاتين ، أى أن القضية لم تكن قضية عداء عام للإسلام أو المسلمين كما صورتها لنا بعض أجهزة الأعلام .

وزوجة رئيس الدولة أيدت الفتاتين ، وكذا الحزب الاشتراكى ، أى أن الموقف (الرسمى) لم يكن معارضا ، أو محايدًا ، بل كان أقرب إلى التأييد ..

والقضية ، وهذا هو الأهم ، تم حسمها لصالح الفتاتين ، وليس ضدهم ، ومن أعلى سلطة تشريعية فى البلاد ..

من أين إذن أتت مقولات العداء الفرنسى للاسلام والمسلمين على أى

أساس حدثنى الصديق العربى فى القاهرة ، عن فرنسا – الحرة – التى لم تتحمل حجاب فتاتين ، وعن العداء الفرنسى للحجاب ، والادعاء المغلوط بحرية الرأى والاعتقاد ، والايمان الفرنسى الكاذب بالحريات الشخصية ..

من أين أتى هذا كله ، وعلى أى أساس يستند أنصار منطق المؤامرة ..

هذا هو السؤال الذى لن يجيب عليه أحد من أنصار هذا المنطق ، لأن منطق المؤامرة سابق للقصة ، ولا حق لها ، ومستمر وقائم سواء حدثت أو لم تحدث ..

وبدأ الحصاد المر ..

مع خالص الأسف ، فقد تابع الفرنسيون بانزعاج شديد ، الضجة التى أثارتها بعض الجهات حول القضية ، فأعطتها أكثر من حجمها ، والكتابات المثيرة التى تداولتها كثير من المجلات والصحف العربية ، وكلها للأسف الشديد نقلت هنا إلى الرأى العام ، وأصابته بارتباك وضيق شديد ، وجعلته يتساءل أهذا هو الجزاء على المناصرة والسماح ؟ ، وهل من المعقول أن يصدر قرار من أعلى الجهات التشريعية لصالح الفتاتين ، ثم نتهم بالتعصب وبإعلان الحرب على الاسلام ؟ لقد ناصرنا موقفا شاذا – بالنسبة لنا – لفتاتين غريبتين ، على حساب موقف منطقى بالنسبة لنا أيضًا ، لمسئول فرنسى ، وكلفناه وظيفة ، تزيدا منا فى تأييد الحرية الشخصية والدينية ، فهل من المعقول بعد هذا أن نتهم بالعداء للاسلام والمسلمين ، وأن توجه إلينا تهمة التعصب ؟.

هنا فقط بدأ الفرنسيون يتنبهون إلى قضايا كانوا يتسامحون فيها من قبل ، ولو على حساب النظام العام ، وأصبحوا يتعاملون معها بقدر كبير من التشدد والتشكك والحذر ..

أنتبه الفرنسيون إلى أن المسلمين فى بعض المدن الصغيرة ، يجلسون صفوفا خارج المسجد وقت صلاة الجمعة ، وهذا مخالف للنظام العام ..

انتبهوا إلى أماكن السكنى إلى أماكن للعبادة دون موافقة ، وهذا مخالف للنظام العام ..

انتبهوا إلى ارتفاع صوت أذان الصلاة خارج حدود المسجد ، وبدأوا يعلنون شكواهم من هذا ..

صحيح أنه لا توجد ميكروفونات توقظ النيام فى الفجر للصلاة ، لكن ارتفاع صوت المكبرات الصغيرة داخل المسجد ، فى أذان الظهر أو العصر بدأ يثير شكوى الجيران ..

ساد الشعور بأن القضية لم تعد قضية حرية دينية ، بل محاولة لأسلمة المجتمع الفرنسى ، وإخضاع الأغلبية فيه لنزعات الأقلية ..

ثم حدثت الضجة الكبرى فى عيد الأضحى الماضى فى حى الأتراك .. ليلة العيد امتلأت الشرفات والأسطح بخراف العيد ، التى حجبت النوم عن عيون الجيران الفرنسيين ، وفى الصباح ارتفع الصياح والتهليل والتكبير ، وفتح الفرنسيون نوافذ شققهم لكى يشاهدوا ما أفزعهم وهو منظر ذبح الخراف أمام أبواب المنازل وفى الشرفات وفوق الأسطح ..

إنهالت الشكاوى على أقسام البوليس والقضايا أمام المحاكم والمطالبات بالتعويضات على ما أصاب مشاعر الأطفال من ألم ..

الشاهد هنا أن (لوبين) لم يعد وحده صاحب الراية المرفوعة (احذر تقاليد بلادنا أو غادروها) ، وإنما تعدى الأمر إلى شخصيات كانت معروفة بالاعتدال .

جاك شيراك ، عمدة باريس وهو أحد أهم الشخصيات السياسية الفرنسية ، أدلى مؤخرًا بتصريح انتقد فيه كثيرا من سلوكيات التجمعات

الاسلامية فى بعض أحياء العاصمة ، خاصة فيما يتعلق بالنظافة واحترام آداب الطريق والقوانين البلدية ..

وحاورنى صديق فرنسى ..

وهو صحفى معروف ، وهو أيضًا من المتعاطفين مع القضايا العربية لكنه كان ثائرًا هذه المرة ، وكان رأيه أن حرية الاعتقاد فى فرنسا لا مثيل لها فى العالم كله ، واستطرد مؤكدًا وجهة نظره ..

روجيه جارودى مثلا ، أحد أشهر الفلاسفة الفرنسيين ، شهر إسلامه ، فلم ينزعج أحد ، ولم ينتقده كاتب فرنسى واحد ..

لاحظ الصديق عدم انتباهى ، فسألنى ، هل يستطيع نجيب محفوظ عندكم أن يعتنق دينا آخر ، دون أن تنقلب الدنيا رأسا على عقب . سألته عن مناسبة الحديث ، الذى لا علاقة له من وجهة نظرى بقضية الطالبتين ، فأجابنى بأن القضية واحدة ، فالاعلام لديكم يتناولها من منطلق اتهام فرنسا بالتخلى عن حرية الاعتقاد ، لمجرد الحوار حول القضية ، ورغم أن النتيجة كانت لصالح الفتاتين ، وصدقنى أنه لو تحول مليون فرنسى إلى الاسلام فلن ينزعج هنا أحد ، ولو حدث العكس فلن يفرح أحد ، فنحن لا نطلب من المواطن سوى احترام القانون ، أما اعتقاده فهو شىء يخصه ، وإذا كنا لا نجبره على موقف عام ، فنحن نطلب منه المعاملة بالمثل الشاهد هنا أن الحديث طال ، واستمر صديقى فى اندفاعه ، وغضبه ، وشرد . بذهنى بعيدا وأنا أتساءل عن علة عدم نقلنا للحقائق كاملة ، ولماذا نهوى أن نضع أنفسنا فى مواقع المضطهدين دون سبب أو مبرر ، ولماذا نتصور أننا وحدنا أصحاب المنطق ، والحق ، ولا نعطى لأنفسنا فرصة فهم الآخرين والتعرف على منطقهم ..

وسألت نفسى وأجبت بصورة عملية ، فقد أخرجت القلم من جيبى وكتبت هذا المقال ..

قبل أن يجرفنا الطوفان

توقفنا قبل ثلاثة أسابيع عند نتائج نهاية الحرب العالمية (الثالثة) ، وهى نتائج تكفى وحدها لتأكيد أن افتراضنا بشأن قيام هذه الحرب صحيح ، فخريطة العالم لا تمكن إعادة تشكيلها إلا بعد حرب عالمية ، وأن يتحول حلفاء الأمس إلى أطراف صراع فى المستقبل فهذه نتائج حرب عالمية هى الأخرى ، وأن يحدث العكس أيضًا فإن هذا يؤكد ما ذهبنا إليه ..

أطراف تحالف الأمس ، وهى أمريكا وأوروبا الغربية واليابان ، هم المرشحون للصراع الجديد ، الذى بدأت ملامحه فى السنوات الأخيرة ، وأطراف عداء الأمس سوف يصبحون حلفاء ، فالاتحاد السوفيتى ، أو روسيا البيضاء على الأقل ، وجميع دول أوروبا الشرقية ، سوف تصبح جزءاً من أوروبا الموحدة ، بعد زمن يقصر أو يطول ، جنبا إلى جنب مع ألمانيا وإنجلترا وفرنسا ، أبرز رموز التحالف الغربى الأوروبى وأشدها عداء لهم فى الماضى القريب ..

ألا يذكرنا هذا بنهاية الحرب العالمية الثانية ، التى دخلها الاتحاد السوفيتى وهو حليف للولايات المتحدة ، وخرج منها وهو أعدى أعدائها ، ودخلتها اليابان وهى أعدى أعداء الولايات المتحدة ، وخرجت منها حليفة ، شأنها شأن ألمانيا الغربية ..

هذا عن الصراع والتحالفات ، فماذا عن خريطة العالم ..

فلينظر القارئ إلى خريطة اليوم ، وإلى توقعات خريطة الغد القريب ، لكى يدرك عمق التحولات ، فقد اختفت دولة المانيا الشرقية ، وانتهى تقسيم برلين ، واختفى سورها الشهير ، وبدأ من يرسمون خرائط العالم السياسية فى إهمال اللون الأحمر الذى لم يعد أحد منهم فى حاجة إليه ، فقد اختفت (الكتلة الشرقية) وانتهى حلف وارسو ، ثم بدأ الانقسام فى (القارة السوفيتية) ، وها هى ذى دول ثلاث هى استونيا ولاتفيا وليتوانيا تعلن استقلالها ، بعد أن عاشت أكثر من نصف قرن كولايات ضمن الاتحاد السوفيتى ، والمتأمل جيدًا للأحداث يستطيع أن يتنبأ باستقلال دول أخرى آسيوية وأوروبية ، سوف تنفصل بالتأكيد عن هذا الاتحاد ، بل إن بعض المتشائمين ، يتصورون أنه لن يبقى منه سوى جمهورية روسيا وحدها ..

يوغوسلافيا أيضًا تغلى ، والأقليات فى ألبانيا ورومانيا تحشد جهودها ، والعالم كله ينتظر مخاض ميلاد عالم جديد ، حدوده جديدة ، وخريطته مختلفة ، وحيث دارت رحى الحرب ، فى أرض القارة الأوروبية ، سوف يتم وضع اللمسات الأخيرة لعالم الغد ..

وانتصرت الليبرالية ..

فالأمر الواضح والمؤكد حتى الآن أن الليبرالية بشقيها السياسى والاقتصادى قد أحرزت نصرا نهائيا ..

الحديث عن الديموقراطية (الاجتماعية) تلاشى ، والعبارات الطنانة عن ديموقراطية الغرب التى تحمى مصالح الرأسمالية المستغلة وتضرب مصالح الطبقات العاملة قد انتهت الآن ، وخجل أصحابها منها ، فزعيمة الدول التى رفعت هذه الشعارات ، وهتفت بهذه العبارات ، تعيش الآن مناخ الليبرالية السياسية حتى النخاع ..

لقد اكتشف السوفييت أن كلمة (لا) رائعة ، حين ينطقها المعارض دون أن يتحسس رقبته ، وأن هذه الكلمة هى المفتاح السرى لأبواب محاربة الفساد ، ومشكلة السوفييت ودول أوروبا الشرقية أن مناخ القمع لم يكن فقط متمثلاً فى القيود المفروضة على حرية الرأى ، لكنه كان إطارًا متكاملاً ، يبدأ بالعلاقات غير الإنسانية داخل فترة التجنيد بالقوات المسلحة ، وينتهى بالتعامل غير الحضارى فى أقسام الشرطة ، ويمر على أجهزة الاستخبارات حيث الأهوال الجسام .

هذا الاطار المتكامل ، سوف يحتاج إلى وقت طويل ، حتى تتحول ممارسة الديموقراطية إلى واقع حقيقى وليس مجرد (صرعة) موضة ، ونغمة نشاز ، لا علاقة لها بالأنغام السائدة فى المجتمع ..

الغريب أن أحدا فى دول أوروبا الشرقية لم يتحدث عن التدرج ، أو الخطوات المحسوبة ، فجميعها انتقلت من أقصى الاستبداد إلى أقصى الديموقراطية دون مشكلات ، وكأنها كانت فى غفوة أفاقت بعدها على واقع ليس غريبًا عليها ، والذى لا يصدق عليه أن يراقب ما يحدث الآن فى ألمانيا (التى كانت شرقية) ، وبولنده وتشيكوسلوفاكيا وغيرها ..

هذا عن الليبرالية السياسية ، ولا يختلف الأمر كثيرًا إذا انتقلنا إلى الليبرالية الاقتصادية ، التى أحرزت انتصارا حاسما ، فالجميع يتحدث عن الاقتصاد الحر ، والحديث عن التخطيط الشامل الذى يتحكم فى العرض والطلب قد أصبح تاريخا ، وكاتب هذه السطور لا يصدق عينيه وهو يرى ما يحدث ، فمن يصدق أن ما كنا ندرسه أو نقوم بتدريسه فى الجامعات سوف يتغير تمامًا ، سواء فى مقررات التنمية أو التخطيط أو النظريات الاقتصادية ، فلا معنى ولا فائدة من تدريس ما لم يعد له وجود ، وما أثبتت التجارب الحية أنه كان محض عبث أو انعطافة تاريخ عاد أخيرًا إلى مساره الصحيح .. من يصدق ؟.

وهنا يبدأ الاختلاف ..

فقد بدأنا سلسلة هذه المقالات بعرض لتصورات الكاتب جان كريستون روفان ، فى كتابه (الامبراطورية والبرابرة الجدد) ، وتوقفنا متأملين تصوراته عن صراع الشمال والجنوب ، وتخيله أن عالم الشمال قد أصبح شبيهًا بعالم الامبراطورية الرومانية القديمة حيث تسيطر دولة واحدة على مقدراته ، وهو يقصد بها الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو تصور متسرع ، لأن نتائج الحرب العالمية الثالثة لم تحسم بعد ، فنحن فى فترة ترتيبات ما بعد الحرب ، وهى ترتيبات يمكن أن تتمخض عن توحد عالم الشمال ، إذا وعى درس الحروب السابقة ، واتفق على أسس عالم المستقبل ، وتلافى الصراعات الاقتصادية المحتملة ، وهو احتمال ضعيف ، فأغلب الظن أن عالم الغد سوف يصبح مجالا لحرب اقتصادية طاحنة بين ثلاث قوى عاتية ، أولها الولايات المتحدة الأمريكية ومجالها الحيوى فى الأمريكتين ، وثانيها أوروبا الموحدة ، وألمانيا الموحدة هى المرشحة لزعامتها بغير منازع ، ومجالها الحيوى يشمل القارة الأوروبية كلها ، بغربها وشرقها ، وثالثها اليابان ومجالها الحيوى فى الشرق الأقصى والقارة الآسيوية ، وإذا لم تتوصل هذه القوى لحد أدنى من الاتفاق فسوف يشهد العالم حربا رابعة طاحنة ، سداها الاقتصاد ولحمتها الصراع على غزو الأسواق الثلاث ..

ويبقى دور البرابرة ..

وقد يفاجأ القارئ إذا ذكرنا له أننا نتفق مع الكاتب فى نظرته لعالم الجنوب ، الذى سوف يتحول إلى عالم يعج بالبرابرة الجياع ، فلا مجال للدول أو الدويلات الصغيرة فى عالم الغد ، وما يحدث فى عالم الشمال

اليوم ، يكاد يلغى دور وأهمية دول عالم الجنوب ، فقد كانت أسواقا رائعة فى الماضى ، ولن يكون لها هذا الدور فى المستقبل ، فأوروبا الموحدة سوق هائلة ، وقارتا أمريكا سوق هائلة ، والشرق الأقصى سوق هائلة ، وتستطيع أوروبا وأمريكا أن تغلق أسوارها على مجالها الحيوى ، وأن تتعامل مع أسواق الجنوب بقدر كبير من التعالى والتأفف وفرض الشروط ، وهو موقف يختلف تمامًا عن موقفها فى نصف القرن الأخير ، وربما ظلت اليابان وحدها أكثر التكتلات احتياجا لأسواق العالم المتخلف ، خاصة فى القارة الآسيوية ، وقل نفس الشيء عن أهمية الجنوب كمصدر للقوى العاملة الرخيصة ، فهذه أيضًا إحدى المسلمات التى أخذت سبيلها للاندثار ، فالتقدم العلمى يغنى عن ذلك من ناحية ، والمجال الحيوى يسد العجز إن وجد من ناحية أخرى ، والمشكلة الحقيقية التى سوف تواجه أوروبا الموحدة ، هى كيفية التخلص من فلول النازحين من الجنوب ، الذين أصبحوا عبئا بعد أن كانوا مصدر ثروة فى الزمن البعيد السعيد ، ولا تبقى إلا المواد الخام ، ولا أظن أن عالم الشمال سوف يحتاج منها إلى شيء سوى البترول ، هذا إن لم ينجح فى العثور على بديل أرخص منه فى المستقبل القريب ..

باختصار نقول أن مستقبل الجنوب لا يبشر بخير ، وأن أحد مظاهر الكارثة أن أحدا فيه لا يفكر فى احتمالات الغد رغم أنها مفزعة ..

لا أحد يتصور ماذا سيكون عليه عالم الجنوب فى المستقبل ، رغم أن التنبؤ بما سيحدث سهل سوف يستجدى الجنوب من الشمال القروض ..

وسوف يستجدى منه الطعام ..

وسوف يستجدى منه حق المعرفة للمخترعات الجديدة ..

وسوف يستجدى منه الخبرة الفنية ..

وسوف يستجدى منه السلاح لكى يحارب به جيرانه الجنوبيين ..

هذا ظاهر الصورة ، وجوهرها أسوأ للأسف الشديد ، فالعلاقات بين دول الجنوب وبعضها ، والصراعات المحتملة بينها تبشر بمزيد من التخلف والتمزق وضياع الموارد ..

هل يريد القارئ مثالاً ..

ليس هناك مثال أوضح بالنسبة لنا من بلدان العالم العربى ، التى يفترض فيها أنها أقرب البلدان إلى التكامل والتوحد ، والتى تتغنى بهذه الوحدة ليلا ونهارا ، وتربطها وشائج التاريخ واللغة والمصالح ، ومع ذلك فالحقائق تقول أن جميع الدول العربية بلا استثناء لها مشاكلها الحدودية مع جيرانها من الدول العربية الشقيقة ، وأنه خلال ربع القرن الأخير ، وهو أكثر ربع قرن فى التاريخ الحديث تغنى فيه العرب بالوحدة حدثت نزاعات (مسلحة) عديدة ، أطرافها عربية ، منها نزاع مسلح بين المغرب والجزائر وآخر بين مصر وليبيا وثالث بين ليبيا وتشاد ورابع بين البحرين وقطر وخامس بين مصر واليمن وسادس هو أكثرها إثارة ، وتمثل فى (غزو) العراق للكويت ، هذا إذا استبعدنا مأساة أيلول الأسود وحوار الأطراف العربية على الأرض اللبنانية ، بالرصاص ، والحروب الأهلية الدائرة فى لبنان ، وجنوب السودان ، والمغرب ، وأن حجم الخسائر بسبب هذه النزاعات العسكرية ، خاصة نزاع العراق والكويت كان كفيلا بسداد الديون المستحقة على كل الدول العربية المدينة ، وأن حجم الانفاق العسكرى لهذه الدول خلال ربع القرن الأخير يتجاوز حجم الديون المستحقة على الدول العربية المدينة بكثير ..

وأنه فى الوقت الذى تحقق فيه بعض هذه الدول أعلى معدلات الدخول فى العالم ، تعانى دول أخرى مثل السودان والصومال وتشاد من المجاعات أو هى على أبوابها بالفعل ..

هل هناك واقع أسوأ من هذا الواقع ..

الذى يجد ما هو أسوأ يدلنى ، ولدى مكافأة له ، والمشكلة أن هذا كله يحدث ونحن على البر ، ولم تغرق بعد فى لجة الفتن القومية والطائفية والدينية المحتملة ، وهى فتن يعتقد كاتب هذه السطور أنها آتية لا ريب فيها ، وهذا أيضًا إذا تجاهلنا (الصراع حول موارد المياه) وهو صراع لابد وأن تهب أعاصيره فى المستقبل القريب ..

مرة أخرى .. هل هناك توقعات أسوأ من هذه التوقعات ؟ وإذا كان هذا واقع حال أكثر الدول ارتباطًا ببعضها ، من خلال المصالح والتاريخ والوجدان والأغانى الوطنية التى تهز الحجر ، وتزلزل الجبال ، فماذا يكون عليه واقع الدول الأخرى فى كل أرجاء العالم الجنوبى التعيس ..

هذا هو السؤال الذى يعرف الجميع إجابته للأسف الشديد ، فعدا استثناءات محدودة تتمثل فى استراليا ونيوزيلنده وسنغافورة وكوريا الجنوبية ، وجنوب أفريقيا وإسرائيل ودول الخليج ، يبدو الجميع وكأنهم مقبلون على كارثة ، إذا لم يتدارك البعض منهم الموقف ، ويبدأ التفكير منذ الآن فى أسلوب الخروج من مأزق التخلف والديون والأزمات الاقتصادية الطاحنة ، وربما كانت مصر أجدر هذه الدول بالتفكير العميق ، لأنها تملك إمكانية هائلة للخروج من مأزقها الصعب ، فهى فى النهاية دولة (دور) أكثر منها دولة إمكانيات ، ودورها كان دائمًا أكبر من حجمها المادى بكثير ، ثقافيا وسياسيا وحضاريا ، وعندما تلعب مصر دورها الصحيح ، يتغير شكل المنطقة كلها ..

هل يريد القارئ مثالا على ما ذكرنا عن مصر ؟

إذن فعليه أن يراجع تاريخ الدولة المصرية الحديثة ، فى عهد محمد على ، وفى عهد إسماعيل ، حتى يدرك مدى الحجم والتأثير ، وحتى يدرك ما هو أهم ، وهو مدى التناقض بين محدودية الموارد ، ولا محدودية الدور

الحضارى والتاريخى الذى يمكن أن تلعبه مصر ، أهم دولة فى العالم كما قال نابليون بحق ..

ولهذا نشعر بالمرارة ..

فمصر قد استدرجت إلى صراع داخلى محزن ، يراهن فيه البعض على العودة للخلف بضع مئات من السنين بدلاً من التقدم للأمام بخطوات محسوبة ، والكتاب السياسيون فى مصر منشغلون بالقضايا الجزئية والمحلية أكثر بكثير من انشغالهم بالقضايا الكلية والعالمية ، وما يحدث فى عالم اليوم وهو هائل لم يدفع أحدا من الكتاب لوضع تصوره للمستقبل ، ولم يدفع المحللين السياسيين لرسم سيناريوهات لعالم الغد القريب ، وحتى السيناريوهات المطروحة فى الساحة ، والتى تصورها الآخرون لمستقبل المنطقة ، وهى متعددة ، لا يقدم عليها أحد بالحوار ، والتحليل ، والقبول أو الرفض وتقديم البديل إن كان هناك بديل ..

نحن فيما يبدو فى انتظار ما يصنعه بنا الغد وهذه كارثة ، ولا بديل عن وضع تصور لما سوف نصنعه نحن بهذا الغد ، أقول قولى هذا وأنا أعلم أن الإقدام على ذلك مغامرة ، فمشكلتنا الحقيقية كامنة فى منهجنا فى التعامل مع الأشياء ، فقد تعودنا دائمًا على أسلوب رد الفعل وليس الفعل ذاته ، وقد تعودنا أيضًا على خداع النفس ، وعلى الوقوع دائمًا فى أسر تجارب الماضى القريب ، وكأن العالم ثابت لا يتغير ، وكأننا لا ندرك أن كل يوم جديد يطرح واقعا جديدا ، يحتاج إلى سلوك جديد مختلف ..

نحن نتحدث عن السلام مع إسرائيل ولا ندرك نتائجه ، رغم أنها واضحة تماما أمام أى محلل سياسى من الدرجة العاشرة ، ونحن أيضًا نتحدث عن الوحدة من خلال معطيات التاريخ ، وننسى أن معطيات

الجغرافيا هى العامل الحاسم ، ونحن وهذا هو الأخطر ، نتصور أننا سوف تفرض رؤيتنا ، رغم أن الواقع هو الذى يفرض نفسه ، ورؤيته ، ومعطياته التى لم تتعامل معها يومًا تعاملا موضوعيا ..

من هنا يأتى الشعور بالمرارة ، فلا مجال فى عالم الغد لأحلام طائر الرخ وخيالات شهر زاد ، ومغامرات الشاطر حسن ، فهو عالم يحتاج إلى عقلية المحاسبين ، وليس إلى خيالات الشعراء ، وهو عالم مظلم بقدر عشقنا للجناس والطباق والكناية ، ومضىء بقدر عشقنا للأرقام والحسابات والحقائق ..

فليكن إذن نقدنا للذات ، هو المدخل لإجابة أكثر الأسئلة إثارة ، وأبعثها للضيق والغضب ، حين نكتشف حجم الهوة التى تفصل بين منهجنا ومنهج الآخرين ..

السؤال المثير هو ، كيف يمكن أن تخرج مصر من مأزق المستقبل ، وإذا كنا لا ندعى أننا نملك إجابة كاملة له ، فليس أقل من فتح الباب للحوار ، وطرح تصورات الآخرين ، أقول ليس أقل ، لأننا بالتأكيد فى حاجة لما هو أكثر ..

موعدنا مع السؤال المثير ، والإجابة الأكثر إثارة فى الأسبوع القادم ..

حديث عن آفاق المستقبل

هذا حديث ترددت فى كتابته ، كما ترددت فى قوله ، عندما سألنى الكاتب الكبير نجيب محفوظ ، فى ندوته بكازينو قصر النيل ، سؤالا محددا هو ، ما هو تصورك للمستقبل وكيف يمكن لمصر أن تخرج من عنق الزجاجة إلى أفق المشاركة فى مسيرة الحضارة فى المستقبل ..

وحاولت الاعتذار ..

فنحن بطبيعتنا نميل إلى الحديث فى الجزئيات ، ونتحاشى النظرة الكلية ، ونتطاحن ونحن نتحدث هموم اليوم ، ونستبعد الحديث عن المستقبل ، ربما لكونه مسئولية الأجيال القادمة ، وربما لإيماننا بعنصر (المصادفة) أو (المفاجأة) ، فمن يدرى ماذا يحدث غدا ، وهل كانت أزمة الخليج بأحداثها ونتائجها فى حسبان أحد قبل أن تحدث ؟ والأخطر من ذلك أننا نتحدث عن (المتغيرات) بافتراض أننا (ثوابت) ، مع أن البدهى والمنطقى ، كما علمونا فى الاقتصاد ، أن التخطيط للمدى الطويل ، يفترض استحالة وجود الثوابت ، وقديما قالوا ، وهو قول شديد ، أنه فى السياسة ، لا توجد عداوات دائمة ، ولا صداقات دائمة ، ولكن توجد مصالح (دائما) ..

وندخل فى الموضوع ..

ونتفق على أساسين ، لا خلاف عليهما اجمالا ، لكن الخلاف الشديد

سوف يكون فى التفاصيل ، وهى الديمقراطية والتنمية ، وهما سبيلان يرقيان إلى مستوى الشعارات . فالكل يتحدث عن الديمقراطية ، والكل يسعى إلى التنمية ، والمشكلة أننا نتحدث ونسعى فى إطار اللحظة ، وفى ضوء الواقع ، وفى حدود المشكلات الراهنة ..

ونبدأ بالديمقراطية ..

ولا نخوض فى تعريفها ، ولا نتوقف عند التسمية ، ونحدد ما نقصده بإطار عام يسمح للجميع بحرية التعبير ، وإمكانية التغيير ..

مشكلة الديمقراطية تتجاوز حدود مصر إلى المنطقة بأكملها ، فالاوضاع الراهنة تبدو كأنها تسلم زمام كثير من بلدان المنطقة إلى دائرة مفرغة ومفزعة ، تبدأ بالانقلابات العسكرية التى تفشل فى حل المشكلات ، وتنجح فى تفريغ المجتمع من القيادات المدنية المؤمنة بالشرعية ، وتنجح أيضا وهذا هو الأهم ، فى ترسيخ مفاهيم إهدار الشرعية الدستورية تحت شعارات فضفاضة من نوع (الشرعية الثورية)، و(الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب)، وعادة يكتشف الجميع أن المقصود بالشعب هو دائرة الحكم ، وربما ضاقت الدائرة فلم تتسع الا للحاكم الفرد ..

هذا النمط من الحكم هو السبب فى نمو وتعاظم التيارات السياسية الدينية ، صاحبة التراث العريق فى العمل السرى ، وفى التنامى تحت إطار اللا شرعية ، منذ أواخر عهد الأمويين وحتى الآن ، وهنا تبدأ الدائرة المفرغة فى دورتها المفزعة ، ففى غياب المعارضة المدنية ، سوف يؤدى الحكم العسكرى الى السلطة الدينية ، ولن ينتزع السلطة الدينية من مواقعها إلا الانقلاب العسكرى ، الذى يسلم الأمور بدوره ، بعد زمن يطول أو يقصر إلى سلة دينية جديدة وهكذا ، وأحيانا يختصر البعض

الطريق فيضعون العمامة فوق الزى العسكرى ، كما حدث ويحدث فى السودان ..

الخروج من هذه الدائرة المفرغة ضرورة ..

والتواصل مع الشرعية الدستورية مسألة حياة أو موت ..

والشرعية الدستورية لا تتسع لهذا أو لذاك فكلاهما خطر عليها ، ومدمر لها ، والذى يفضل أحد البديلين على الآخر يستجير من الرمضاء بالنار ..

السؤال الذى يطرحه القارئ ، لابد أن يكون عن العلاقة بين هذه الدائرة المفرغة ونظم حكم كثيرة ، تنبهت لخطر غياب الديمقراطية ، فأتاحت قدرا واسعا من حرية التعبير عن الرأى ..

والإجابة أن جناحى الديمقراطية هما حرية التعبير وإمكانية التغيير ، وإطلاق الأولى هو مدخل الثانية ، والديمقراطية ليست منحة ، وليست سماحا بقدر ما هى مناخ ، وأغلب بلادنا تدور فى دائرة السماح ، ولابد أن نكون منصفين ، فالتطور الديمقراطى فى أغلب بلادنا أتى بقرارات فوقية ، والمناخ الديمقراطى لا يحدث بين يوم وليلة ، وإذا كنا نتحدث عن المستقبل حقا فلتكن نقطة البدء باستمرار السعى الى هذا الهدف ..

والشىء بالشىء يذكر ..

فالكثيرون منا يركزون فى نظرتهم للديمقراطية على حق الأغلبية، فى الوصول إلى الحكم ، ويغمضون أعينهم أو ينظرون بنصف عين إلى حقوق الأقليات التى أتصور أنها المحك الحقيقى للتجربة الديمقراطية ، والأقليات فى عالمنا العربى واحدة من ثلاث ، إما أقليات سياسية ، وإما أقليات قومية ، وإما أقليات دينية ، وهنا تظهر النظرة بنصف عين بصورة أوضح ، حيث يقصر البعض نظرتهم لحقوق الأقليات على الأقليات السياسية ،

وهو قصور فى النظرة ينذر بأوخم العواقب ، ويشوه وجه المستقبل ، ويؤثر على التجربة كلها بالسلب ، ويحيل فهم الديمقراطية إلى نوع من العبث ..

والأخطر بالتأكيد ، وإذا كنا تحدثنا عن تجربة العالم العربى كله ونحن نتناول مفهوم الديمقراطية ، فإن الحديث هنا ، وهو عن (التنمية) ، يركز على مصر ، وهو الحديث الذى أشرت إليه فى البداية ، حين تحدثت عن التردد فى الخوض فى إجابة السؤال ، وسوف يكتشف القارئ أن ترددى كانت له أسبابه المنطقية ، فالصراحة تفزع وتجريد الحقائق يشعل الغضب ، واكتشاف التناقض بين ثبات المواقف والحديث عن المتغيرات ، لابد أن يقود إلى قدر - قل أو كثر - من عدم الارتياح ..

ونبدأ فنقول ..

إن التنمية داخل الحدود القطرية تمثل أكثر خطأ يقع فيه من يرسم استيراتيجة المستقبل البعيد .. يصدق هذا على مصر أكثر مما يصدق على أى قطر آخر ..

أتذكر هنا تعبير الدكتور جمال حمدان العظيم (عبقرية المكان) ، وهو تعبير رائع ، لأن عبقرية المكان هى أعظم معطيات مصر ، والموقع العبقرى ليس مصطلحا يطلق فى الفراغ ، لكنه مصطلح نسبى يرتبط بمواقع الآخرين ، ويتفاعل معها ، والتجارب الحديثة فى التنمية المصرية ، تتمثل فى تجربتين مذهلتين ، إحداهما فى عهد محمد على ، والثانية فى عهد الخديو اسماعيل ، وفى كلتا التجربتين ، اتسعت حدود التكامل خارج نطاق الوادى الضيق ، وانعكس هذا على التنمية والتقدم والانطلاق الحضارى داخل الوادى ..

الشيء المشترك فى التجربتين ، هو الاستناد إلى بعد (الجغرافيا) وليس إلى بعد (التاريخ) ، فلم ترتفع فى أى منها رايات الوحدة العربية

أو الوحدة الاسلامية أو الوحدة الافريقية ، بل استند الانطلاق إلى مفهوم المجال الحيوى ، شمالا فى اتجاه عمق الخلافة العثمانية فى عهد محمد على ، الذى وصل بجيشه إلى حدود اليونان ، وجنوبا فى اتجاه منابع النيل فى عهد الخديو اسماعيل ، الذى وصل إلى أوغندة ومصوع وزيلع وهرر ..

وحاولها عبد الناصر ..

بمعطيات عصره ، الذى لا يسمح بالتوسع عن طريق القوة العسكرية ، ولست أشك فى أن عبد الناصر قد أدرك الدرس ، وهو استحالة التقدم والتنمية فى اطار الوادى الضيق ، ولست أشك فى ذكاء مستشاريه ، الذين قدموا إليه فكرة الدوائر الثلاث ، العربية والإسلامية والافريقية ، ولست أشك أيضا فى سلامة اختيار الدائرة الأولى لأنها الأقرب للتحقيق ، والأكثر اتساقا مع مرحلة العداء لاسرائيل ..

المشكلة هنا تمثلت فى العلاقة بين التاريخ والجغرافيا ..

فالوحدة العربية التى بدأها عبد الناصر مع سوريا ، ثم مع سوريا واليمن ، ثم مع سوريا والعراق ، كانت وحدة استندت الى معطيات التاريخ ..

لقد تسلم عبد الناصر الحكم ، وفى يديه وحدة جغرافية حقيقية ، هى وحدة وادى النيل ، ولو بذل فى اتجاهها عشر جهده الذى بذله فى سبيل الوحدة (التاريخية) مع سوريا وغيرها لكان هذا أجدى بكثير ..

أكتب هذا وأنا أعلم أن متغيرات الواقع أقوى فى كثير من الأحيان من مبررات الطموح ، فقد كانت هناك آمال اتفاقية الجلاء ، ومشكلة محمد نجيب ، ومشاكل صلاح سالم ، وحساسيات حزب الأمة ، وقلة خبرة قادة الثورة ، وغيرها من الظروف التى أثرت وغيرت ، ولا مجال للحديث عنها ، لأنه لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب ..

ما أذكره هنا أن عبد الناصر كان مدركا للحقيقة التى أتناولها اليوم ، وأنه حاول ولم ينجح ، وقد فشلت التجربة ، لكن القاعدة ظلت صحيحة ، وهى صحيحة منذ أيام الفراعنة وحتى الآن ..

الحديث عن تنمية مستقلة داخل حدود مصر ، حديث عن آمال محدودة بقدر محدودية موارد هذا الوادى ، وبقدر اهمال صاحب هذا الحديث ، لأعظم ما وهبه الله لمصر ، وهو عبقرية المكان ..

وننتقل إلى المفيد ..

والمثير أيضا ، فالحديث فى كل مكان عن السلام بين العرب واسرائيل ، والحوار بين الطرفين أو الصراع بينهما ، يدور حول السلام العادل من وجهة نظر كل منهما ، فالعدل من وجهة نظر العرب هو مبادلة الأرض بالسلام ، والعدل من وجهة نظر اسرائيل هو الحصول على بعض الأرض بالاضافة إلى السلام ..

هذا هو ظاهر الحوار ، والمشاركون فيه لا يطرحون على أنفسهم سؤالا واضحا ومحددا عن طبيعة هذا السلام ، ولا عن الصورة التى سيتحقق بها ..

ليست القضية أن يقبل (بفتح الياء) البعض بالسلام أو لا يقبل ، أو أن يقبل (بضم الياء) على السلام أو لا يقبل ، فهذا اختيار مطروح على الجميع ، ولهم أن يختاروا بإرادتهم الكاملة ، فإذا أقبلوا فأهلا بها ونعمت ، وإذا لم يقبلوا فيادار ما دخلك شر ، لكن الأهم ، لمن يقبل أو يقبل (بفتح الياء وضمها) أن يفهم طبيعة هذا السلام قبل أن يقبل عليه أو يقبل به ..

السلام الذى سيكون ، إن كان حقا سيكون ، ليس له إلا أسلوب واحد ، وهو أن تصبح اسرائيل جزءا من نسيج المنطقة ، ودولة من دولها ، وعنصرا من عناصر تكاملها ..

هكذا ببساطة ، وبوضوح ، ونحن مازلنا على البر ، ومن يقبل فهو حر ، ومن لا يقبل فهو حر أيضا ..

السلام الذى سيتحقق - إن تحقق - ليس معناه أن يتم تبادل السلام باليد ، أو أن نقول لهم (سلام عليكم) فيقولون لنا (وعليكم السلام) ..

السلام معناه استعداد الدول العربية (المعنية) واسرائيل للتعاون والتكامل والتبادل ..

الذى لا يفهم ذلك يغالط ..

والذى لا يعلن ذلك يكذب ..

والذى لا يتصور ذلك يخدع نفسه ..

والذى لا يقبل ذلك عليه أن ينسحب من العملية كلها ، ويتراجع قبل بدء الطريق ..

الاسرائيليون ليسوا سذجا ، وعلينا ألا نكون حالمين ..

هذا ما أشرت إليه فى بداية الحديث ، عندما أشرت إلى حديثنا عن المتغيرات ، ونحن (ثوابت) ، بمعنى أننا نتصور عالما متغيرا فى المستقبل ، يتغير فيه كل شىء ، إلا مواقفنا الثابتة ، والتى نطلق عليها ، لتبرير ثباتها اسم (المواقف المبدئية) ..

ما ذكرته الآن ليس اجتهادا شخصيا ، ولا رأيا خاصا ، ولكنه ببساطة واقع ما سيحدث ، وحقيقة ما يمكن أن يتم ، ونحن نكره الواقع ، ونهرب من الحقائق ، ونفضل الأحلام أحيانا ، ونتصور أننا سنضحك على الآخرين أحيانا أخرى ، ولو عشنا على أرض الواقع ، أو تعاملنا مع الحقائق خلال نصف القرن الأخير لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه ..

المشكلة ياعزيزى القارئ أننا لن نضحك على أحد ، ولن يضحك أحد علينا ، فالخيارات واضحة ، ونستطيع أن نختار السلام أو أن نختار

الحرب ، فإذا اخترنا السلام فلابد أن نتعرف على الاختيار الذى نسعى إليه ، أليس هذا منطقيا ؟ ..

أليس هذا أفضل من أن نفاجأ بهذا على مائدة المفاوضات ؟ ..

أقول نفاجأ ، وأقصد الرأى العام ، ولا أقصد خبراء السياسة أو القادة ، لأن الاوراق كلها مكشوفة على المائدة ، ولا سر فى الأمر ، فقط هى طبيعتنا التى تفضل أسلوب الزغزغة ، والدغدغة ، وتدليك أصابع الأقدام ، ثم الهمس فى الأذن بالتقسيط المريح ..

وهم قد استعدوا لذلك ..

فليس سرا أن لدى الاسرائيليين دراسة معلنة ومنشورة منذ عام ١٩٧٧ ، عن تشكيل تكتل اقتصادى وسياسى وعسكرى يشمل مصر واسرائيل ولبنان وسوريا والعراق ، وقد بنوا تصوراتهم على أساس تمتع هذه الدول بديمقراطية كاملة ، وعلى أساس حرية انتقال رءوس الأموال والافراد وحق العمل داخل هذه الكتلة ، وعلى أساس تخصص دول المنطقة (مصر فى الصناعات الثقيلة وسوريا فى المنسوجات واسرائيل فى الالكترونيات والعراق فى البتروكيماويات ولبنان فى السياحة .. الخ) ..

هذا ما لديهم ..

فماذا لدينا ؟ ..

هل هو الرفض ؟ ..

حسنا ..

ما هو البديل ؟ ..

هل هو الوحدة العربية ؟ ..

مع من ، وضد من ، بعد السلام؟ ..

هل هو التكامل العربى ؟ ..

كيف ، ومع من ، وبأى أسلوب ؟ ..

هل هو رفض السلام من البداية؟ ..

حسنا ، وماذا بعد ؟

من سيحارب ومن الذى لن يحارب ؟ ..

ومن سيدفع فاتورة الحرب ؟ ..

وكيف ستحدث التنمية فى ظل اقتصاديات الحرب ؟

أليس من حقنا الآن أن ننزعج ، ونحن نكتشف أننا لا نفكر للمستقبل ، ولا نخطط له ، ولا نرى ما هو أبعد من مواقع أقدامنا ، بينما يفعل الآخرون العكس ، فيفكرون للغد ، ويخططون له ، ويسعون إليه ..

وأكاد ألمح الغضب ..

وهو ما يغضبنى حقا ، فأنا لا أدعو لشىء أكثر من التفكير ، ووضع السيناريوهات ، والاستعداد لما هو آت .. فهل هذا كثير ، وهل يدعو هذا إلى الغضب بأية صورة ..

الذى يغضبك هو الذى يضحك عليك ، وينومك مغناطيسيا ، ويصور لك الامور على غير طبيعتها ، ويخدر مشاعرك حتى تفاجأ بالحقيقة يوما فيحدث لك ما حدث مسلسل الصراع العربى الاسرائيلى ، الذى امتلأ بالمفاجآت الدرامية ، وهى مفاجآت يسهل عليك أن تعرف سببها الآن ، إذا اكتشفت أنك تغضب لمجرد أن شخصا يدعوك للتعامل مع الواقع ، والتفكير فى المستقبل ، والحساب أسلوب واحد زائد واحد يساوى اثنين وليس عشرة آلاف ..

مطلوب قبل أن نجيب عن سؤال السلام ، أن نفهم طبيعته ، فهل هذا كثير ؟ ثم نقبل أو نرفض ، فهل هذا خطأ ؟ ، ثم نعلم أن هناك

أطروحات فى الساحة يجب أن يكون لنا موقف منها أو تصور لها أو أطروحات مقابلة أو تصورات مختلفة . فهل هذا يدعو الى الضيق ؟ ..

ولماذا طرحت التصور الاسرائيلى ؟..

لأن هاجسا فى داخلى يؤكد لى أن المنطقة كلها تسعى إليه ، وأغلبها يفعل ذلك بغير وعى ، بصرف النظر عن تقييم التصور الاسرائيلى موضوعيا ، وهل يخدم مصالح دول المنطقة أم لا ..

فلنتأمل ما حدث ويحدث فى العراق ، وفى لبنان حتى ندرك أن التصور يقترب ، وأننا لابد وأن يكون لنا تصورنا الخاص ، الذى يختلف أو يتفق .

لابد أن يكون لنا السيناريو الخاص للرؤية المستقبلية لمصر ، والذى يرتكز على أساس الديمقراطية الصحيحة ، وعلى أساس وضع تصور استيراتيجى للتنمية المتكاملة داخل الوادى وخارجه ..

انتهى عصر الجيوش الزاحفة عن طريق الغزو بالقوة أيام محمد على واسماعيل ، وبدأ عصر العقول الزاحفة عن طريق الاتفاق لتحقيق المصالح على موائد المفاوضات ..

فلينته إذن عصر انتظار الغد ، واليد على الخد ، والتغنى مع أم كلثوم ، وأقول ياعين اسعفينى ، اسعفينى ياعين ، وليبدأ عصر الفهم للحاضر والطرح الواضح للمستقبل ، والاستعداد للغد ، قبل أن يدهمنا ما لم نستعد له .. ألم أقل لكم إن حديثى مزعج ..

قراءة فى أوراق مؤتمر السلام

أكتب هذا المقال ، بعد أن تحدد موعد انعقاد المؤتمر فى نهاية شهر أكتوبر ومكانه فى مدريد ، وبعد أن وافق الجميع على تشكيل وفد أردنى فلسطينى مشترك ، وسوف ينشر المقال بعد انعقاد المؤتمر بالفعل ، ومن حسن حظ كاتب هذه السطور ، أنه لا يحتل موقعا رسميا ، ولا يستمد معلوماته من مصادر رسمية ، ولا يعبر إلا عن رأيه الشخصى ، وتحليله السياسى الخاص ، استنادا الى حقائق الموقف السياسى المعلومة للكافة ، والبيانات والتصريحات المنشورة والمتاحة للجميع .

ليسمح لنا القارئ بالاختلاف ..

فالشائع لدى الجميع ، أن القضايا (اللغمية) إن جاز التعبير ، تتمثل فى قضايا هضبة الجولان ، ومدينة القدس ، وهو تصور نختلف معه ، لكن ليس قبل أن نوضح أن اختيارنا لتعبير (القضايا اللغمية) هو اختيار دقيق ، لأن القصد منه أنها قضايا يتصور البعض أنها تنفجر فى وجه من يقدم عليها بالحل ، أو حتى بمحاولته .

قضية هضبة الجولان تمثل حدا أدنى للاتفاق بالنسبة للجانب السورى ، بل لعل الاتفاق على الحد الأدنى الذى يقبل به السوريون ، هو أحد الشروط الأساسية لاشتراكهم فى المؤتمر ، بصرف النظر عن التصريحات (الاعلامية) التى تتحدث عن رفض الشروط المسبقة وعن أن كل شىء

قابل للتفاوض ، إلى آخر هذه التصريحات التى يجيد الطرف الاسرائيلى إعلانها ، وتوظيفها ، والمزايدة عليها ..

الجميع يعرفون أن الطرف السورى لا يقبل بأقل من عودة هضبة الجولان إلى السيادة السورية ، وأن الرئيس الأسد لا يمكنه أن يقدم ما هو أقل من ذلك إلى شعبه ، والجميع يعرفون أيضا أن اسرائيل لا تقبل بأى تهديد لأمنها يأتى من هذه الهضبة ، التى تمثل موقعا عسكريا متميزا يهدد أمن حدودها الشمالية ..

والهضبة نفسها ، لا تمثل إغراء لاسرائيل ، اقتصاديا أو جغرافيا أو سكانيا ، بقدر ما تمثل تهديدا لها ..

والحل المنطقى ، بل لعله الحل الوحيد الممكن ، يتمثل فى عودة الهضبة إلى السيادة السورية ، مع نزع السلاح الشامل لها ، وربما تم بحث ترتيبات تحديد حجم القوة العسكرية السورية فى المناطق الشمالية المتاخمة للجولان ، على النحو الذى تم بالنسبة للمناطق المسماة أ ، ب ، ج ، فى شبه جزيرة سيناء فى معاهدة كامب ديفيد .

الحل السابق هو الحل التوفيقى ، الذى يتنازل فيه كل طرف عن شىء ، ويكسب شيئا آخر ، وهو حل يرضى - فى تقدير كاتب هذه السطور - كل الأطراف ، فالسوريون سوف يحتفلون بعودة هضبة الجولان إلى السيادة السورية ، ورفع العلم السورى عليها بعد ربع قرن من الاحتلال الاستيطانى ، وهو انتصار لهم لاشك فيه ، يبرر اشتراكهم فى مؤتمر السلام ، والاسرائيليون سوف يستريحون إلى انتهاء التهديد الأمنى الآتى من الشمال إلى الابد ، ليس بقوة (السلاح) ، بل بقوة (السلام) وهو انتصار لاشك فيه ، خاصة أن عقد اتفاق سلام مع سوريا سوف ينهى إلى الأبد احتمالات الصراع المسلح فى المنطقة ، أما التنازلات التى سوف يقدمها الطرفان فى المؤتمر ، فهى أكثر وضوحا ، فاسرائيل

سوف تتنازل عن احتلالها للجولان ، وسوريا سوف تتنازل عن تسليحها ، وهى تنازلات ممكنة ، فى ضوء التجربة السابقة للسلام بين مصر واسرائيل .

لعل القارئ الآن يبدو مستريحا إلى اتفاق يؤكد له ما هو راسخ فى ذهنه ، من أن السياسة هى فن التعامل مع الواقع وليس الحلم ، ومع الممكن وليس المستحيل ، لكن الأمر لن يتم بهذه البساطة ، فهناك فرق بين ما يمكن أن ينتهى اليه المؤتمر ، وما يمكن أن يحدث خلال المفاوضات ، فالطرف الاسرائيلى واضح تماما من المؤتمر ، فهو يريد أن ينتهى بسلام حقيقى كامل ، تصبح اسرائيل بعده دولة من دول المنطقة ، لها ما لها ، وعليها ما عليها ، ويستحيل عليه أن يقبل بالخروج من المؤتمر ، كما دخله ، دولة بلا جذور ، ولا علاقات ، ولا قبول ، ولا تعامل مع الجيران ، ولا تفاعل معهم ولا طمأنينة حقيقية لسكانها على المدى البعيد .

الاوراق التى لديه هى التعنت والمواقف المتشددة ، والعروض المستفزة ، خاصة أنه يضع يده على الأرض بالفعل .

والأوراق التى فى يد الطرف السورى هى ترتيبات ما بعد السلام ، وهى أوراق يضع الطرف الاسرائيلى عينه عليها ، وهو مستعد أن يتعامل معها بمنطق المبادلة ..

باختصار وبوضوح نقول أن اسرائيل لا تسعى إلى هدنة أو ترتيبات حدودية ، لكنها تسعى مع سوريا إلى سلام دائم ، وفى المقابل فإن سوريا تسعى إلى انتصار سياسى ، يتمثل فى استرداد الأرض ، وإن الاتفاق ممكن لأنه معلوم الملامح ، محدد النهايات ، لكن الخلاف سوف يكون على التفصيلات ، ولهذا فسوف يستغرق وقتا ، وربما كان الخلاف العنيف فى بداية المؤتمر ، وخلال جلساته ، مطلوبا ومرغوبا كتكتيك دبلوماسى ، يبرر لكل من الطرفين إعلان انتصاره السياسى فى نهاية المطاف .

القدس لغم آخر ..

لكنه لغم يمكن التوصل إلى ابطال مفعوله إذا تعرفنا على الحد الأدنى المقبول للاتفاق بين الطرفين .

أهداف الجانب العربى تتمثل فى عودة الجانب العربى من مدينة القدس للسيادة العربية ، خاصة أنها مدينة مقدسة بالنسبة للمسلمين والمسيحيين العرب ، ويكفى أن فيها المسجد الأقصى وكنيسة بيت لحم وكنيسة القيامة ، وفى المقابل فإن اسرائيل تتمسك بثلاثة شروط أساسية ، أولها أن القدس هى عاصمة اسرائيل ، وثانيها أن القدس مدينة موحدة لا تقبل التقسيم ، وثالثها حق اليهود فى زيارة أماكنهم المقدسة التى تتمثل فى حائط المبكى وموقع هيكل سليمان القديم .

هذه هى الصورة التى تبدو كئيبة فى ظاهرها ، وإن كان كاتب هذه السطور يرى أن إمكانية التوصل إلى حل فيها واردة ، فالتوفيق ممكن بين وجهتى النظر ، ومن الممكن أن تظل القدس موحدة ، وأن تخضع إداريا لمجلسين إداريين محليين ، أحدهما اسرائيلى فى القدس الخاضعة للاحتلال منذ عام ١٩٤٨ والآخر عربى فى القدس المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، مع ترتيبات شاملة لحرية العبادة والانتقال ، أما انتقال الحكومة والكنيست إلى الجانب الاسرائيلى فى القدس ، فلن يكون فى اعتقاد كاتب هذه السطور نقطة خلاف حقيقية .

المكاسب هنا للطرفين واضحة ، والتنازلات أيضا واضحة ، وملامح الاتفاق واضحة ، لكن هذا لن يمنع الخلافات ، والمزايدات ، والمنازعات السياسية واللفظية ، وكل هذا فى تقديرنا مطلوب ومرغوب ومحسوب ، خاصة أن عين الطرف الاسرائيلى سوف تظل مركزة على أهم ما يشغله فى

هذا المؤتمر ، وهو ترتيبات ما بعد السلام ، مع كل دول المنطقة ، سواء مع أطراف الحوار الاساسية ، أو حتى المراقبين ، ولهذا يتفاءل كاتب هذه السطور بالنسبة لما سوف ينتهى إليه المؤتمر ، لكنه لا يتفاءل بالنسبة لأمرين ، أولها ما سيحدث خلاله . وثانيهما عنصر الزمن ، الذى قد يطول إلى سنوات ، قد تمتد فى تقدير كاتب هذه السطور إلى خمس سنوات ، إلا إذا حدث ما ليس فى الحسبان ، وما أكثر ما يحدث فى عالمنا العربى .

ولنتوقف قليلا أمام عنصر الزمن ..

فهو دائما فى صالح اسرائيل ، خاصة أن يدها فى الماء البارد . فهى تضع يدها بالفعل على مناطق النزاع ، وهى قادرة على توظيف الزمن لصالحها سياسيا وماديا ، وهو (أى الزمن) عنصر ضغط على الأعصاب العربية المشدودة ، والمرهقة بسبب ضغوط الاحتلال والنزاعات العربية والأزمات الاقتصادية الطاحنة .

خلال المؤتمر ، سيبدو عنصر الزمن لأول مرة محل قبول لبعض الأطراف العربية ، لأن الوجدان المحمل بالاشعار والمواقف الوطنية المتصلبة ، والمتخم بقضية واحدة للصراع على مدى نصف قرن تقريبا ، فى حاجة إلى وقت لاستيعاب المتغيرات الجديدة ، وفى حاجة إلى صدمة بالمواقف الاسرائيلية المتشددة ، حتى يمكن الهبوط به برفق على أرض الواقع والممكن فى نهاية المطاف .

الحلول ممكنة إذن استيراتيجيا ، والزمن مطلوب والخلافات واردة تكتيكيا ، لكننا نؤكد مرة أخرى على ما ذكرناه ، وربما فوجىء به القارئ ، وهو أن قضيتى الجولان والقدس ، على عكس ما هو شائع ، لن تكونا عقبتين لنسف المؤتمر ، ولعلها – وهذا تقدير شخصى لكاتب هذه

السطور – أسهل القضايا حلا ، وأوضحها ملامح من حيث النتائج حتى قبل عقد المؤتمر ، ولا يمكن مقارنتها بالقضية الجوهرية الحاسمة ، التى سوف تكون محل نزاع حقيقى وخلاف جوهرى على مدى جلسات مؤتمر السلام ، وهى قضية مستقبل الضفة الغربية ، التى يمكن أن تنسف امكانية السلام فى مؤتمر السلام ، إلا إذا اجتهد الدبلوماسيون للوصول إلى حل توفيقى يكون محل قبول من كافة الأطراف .

ولنا فى هذا رأى ..

نذكره رغم أنه قد يعرضنا للنقد العنيف ، لكن المصارحة بالحقيقة تستحق قدرا من الشجاعة فى عرضها .. الطرف الفلسطينى يسعى إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة وكاملة السيادة فى الضفة الغربية ، واسرائيل تعلن بوضوح أنها لا تقبل بذلك ، ولا تسمح بأكثر من حكم ذاتى محدود لسكان هذه المنطقة ، وهى على استعداد للتفاوض حول بدائل أخرى ، مثل انضمام الضفة للأردن و غير ذلك من البدائل التى لا نريد مناقشتها حتى لا نرفع ضغط الدم لدى القارئ العربى .

الحقيقة الغائبة هنا ، التى يجب أن يعرفها القارئ ، أن قيام دولة فلسطينية مستقلة ، أمر لا يحظى بقبول أطراف عربية فى النزاع ، وهو يمثل من وجهة نظرها خطرا داهما عليها ، وإن أعلنت عكس ذلك ، ولعلنا هنا نقصد دولة عربية محددة ، ولعل القصد واضح ، ولعلنا نضيف أن أطرافا عربية أخرى لا تنظر بارتياح الى هذه النتيجة التى يرجوها ويسعى اليها المفاوض الفلسطينى ، وهى قيام دولة فلسطين مستقلة على الارض العربية المحررة فى الضفة الغربية .

هذا اعتبار لابد من أخذه فى الحسبان حتى تكتمل الصورة ، وحتى تصبح صحيحة وحقيقية أمام القارئ العربى ، قبل أن ننتقل إلى عرض

القضية الخلافية الحقيقية فى مؤتمر السلام القادم ، وهى قضية مستقبل الضفة الغربية .

لأسباب عديدة ، منها أن الجميع يتوقعون أن تحدث تعديلات حدودية ، لصالح اسرائيل ، وهى تعديلات طفيفة ، بعضها لاسباب أمنية ، وبعضها لأسباب استيطانية ، والبعض الأخير قابل للتفاوض والمساومات ، بينما البعض الأول يبدو بالنسبة لاسرائيل مسألة حياة أو موت ، وعندما يبدأ الحديث عن تعديلات الحدود ، فلابد أن نتوقع مقاومة ، إن لم نقل مصادمة ، مع الجانب العربى فى الحوار ..

السبب الثانى ان الحل التوفيقى غير واضح ، ولا نقول غير ممكن ، فالطرف الفلسطينى يسعى إلى دولة فلسطينية ، والطرف الاسرائيلى يسعى إلى قيام حكم ذاتى ، والأطراف العربية سوف يسعى بعضها للمطالبة منذ البداية باستفتاء لتقرير حق المصير ، أغلب الظن أنه سوف يكون محل رفض شديد من الجانب الاسرائيلى . لتوقعه أن تكون نتيجته فى صالح الدولة الفلسطينية المستقلة ..

المشكلة هنا أيضا على عكس المشكلات السابقة ، فهى ليست مشكلة ثنائية ، لأن الطرف الأردنى فيها مؤثر ، والجميع يدركون أن القضايا كلها فى جانب ، وقضية مستقبل الضفة الغربية فى جانب آخر ، لأنها لب النزاع ، وجوهره ، ولو تم حلها لتحقق السلام فى المنطقة كلها ، ولأصبح صعبا على أى طرف من الأطراف أن يزايد على ما أمكن تحقيقه ، وكاتب هذه السطور يتوقع أن تنتهى المفاوضات الساخنة باتفاق على الحكم الذاتى لعدة سنوات ، يعقبه استفتاء وبتعديلات حدودية محدودة ، وباتحاد كونفيدرالى أردنى فلسطينى فى المدي الطويل .

ويبقى السؤال الحائر ..

وهو هل سيتحقق السلام ؟ وهو سؤال يعتقد كاتب هذه السطور أن إجابته أسهل بكثير من إجابة سؤال آخر أهم ، بل أهم بكثير ، وهو ، وماذا عن المستقبل بعد السلام ؟ .

هذا هو السؤال الأخطر ، والأكثر أهمية ، ونحن عندما نتوقف عنده لا نضع العربة أمام الحصان ، لأننا لو كنا منطقيين حقا ، وعقلانيين حقا ، لحاولنا إجابتِه قبل أى حديث عن السلام ، الذى يمكن أن يكون مدخلا إلى المستقبل ، ويمكن أيضا أن يكون مدخلا إلى الكارثة ، والمشكلة أننا لم نختلف على إجابة هذا السؤال ، لأننا لم نطرحه أصلا .

أليست هذه فى حد ذاتها .. كارثة ؟

المــــأزق

خلال جلسات مؤتمر السلام ، سوف تتركز العيون على ثلاثة وفود ، وفدين عربيين ووفد اسرائيلى ، أما الوفدان العربيان فهما الوفد السورى والوفد المشترك (الأردنى) ، وسوف يبقى دور الوفود الأخرى أقل أهمية بكثير ، وإن كان بعضها لا غنى عنه (لتشحيم) عجلة التفاوض وعبور المشكلات بحلول دبلوماسية ممكنة ..

وما أكثر الفرص الضائعة ..

ومن نافلة القول أن نذكر أن الحوار لن يكون (عربيا - إسرائيليا) ، فهذا واضح تماما من قبل انعقاد المؤتمر ، وبمعنى أكثر وضوحا فإننا لن نشهد وفدا إسرائيليا فى مواجهة وفد عربى موحد ، بل سنشهد مفاوضات ثنائية (اسرائيلية - سورية) و (إسرائيلية - لبنانية) و (إسرائيلية - أردسطينية) ، إذا جاز التعبير ، ولن يخرج تشكيل اللجان ، ولا المباحثات الثنائية ، عن هذا المفهوم ، والفرصة الأولى الحقيقية للحوار (العربى - الاسرائيلى) كانت متاحة عقب مبادرة السلام ، وفى وجود مصر كطرف أساسى فى المحادثات المباشرة، وهى فرصة ضاعت لأسباب معروفة ، أما الفرصة الثانية فيعتقد كاتب هذه السطور ، أنها كانت متاحة لو قبل صدام حسين بالانسحاب استجابة لمبادرة ميتران ، قبيل نشوب حرب الخليج ، وكان بوسعه أن يشترط

لقبوله بالانسحاب ، عقد مؤتمر السلام لحل النزاع العربى الاسرائيلى على أسس عادلة ..

لا وقت للحديث عن الفرص الضائعة ، ولا مجال للبكاء على اللبن المسكوب ولا مفر من الاعتراف بأن المفاوض العربى قد خسر ورقة ضغط هائلة ، هى ورقة الوفد العربى الموحد ، وهى ورقة لم تتكفل بضياعها الظروف الدولية وحدها ، بل أسهمت فى ذلك النزاعات العربية ، والتركيبة النفسية التى أوصلت العرب فى تاريخهم الحديث إلى ما وصلوا إليه ..

ورقة الضغط التى ذكرناها ، والتى خسرناها ، كانت ستقود فى نهاية المطاف إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة ، وفى غيابها ينفتح الباب واسعا أمام احتمال جديد ، قد يكون هو الممكن الوحيد فى نهاية المطاف ، وهو الاتحاد الكونفيدرالى الأردنى الفلسطينى ، وهو اتحاد يضع علامة استفهام كبيرة أمام مستقبل الأسرة الهاشمية الحاكمة فى المدى الطويل ..

والاتحاد السوفيتى بلا أوراق ..

المحزن حقا أن حساب الخسائر ملىء بالبنود ، فالمؤتمر ينعقد فى أسوأ توقيت ممكن منذ حرب أكتوبر ، فالاتحاد السوفيتى خارج الملعب العالمى الآن ، ولو كان موجودا كقوة كبرى ، كما كان شأنه منذ خمسة أعوام ، لتغيرت الصورة ، والأوراق التى كانت فى يده تبعثرت تماما ، وخرجت من يده قبل انعقاد المؤتمر بسنوات ، ويكفى أن تذكر من هذه الأوراق ، السماح بهجرة اليهود السوفيت ، وإنهاء المقاطعة الدبلوماسية للكتلة الشرقية بأكملها ..

وقد ذكرنا فى مقالات سابقة أن عنصر الزمن كان فى صالح اسرائيل ، ولم يكن فى صالحنا أبدا ..

هذه ورقة ثانية خسرناها ، وهى ورقة مشاركة الاتحاد السوفيتى ، فى توقيت سابق ، وهى ورقة لا مجال للحديث عنها الآن ، لأن اشتراكه فى ظروفه الحالية لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يضيف إلى رصيد المفاوض العربى شيئا يذكر ..

فلنتقدم فى حديث الخسائر خطوة أخرى ، ولنذكر أن العام الماضى وحده ، قد تكفل بضياع ورقة تفاوضية ثالثة ، لها تأثيرها وفاعليتها ، وهى ورقة (تناغم أو تناسق الموقف العربى) ، وهى ورقة تأثرت كثيرا بحرب الخليج ، ويكفى أن نشير إلى الموقف الفلسطينى فيها ، وكيف تعارض تماما مع موقف دول الخليج ، وكيف أثر ذلك فى النهاية بالسلب على الانتفاضة الفلسطينية فى الداخل ، وعلى دعم العمل الفلسطينى داخليا ودوليا ، ويكفى أيضا أن نشير إلى التعارض بين المواقف الفلسطينية والأردنية من حرب الخليج فى جانب والمواقف المصرية والسورية والخليجية فى جانب آخر ، وكلها أطراف فى حوارات المؤتمر وقراراته ..

صحيح أن المصلحة العربية العليا تفرض نفسها على الجميع فى نهاية المطاف ، بيد أن أحدا لا ينكر أن الموقف العربى برمته كان سيصبح فى موقع أفضل لو لم تحدث حرب الخليج ، وأن الوفد الفلسطينى أو (الأردسطينى) كان سيحظى بتعاطف أكبر ، وتماسك أكثر حوله لو لم تترك حرب الخليج بصمتها على الجميع ..

وتبقى أكبر الخسائر ..

وقد أرجأناها للنهاية ، ونقصد بها الموقف الفلسطينى الداخلى ، ولا نريد أن نضيف إلى الهموم العربية جديدا ، ففيها ما يكفيها كما يقولون ، لكننا نشير إلى ثلاث حقائق واضحة ، الأولى تتمثل فيما حدث للانتفاضة ، التى لم يعد لها وجود حقيقى إلا فى القصائد العربية ، والتى

تحولت من ظاهرة مقلقة لإسرائيل ومثيرة لتعاطف الرأى العام لأقصى حد ، إلى شكل من أشكال (الشغب) المحدود ، الخاضع تماما لسيطرة الأمن الاسرائيلى ، ومرة أخرى فليقارن القارئ فى خياله بين انعقاد المؤتمر الدولى فى ظل فورة الانتفاضة وتأثير ذلك على مساره ، وبين انعقاده الآن وكل شيء هادئ فى الضفتين ، الشرقية والغربية – أما الحقيقة الثانية ، وهى حقيقة مرة ، فتتمثل فى اختراق الموساد لبعض فصائل المقاومة الفلسطينية ، بل وبالتحديد لأشدها تشدقا بالتطرف والعنف والحديث عن التحرير من البحر إلى النهر ، وليحاول القارئ أن يتذكر معنا بعض العمليات (الفدائية) ، وليراجع توقيت حدوثها حتى يتأكد مما نذكره الآن ..

* عملية (أكيلا لاورو) والتى تم فيها اختيار ضحية واحدة ، تمثلت فى شخص عجوز مشلول يتحرك على كرسى متحرك ، تم ربطة بالكرسى والقاؤه فى البحر ، حتى اكتشفت السلطات السورية جثته على الشاطئ ، وكانت إعلانا للعالم كله عن (البرابرة) الفلسطينية والتوقيت الذى تم اختياره هو توقيت طرح مبادرات السلام الفلسطينية ..

* عملية الهجوم على المصيفين فى أحد الشواطئ الاسرائيلية ، وهى عملية بدت مكشوفة جدا ، وتم تخطيطها بحيث تكفل للأمن الاسرائيلى القبض على أغلب الجناة ، وقد خلت من تهديد أية أهداف عسكرية أو استراتيجية ، وكان توقيتها هو التقارب الفلسطينى الأمريكى ، وإعلان أمريكا استعدادها للاعتراف بالمنظمة بعد مفاوضات هائلة ، وجهود مصرية وعربية ، وقد أسفرت عن قطع المفاوضات الامريكية الفلسطينية ، وانتهت الآن برفض حضور منظمة التحرير كطرف أساسى فى التفاوض ..

* عملية اغتيال (أبو إياد) على يد (مناضلين) فلسطينيين ..

ونستطيع أن نذكر عديدا من الأمثلة ، ويكفينا ما ذكره أخيرا مدير المخابرات فى ألمانيا الشرقية (سابقا) عن تدخل (الموساد) للافراج عن أحد الفلسطينيين المنفذين لعملية الاعتداء على مقر البعثة الرياضية الاسرائيلية فى دورة ميونيخ الأولمبية ، وهى العملية التى أثارت العالم كله على الفلسطينيين والعرب ..

و نجاح (الموساد) فى اختراق بعض صفوف المنظمة عامل اضعاف وإحباط للجهد الفلسطينى الثورى ، وهو عامل لا يمكن التقليل من شأنه ، وأعتقد أن تأثيره سوف يكون أكثر وضوحا فى مرحلة التفاوض ، وسنرى كيف سيتم استخدام هذا السلاح كلما نجح الجانب الفلسطينى فى إحراز مكسب تفاوضى ، ولو كان جزئيا ..

وتبقى الحقيقة الثالثة ، وهى تأخير إعلان قيام (الدولة الفلسطينية) إلى أسوأ توقيت ممكن ، وبعد الهنا بسنة ، كما يقولون ، وقد كان هذا مطلبا للرئيس الراحل السادات ، وكان يدعو إلى إعلان قيام دولة فلسطينية ولو (ليوم واحد) ، ووقتها اتهموه بالخيانة – وبمحاولة ضرب النضال الفلسطينى بتحويله من ثورة إلى دولة ، ورد هو عليهم بأنهم يخافون من وجود (وزير للخزانة) حتى لا يكشف ثروات المناضلين ، وخلال هذا التراشق ضاعت فرصة ذهبية لإعلان الدولة فى توقيت صحيح ، ولم يكن السادات غبيا حين طالبهم بذلك ، فقد كان يعلم أن أرض فلسطين لم تشهد قيام دولة فلسطينية فى تاريخها كله ، فقد كان على مدى التاريخ جزءا من الشام ، وكان يحاول أن يلعب على ورقة قيام هذه الدولة حتى يكسب لها المؤيدين والمعترفين بها رسميا ، ويخلق واقعا جديدا يضيف رصيدا للقضية الفلسطينية ، وكان باستطاعته فى ظل المتغيرات الدولية القائمة وقتها أن يفعل ذلك ، والذى لا يصدق عليه أن يراجع

كيف استطاع النظام المصرى فى تلك الظروف الدولية أن يجند عشرات الدول للاعتراف بالمنظمة ..

بعد سنوات طويلة قبل الفلسطينيون ما رفضون من قبل ، بيد أن التوقيت كان متأخرا ، ومتأخرا جدا ، والذى لا يصدق عليه أن يقدم لنا كشفا بعدد الدول التى اعترفت بالدولة الفلسطينية ، وتبادلت معها التمثيل الدبلوماسي ويقارنها بعدد الدول التى اعترفت بدولة لا وجود لها وهى دولة البوليزاريو ، وعليه أن يقدم فى المقابل كشفا بعدد الدول التى اعترفت بالمنظمة ، عندما كانت الظروف الدولية ملائمة ، وساعتها سوف يكتشف الفلسطينيون مدى الخطأ الذى ارتكبوه عندما أخروا إعلان دولتهم طوال هذه السنوات ..

الموقف الفلسطينى الداخلى فى تقدير كاتب هذه السطور فى أسوأ مراحله والخلافات بين المنظمة وحماس وفصائل المقاومة وبعضها أسوأ مما يتصور الجميع ، ولعل هذا هو ما دفع سعيد كمال (سفير فلسطين فى مصر) إلى إعلان تخوفه على مستقبل كيان الحكم الذاتى الفلسطينى خلال السنوات الخمس المقترحة (والتى سيتفاوض الفلسطينيون من أجل خفضها إلى فترة زمنية أقل ، لكنهم يقبلون بالحكم الذاتى من حيث المبدأ) ، وقد وصل الأمر بسعيد كمال إلى إعلان استعداده لقبول حماية أمريكا لهذا الكيان الفلسطينى خلال هذه الفترة ، حتى لا تتذرع إسرائيل بالخلافات الداخلية ، وتتدخل لاحتلال الضفة الغربية مرة أخرى (راجع حديث سعيد كمال لجريدة الجمهورية بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٩١) ..

هذا عن حساب الخسائر ، فماذا عن حساب الارباح ؟

أول الأوراق الرابحة فى يد العرب ، تتمثل فى الموقف الأمريكى ، الأقل انحيازا إلى إسرائيل لأول مرة منذ سنوات طويلة ..

صحيح أن الموقف الأمريكى لا يصل إلى مستوى الطموحات العربية ، لكن التغيير الذى أحدثته المتغيرات العالمية ، وحرب الخليج ، قد دفع بالموقف الأمريكى إلى الضغط لعقد المؤتمر الدولى ، وإعلان الاستعداد للضغط لصلح اتفاق سلام على أساس (مبادلة الأرض بالسلام) وهو تغيير إيجابى ، لعله هو الذى دفع العقلاء فى المنطقة إلى التثبت بفرصة السلام هذه المرة ..

الورقة الرابحة الثانية تتمثل فى تماسك الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية حول منظمة التحرير كممثل شرعى وحيد رغم خلافات فصائل المقاومة ، وهو موقف له حساباته ، وانعكاساته ، ولعلنا نذكر هنا أنه موقف متقدم على مواقف السياسيين الفلسطينيين .

الورقة الرابحة الثالثة ، والأخيرة تتمثل فى تأييد قطاعات شعبية واسعة ، داخل اسرائيل للسلام الحقيقى الدائم ، وعلى حد قول سعيد كمال فى حديثه المذكور سابقا (إن التنسيق مع هذه القوى ، ورقة ضغط لا يجب التفريط فيها أو الاستهانة بها) ، وحتى نتصور حجم هذا الضغط أو التأثير نذكر أنه باستخدام النسبة والتناسب ، فإن المظاهرة التى قام بها سبعون ألفا من أنصار حركة السلام الآن فى اسرائيل توازى قيام مليون وأربعمائة ألف بمظاهرة فى شوارع القاهرة ..

وهكذا ضاقت مساحة المناورة ..

ونقول ضاقت ولا نقول ضاعت ، فالفلسطينيون ظهرهم للحائط ، واللبنانيون لا يحلمون بأكثر مما اتفق عليه الرئيس الجميل مع اسرائيل ، والسوريون يمرون بظروف اقتصادية صعبة ، وعلاقتهم بجيرانهم شرقا وجنوبا متوترة ، وهم قد انزلقوا بإرادتهم فى المأزق اللبنانى ، وفقدوا حليفهم التاريخى فى لعبة القوى الكبرى ، وحتى لعبة الكراسى الموسيقية

العربية فى ظل الحد الأدنى من الاتفاق العربى لم تعد ممكنة ، ولم تعد تشد انتباه أحد فى العالم العربى كله ، والسلام فى نهاية المطاف سوف يضع الأنظمة العربية كلها فى مواجهة اختيار الديمقراطية .

وأخيرا ..

فى أوقات الهناء العربى ، عندما كنا نتغنى بالوحدة ونحلم دون أن تقيد أحلامنا حدود الممكن والواقع ، كان بوسع عبد الناصر أن يهاجم أساس الوجود الاسرائيلى ذاته ، وأن يعلن مقولته البليغة فى وصفه لوعد بلفور (لقد أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق) ..

الآن تغيرت الأمور ، وتواضعت الأحلام ، وحلت محلها الحقائق ، وأعلن الفلسطينيون دون لبس أنهم يقبلون بدولة اسرائيل ، ويعترفون بها ، ولم تعد المشكلة أن يقبلوا بالجلوس مع اسرائيل ، بل أصبحت المشكلة عكسية ، وهى أن يقبل الاسرائيليون الجلوس معهم والاعتراف بهم ، وهم على استعداد الآن لقبول المقترحات الامريكية بالحكم الذاتى للضفة الغربية فى ظل اتحاد كونفيدرالى مع الأردن ، والأمريكيون يطلبون أن تكون فترة الحكم الذاتى خمس سنوات ، وسيطلبون هم أن تكون ثلاثا ، وبعدها الاستفتاء على تقرير المصير ألم يكن ذلك كله متاحا فى اتفاقية كامب ديفيد ؟ .

ألم يقبل الإسرائيليون بوفد فلسطينى فى مباحثات مينا هاوس، وهو ما لم يستطعه الفلسطينيون الآن ، حيث يقبلون بوفد أردسطينى ؟ .

عموما ، ستدور الدائرة ، وسنعقد المؤتمر ، فى أسوأ توقيت ممكن للفلسطينيين وللعرب حتى الآن ، ونقول (حتى الآن) ، لأن هذا ضرورى تناسقا مع منطق الأحداث ، فغدا سوف يكون أسوأ بالتأكيد للفلسطينيين والعرب ، والذى لا يصدق عليه أن يستعرض خريطة العالم

العربي ويستعرض حجم الخلافات (العربية - العربية) ، وعليه أن يعود بالذاكرة إلى الوراء ، ويقارن الوضع العربي الآن ، بالوضع قبل خمس سنوات ، ثم قبل خمس سنوات ثانية ، ثم قبل خمس سنوات ثالثة ، حتى يتأكد من حقيقة واضحة ، وهو أننا نسير ، وبسرعة خارقة وبتألق نحسد عليه.. إلى الوراء ..

لم أكن متشائما إذن وأنا أختار لهذا المقال ، عنوانه الذى كتبته قبل أن أخط حرفا واحدا فيه وهو (المأزق) أما لماذا لم أكتب (المأزق العربي) ، فلابد أن القارئ يشاركنى فيما ذهبت إليه من اختصار ، فمادام هناك مأزق ، فلابد أن يكون عربيا ..

حديث ذو شجون

إذا ذهبت للسباحة فى المياه العميقة ، فليس لك أن تدعى الانزعاج ، اذا وجدت أسماك القرش تسبح بجوارك ذراعا بذراع .. تذكرت هذه الحكمة البليغة وأنا أتابع ردود الفعل الغاضبة أحيانا ، والعنيفة أحيانا أخرى ، قولا كتابة ونشرا ، للمقالات التى نشرتها عن آفاق المستقبل ومؤتمر السلام ، ولم يخل الأمر بالطبع من تقدير البعض وإعجابهم ، بيد أنها فرصة على أية حال ، لكى أوضح منهجى فى الكتابة ، ورأيى فى بعض ما يكتبه زملاء وأساتذة بعضهم تعلمت الكتابة من مقالاته ..

الكاتب فى بلادنا أمامه أحد اختيارين ، أولهما أن يسير فى الركب ، وأن يكون قلمه صدى لقول الناس ورأى الناس ، وأن يكون سعيه للالتقاء بوجدان الناس ، وهو هنا كاتب مريح ، مستريح ، وقدرته على الإراحة والراحة ، تتحدد حسب حجم موهبته ، فهو فى النهاية ساع لصنع فنجال قهوة مضبوط ، والبعض يقترب من ذلك ، والبعض النادر يتألق فى ذلك أكثر الأحيان لا يلتقى اقتناع الكاتب وما يكتبه ، فهذا شيء وذاك شيء آخر ، وربما تعود على ذلك فالتقى الاثنان وأصبح ما يقتنع به هو ما يقنع الناس ، وهنا يصبح الكاتب شهيرا وجهيرا ، مريحا مستريحا ، مقبولا ، وبعض أشهر كتابنا من هذا النوع ، دليلى على ذلك ما يفعله أغلب القراء ، حيث يؤجلون قراءة مقال كاتبهم المفضل إلى ما قبل النوم مباشرة ، لأن ما يكتبه يريحهم وربما يخدرهم ، لكنه فى كل الأحوال يسعى

بالنوم إلى عيونهم حيث الرضا عن النفس ، والأحلام السعيدة ، والتوافق الداخلى .. لست من هذا النوع من الكتاب ولن أكون أبدا ، لأن طبيعتى تدفع بى إلى الطائفة الثانية من الكتاب ، الذين يبدو اختيارهم مزعجا لهم وللناس ، فهم يختارون أن يكون سبيلهم إلى الكتابة هو العقل والمنطق وليس الوجدان ، سواء كان وجدانهم أو كان وجدان القراء ، وهم يعتقدون أن واجب الكاتب أن يقود وليس أن يقاد ، وأن ينبه وليس أن يخدر ، وأن يوضح ويحذر ، وينقل الحقيقة كما يراها ، بعيونه وليس من خلال عيون الآخرين ..

ترى هل يصدقنى القارئ إذا ذكرت له أن الاختيار الأول سهل يسير ، وأن مكونات فنجان القهوة العربى المضبوط ، معروفة ومتيسرة وليست سرا ، وأن الصعب حقا هو الاختيار الثانى ، لأنه مجهد جهيد ، للكاتب وللقارئ معا ، وأننى أفضل أن يهجر النوم عيون القارئ وأن يؤرقه السهاد أمام الحقيقة ، عن تركه يحلم بالوهم ، وينام على خداع النفس ..

هذه مقدمة لابد منها حتى يبدو منطقيا ما سأذكره للقارئ ، وهو أننى لم أنزعج أبدا للغضب ، ولا للرفض ، لأننى أتوقع ذلك فى كل ما أكتبه ، لكنى أنزعجت حقا لسيطرة ذلك لإرث على عقول بعض الكتاب ، وهو إرث نظرية المؤامرة فالكاتب الذى يحذر من خطر ، هو فى النهاية لدى البعض جاسوس مدسوس لجس النبض ، والكاتب الذى ينبه لما يحدث ، هو عميل للقوى الأعظم التى بيدها مقاليد حركة التاريخ ، والكاتب الذى يذكر الحقيقة هو انهزامى خائن ، والذين يكتبون هذا يستحقون الاشفاق حقا ، لأنهم مثل البوربون فى التاريخ الفرنسى لم يقرءوا شيئا ، ولم يتعلموا شيئا ، ولست أدرى إلى متى بعد كل ما حدث ، وبرغم كل ما حدث ، لا يفيق الواحد منا أمام حقائق ما حدث وما يحدث ، وأمام لغة

العصر ، التى هضمت كل لغات الماضى ، إلا لغتنا الجميلة ، التى يحل فيها الجناس والطباق وفنون البديع ، محل لغة الكمبيوتر ، التى يعرفها الدارسون له ، وهى لغة الثنائيات ، صواب وخطأ ، واحد وصفر ، صحيح وغير صحيح ..

ونبدأ بمؤتمر السلام ..

ونتساءل ما هو هدف اسرائيل من هذا المؤتمر .. قبل الإجابة ، وحتى لا ندخل فى متاهات الأرض والسلام وغيرها ، نردد مقولة ابن البلد المصرى (هات من الآخر) ..

مؤتمر السلام ، إن تحقق فيه السلام ، هو فرصة إسرائيل النهائية ، والأخيرة، للخروج من المؤتمر بواحدة من اثنتين ..

إما أن تخرج منه كما دخلته ، دولة منبوذة ، دخيلة مرفوضة ، مثلها مثل الجسم الغريب الذى يرفضه جسم المنطقة الحى ، أو مصل الورم السرطانى الذى يجدر بالمصاب به أن يحاصره ، ويمنع استشراءه فى الجسد ، أو أن تخرج من المؤتمر وهى دولة من دول المنطقة ، لها مالها ، وعليها ما عليها ، وبينها وبين دول المنطقة أقوى الروابط والأواصر والعلاقات ، تجارية وثقافية وسياسية ..

البديل الأول يمثل بالنسبة لإسرائيل حكما بالاعدام فى المدى الطويل ، فهى فى النهاية دولة الملايين الثلاثة ، وسط محيط سكانى عربى يتجاوز المائة مليون ، ويدخل سباق الأرانب باستمتاع وتألق فريدين ، وقد تنجح إسرائيل بوسائل القوة المتاحة حاليا فى العيش فى أمان لسنوات تقصر أو تطول ، لكنها فى النهاية لابد وأن تصطدم بطوفان الإبادة أو الذوبان ..

البديل الثانى هو الضمان الوحيد للوجود الاسرائيلى فى المدى القصير

والطويل معا ، وهو ليس بديلا ، بل هو قضية رئيسية ومحورية ..

باقى الأمور والقضايا ، مهما بدت معقدة وصعبة ، لا تزيد عن كونها تفصيلات لا قيمة لها أمام القضية الرئيسية ، ذلك لأن التفصيلات تتعلق بالحجم ، وبصراعات المدى القصير المنظور ، فى حين أن القضية الرئيسية تتعلق بالوجود ..

هل هناك شك فى ذلك ..

وهل يتصور واحد منا أن تفكر إسرائيل بأسلوب آخر ..

وهل ، وهذا هو الأهم ، يتخيل واحد منا ، وأقصد بنا أطراف الحوار العربى فى مؤتمر السلام ، سلوكا اسرائيليا مغايرا ، أو منهجا اسرائيليا مختلفا ..

لست أشك فى أن الإجابة سوف تكون بالنفى ..

والسؤال الأهم ..

هل نحن على استعداد لذلك ..

والسؤال الأكثر أهمية ..

هل من المزعج أن تناقش ذلك ، أو على الأقل أن نعرفه ، ونتعرف على محتواه ..

وهل هى جريمة إذا قلنا أن من يعرف ذلك (والكل يعرف) ، ويوافق على ذلك (والله أعلم بالنوايا) ، عليه أن يحدد من البداية موقفه من المؤتمر يقبل به أو يرفض ، يذهب إليه أو لا يذهب ..

هل هذا كثير أو مزعج أو مخيف ..

الحقيقة أن هذا كله ، بدا لى كذلك أنا أراجع ردود الفعل حول ما كتبت .. البعض يفضلها ساخنة ويستريح إلى الحديث بلغتين لغة أمام أجهزة الإعلام ، وهى لغة موجهة إلى شعوب المنطقة ، ولغة أخرى على مائدة المفاوضات وهى لغة لابد وأن تكون مختلفة والبعض الآخر يفضل

نظام التقسيط المريح ، والتقسيط قد يكون فى عرف الدبلوماسية حنكة ومهارة و(شطارة) ، لكنه لن يغنى أبدا عن دفع الثمن ، وفوقه فوائد التأخير ..

أليس مزعجا حقا أن تكون البديهيات مدخلا إلى الغضب والحزن والاتهام ..

الحقيقة أن هذا ليس المصدر الوحيد لحزن كاتب هذه السطور ، لأن حزنا آخر ، من نوع آخر يجثم على الصدر ولابد أن يجد سبيله إلى التعبير ..

ومن حقى أن أحزن ..

ومن حق جيلى كله أن يفعل ذلك ، فأنا من أنصار السلام العادل الدائم فى المنطقة ، والسلام لا يدعو إلى الحزن أبدا ، لكن الذى يدعو للحزن حقا هو ضياع نصف قرن بأكمله ، على يد الساسة العرب الذين قادوا المنطقة طوال هذه الفترة ، أو على الأقل فى أغلبها والذين وصلوا بنا فى النهاية إلى ماوصلنا إليه ..

طوال نصف قرن تقريبا ، وهدف الاستيراتيجية العربية هو القضاء على دولة اسرائيل ..

الذى يهرب من ذلك يغالط ، والذى ينكره يكذب ، والذى يتحدث عن أن العرب فى العصر الحديث لم يكونوا أنصار حرب بل كانوا أنصار سلام ، يخدع كل عربى فى المنطقة كلها خداعا مكشوفا لا سند له ..

نحن لم نعرف الحديث عن السلام إلا بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وتحت وطأة الهزيمة القاسية ، وعندما عرفناه تحدثنا عنه بمنطق الهدنة المؤقتة ، وليس بمنطق السلام الدائم ، والسادات وحده هوالذى خرج على الدنيا كلها

بمنطق مخالف لم يقبل به سوى الشعب المصرى وأنكره العرب على طول الساحة وعرضها ..

لنقل أننا كنا أنصار حرب ولنضف إلى ذلك أنها كانت حربا عادلة فى سبيل الأرض والحق والعدل ، فليس هذا عيبا ، ولكنه اعتراف بواقع ما حدث ..

ولنقل فى المقابل أن استراتيجية اسرائيل كانت فى أقصاها التوسع ، وفى أدناها تأكيد حق الوجود للدولة ، وفرض هذا الواقع على شعوب المنطقة .

ولنذكر فى نهاية هذين القولين ، أن المؤتمر الدولى للسلام ليس له إلا معنى واحد ، وهو الفشل الكامل للاستيراتيجية العربية التى استمرت على مدى يقرب من نصف قرن ، والنجاح الكامل فى المقابل للاستراتيجية الاسرائيلية ولو فى حدودها الدنيا ..

ليس هذا بكاء على الأطلال ، ولكنه تذكرة ، وهو ليس دعوة إلى رفض مؤتمر السلام ولكنه دعوة لبعض الحزن على الزمن الضائع ، فقليل من الحزن يصلح المستقبل ، والذين قادونا فى هذا الاتجاه الخاطئ على هذا المدى الزمنى الطويل ، فى حاجة منا اليوم لأكثر من اللوم ..

الكارثة أن الزمن الذى ضاع سدى ، ولفظ (سدى) هنا لفظ دقيق ، هو الزمن نفسه الذى انتقلت فيه أوروبا من مستوى الخرائب ، إلى مستوى العمران الذى لا سابقة له فى التاريخ ..

فى صيف أحد السنوات كنت فى أرقى منطقة فى الدانمرك ، واسمها (فينن) ، وهى منطقة سياحية شاطئية ، كل ما فيها باهر ومتقدم ورائع وجميل ، وهمس فى أذنى صديق دانمركى قائلا ، هل تعرف متى دخلت الكهرباء هذه المنطقة ورددت بالنفى وأسرع قائلا ، فى عام ١٩٥٥ .

عندما بدأنا الصراع العربى الاسرائيلى ، كانت ألمانيا خرائب ،

وكانت اليابان ماتزال تعيش أبعاد الهزيمة المرة ، وكانت أوروبا لا تعرف فى هذا الوقت أجهزة التليفزيون ولا الكمبيوتر ولا الأقمار الصناعية ولا أشعة الليزر ..

كانت المسافة بيننا وبينهم قريبة ، وممكنة وخلال فترة الصراع التى ضاعت فيها مواردنا ، وسقط فيها شبابنا ، وانهار فيها اقتصادنا ، كانوا ينعمون بالسلام ، ويشيدون بالمدن والطرق ، ويعيشون الديمقراطية ويتفننون فى إعلاء قيمة المواطن ورفع كرامة الإنسان وتحسين الخدمات المقدمة له .

خلال نصف القرن نفسه ، رتعت الدكتاتورية فى عالمنا العربى كله تحت شعارات الحرب والتحرير ومواجهة العدو ، وحتى القدر المحدود من الليبرالية والسياسية ، والحرية الاقتصادية ، أهدرناه تحت شعارات شتى ، وأصبح الحوار المتبادل بين (المعسكر) فى عالمنا العربى ، وبين مؤلفى الأغانى هو الحوار الأشهر ، فهؤلاء يديرون الانقلابات ، وهؤلاء يساندونهم بالأغانى والأناشيد ومن حقنا أن نسأل أنفسنا الآن فى لحظة المواجهة مع النفس ..

هل قادنا هؤلاء لهدف غير ممكن .

هل تعاملوا معنا على مدى هذه السنوات الطوال ، بأسلوب أن السياسة هى فن الحلم ولس فن الممكن ، وهى إمكانية الغناء وليست إمكانية الاستمرار والتطور والتنمية .

مرة أخرى ، كاتب هذه السطور من أنصار السلام ، لكنه يعتقد أن من أضاعوا أيامنا وأحلامنا مواردنا سدى لا يجب أن نتسامح معهم ولو أصبحا ذكرى ..

لابد من مراجعة ما حدث طوال نصف القرن الماضى ، ولو على مهل ، ولابد من استيعاب دروسه ولو فى هدوء ، وأنا أفهم عاطفيا أن يعترض

البعض على مؤتمر السلام ، من منطق الصدمة فى مواجهة الواقع ، وبسبب التأثر بالإعلام الذى ساد المنطقة كلها طوال السنوات الطويلة الماضية ، لكنى لا أفهم أن يرتفع صوت الساسة الذين يقودون الرأى العام بالنغمات نفسها ، وأن ينطلقوا من المنطلقات نفسها بعد ما حدث كله ..

الذين قادونا إلى هذا المأزق (وأقصد بالمأزق هنا ضياع الموارد فى سبيل تحقيق المستحيل) استند فى هذا السعى إلى شعارات التاريخ وانطلقوا من منعطفه ..

رفعوا رايات صلاح الدين ، وشعارات القومية العربية ، ونسوا أن التاريخ لا يصنع حاضرا ولا مستقبلا .

أوربا لا تتوحد بإسادة إحياء للامبراطورية الرومانية القديمة ، لكنها تتوحد بدافع المصلحة ، وبهدف التكامل والتنمية ، والذى استدعى التاريخ يوما وهو موسولينى ، انتهى وانتهت معه ايطاليا ، تماما كما انتهت أحلامنا العربية فى أزمة الخليج وعلى موائد المفاوضات ..

العالم القادم ، وأقولها وسأقولها للمرة الألف ، هو عالم الجغرافيا ، عالم الحسابات والأرقام والمصالح ، وليس عالم العواطف والعواصف ، والأشجان ، والأغانى والأناشيد ، والذين يهربون من التاريخ إلى التاريخ يرتكبون الجريمة نفسها ، ويركبون الحصان نفسه الجامح الذى يلقى براكبه عند أول منعطف ..

الوحدة الإسلامية أو الخلافة الاسلامية ليست هى الحل ، والمستقبل الذى سنصنعه ولأبنائنا لابد وأن يخضع لحساب جديد ، بالورقة والقلم هذه المرة .. بالورقة والقلم وليس بالسيف والأشعار ..

ولابد من البكاء على اللبن المسكوب ..

حتى لا ينسكب مرة أخرى فالسلام هذه المرة ليس نزهة رائعة ، بل

هو بالنسبة لى مثل الجراحة التى تستأصل ورما خبيثا ، هو أسلوبنا فى التفكير ، وبعدها سوف نتعامل مع الحضارة بلغتها ، ومع عالم اليوم بمفردات قاموسه ، الواضحة ، المحددة ، الحاسمة ، العلمية ، والجراحة تؤلم ، لكنها فى النهاية ضرورة ، والتعامل مع السياسة على أنها فن إدارة المصالح ، يختلف تماما عن تعاملنا السابق ، الذى انحصر فى دائرة خداع النفس ، وبقدر ما كانت هزيمة ١٩٦٧ صدمة لأسلوبنا فى الحكم ، فليكن مؤتمر السلام صدمة لأسلوبنا فى التفكير ، وليكن السلام الممكن والمرتقب ، والذى سيحدث ، مدخلا إلى الديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، والتنمية ، ولنتذكر حقيقة تاريخية غابت عنا لسنوات طوال ، وهى أن الحرب ، هى التعبير العنيف عن منتهى الضعف ، وأن السلام هو لغة الأقوياء ، وأننا فى مصر أصحاب تجربة واضحة ، فقد عبرنا عن ضعفنا أكثر من مرة وخسرنا الكثير ، وعبرنا عن قوتنا مرة ، فربحنا الكثير ، والمؤلم للنفس حقا أن من يرفعون شعارات الحرب فى العالم اليوم ، وهو عالم السلام ، هم صدى صوت الحرب الذى حصدنا معه الحصرم ، ودفعنا بسببه أحلام جيل بأكمله ، ويبدو أن البعض يعز عليه أن يكون هناك غد أو أمل أو مستقبل ، وما أتعس الوطن الذى لا يعرف سوى التاريخ ، ويعز عليه أن يعيش الحاضر أو أن يتعامل معه ، فيصبح مثل التاريخ تماما ، أثرا بعد عين .

أزمة العقل

فى ندوة بجامعة برلين الحرة ، دار الحديث حول أزمة العقل العربى بصفة عامة ، وكان منطقيا أن يدور حديث كاتب هذه السطور ، وأن ينشغل ذهنه بأزمة العقل المصرى ، وأن تحدث مقارنة فى العقل الباطن بين العقل المصرى أو العربى أو الشرقى إن جاز التعبير وبين العقل الأوروبى .

المقصود هنا لمزيد من التحديد ، وهو أسلوب التفكير ومنهجه .. والبدهى أن نلجأ فى هذا المقال إلى التبسيط والوضوح وتناول الأمثلة القريبة إلى الأذهان ، فليس المجال متسعا ولا ملائما لبحث علمى دقيق ، وتعقيدات لفظية وفكرية لا مبرر لها ولا مناسبة .

هذا هو السؤال المنطقى الأول ، الذى يبرر الحديث ، وإجابة كاتب هذه السطور بالإيجاب ، بل بالقول بأنها أزمة حادة ، لابد من التصدى لها بالحوار ومحاولة الحل .. دون القارئ إن أراد التثبت من ذلك أن يقارن بين السعى الجماعى الأوروبى للمستقبل ، والزحف الجماعى الشرقى لاستدعاء الماضى ، فإن لم يعد ، وهو لن يعود بالقطع سارت الجحافل ولو على مستوى الفكر للخلف . وسعت جاهدة للعودة للوراء ، ولم يعد المستقبل بالنسبة لها أملا ، بقدر ما يصبح الماضى بالنسبة لها حلما ، إن عز عليها الرجوع إليه ، صاغته شعرا ، ونسجته حلما ، وسعت إليه حينا باللفظ المعسول وأحيانا بالعنف المجهد الجهيد .

هذا ملمح من ملامح الأزمة ، ولعله أكثر ملامحها وضوحا ، ونحن

لا نبرئ مناهج التعليم ولا برامج الاعلام مما حدث ويحدث ، فلسبب لا أدريه ، خلط البعض بين الإسلام والتاريخ الإسلامى ، دون إدراك لحقيقة يسيرة المنال ، تتمثل فى أن الفرق شاسع بين الاثنين ، فالأول دين عظيم ، والثانى تاريخ بشر يخطئون ويصيبون ، وأنت لا تجد فى الأول إلا ما تنحنى له إجلالا وتعظيما ، وأنت سوف تجد بغير شك فى الثانى ما يجعل نفسك تطير شعاعا من هول ما اقترفه البعض وهم كثر باسم الاسلام وتحت مظلة أو مظنة الحكم به ، ولك أن تقول فيه ما تشاء عن يقين باختلاف الساحة ، ولك أن تأمن فى قولك أو نقدك أو اعتراضك ، فما علاقة الواثق والأمين مثلا بالإسلام سوى أن القدر ساقهما لحكم المسلمين فأصبح شذوذهما أساطير ، وما علاقة الوليد بن يزيد الأموى بروح الاسلام وجوهره وهو الذى تباهى بإلحاده وخلده شعرا ، وتمادى فى مجونه إلى درجة رشق المصحف بالسهام ، حتى انتهى الأمر بمصرعه على يد ابن عمه ، خوفا على هيبة الأسرة الأموية ، وأملا فى استمرار حكمها ، وما علاقة دين العدل والرحمة بالسيف والنطع الماثلين أمام الخليفة ورهن اشارته ، إن رضى استقر السيف فى غمده ، وإن غضب ولو لسبب لا علاقة له بمن ساقه القدر إليه ، طار الرأس ، وجمع النطع (وهو بساط من الجلد) ما تيسر من الاشلاء والدماء .

هذا واقع ما حدث فى بعض عصور تاريخ الدولة الاسلامية ، وعدا شذرات وامضة فى خلافة الراشدين وخلافة عمر بن عبد العزيز الأموى وخلافة المهتدى العباسى ، يصطبغ التاريخ بصبغة العصور الوسطى ، ويحمل معه آثامها وأوزارها ولا يختلف كثيرا عن طبيعة تلك العصور فى غير بلاد المسلمين ، فالاستبداد هو الاستبداد ، والرقاب هنا وهناك معلقة برأى الحاكم وموكولة إلى اختياره بين العدل والاستبداد ، وهو اختيار كان يرجح الاستبداد فيه فى أغلب الأحوال ، أما أموال الدولة كلها فهى رهن

اشارته ، وما نقرأ عنه ونعجب به من إغداق الخليفة على الشعراء والمادحين والقائلين قولا حسنا ، له وجهه الآخر وهو السفاهة فى الإنفاق . والبلاهة فى تبديد أموال المسلمين ، والخروج على قواعد الدين فى إنفاقها فى غير وجهها الشرعى الصحيح .

لست أشك فى أن ما مررت عليه خفيفا ، يبدو فى وجدان القارئ حتى الآن ثقيلا غاية الثقل . ومعه حق ، فالمشكلة ليست فى كون الحقيقة مفزعة ، وهى كذلك ، لكنها كامنة أيضا فى ذلك الخلط العجيب بين العقيدة والتاريخ ، بين الدين والبشر ، بين رسالة السماء ، وأخطاء المسلمين ، وهى كامنة كذلك فى ذلك التوقير ، غير المبرر غالبا ، لذكرى الأجداد ، وهو توقير له مظهر الدفاع (العائلى) بيد أنه توقير لا يصادف محله فى كل الأحوال ، وللقارئ أن يقارن ذلك برؤية الأوروبيين لأجدادهم من حكام العصور الوسطى ، الذين استبدوا باسم الدين ، وخرجوا على الأعراف والأخلاق تحت راية الاستبداد ، فنالوا طاعة رعيتهم قهرا ، ونالوا احتقار واستنكار أجيال تقبل اليوم بالحضارة وحقوق الإنسان ، وتشيح بوجهها عن ماضيها خجلا وتعففا وازدراء .. الفرق هنا كامن فى أنهم يعلمون ويتعلمون الحقائق ، ونعلم نحن ونتعلم صفحات بيضاء منتقاة ، ووقائع أجيد اختيارها ، بحيث لا تعكس سوى ما هو جميل ونبيل ، وقد بلغ بنا الزيف أن نلوى عنق الحقائق ، وأن نروى الأحداث كما نريدها أن تكون وليس كما كانت .

هل يدلنى القارئ على مسلسل تليفزيونى واحد ، من مسلسلات التاريخ ، تعرض لفساد حاكم أو استبداد خليفة أو والٍ ، أو سفاهته أو مجونه أو شذوذه أو عشقه لسفك الدماء ؟..

لا شىء من هذا أبدا ، رغم أنف التاريخ ، ورغم أنف الحقائق ، فكل عصر يوتوبيا (مدينة فاضلة) ، وكل سلوك نبيل ، وكل تصرف مثالى ،

والكارثة أن هذا ليس فقط ما يبثه الاعلام ، بل ما تحتويه برامج تدريس التاريخ فى المدارس ، وأقول الكارثة ، لأن هذا كله لا يقود إلا إلى نتيجة حتمية ، وهى رفض الحاضر ، والتوجه للماضى ، فمادام الحاضر مزيجا من الخير والشر ، ومادام الماضى خيرا كله ، وسلاما كله ، وعدلا كله ، فما الداعى إذن للقبول بحكامنا هؤلاء . وقوانيننا تلك ، وحضارتنا هذه .

الطريف حقا أن بعض القصص التى تلقى إلينا من (الفرازة) ، والتى يتصور أصحابها أنها موعظة بليغة ، وأن الحكمة والسلوك الطيب يملأ ثناياها ، لا تصمد طويلا أمام التمحيص العقلى ، وتصل بمن يستخدم عقله إلى نتيجة عكسية تماما ، بيد أنه من الواضح أننا هجرنا العقل منذ زمن ، أو فى سبيلنا إلى هجره وإهماله ..

دون القارئ قصة لابد أنه يسمعها أكثر من مرة ، ومازلت أتذكر آخر مرة سمعتها فيها من إذاعة مصرية ، يوم لقاء السيد الرئيس بالكتاب فى معرض الكتاب فى يناير الماضى ، نحو الساعة العاشرة صباحا ، حيث أدرت مفتاح المذياع وأنا فى طريقى للقاء ، فإذا ببرنامج من برامج التراث يحكى قصة فقيه أو عالم دينى ، أرسل إليه محمد على باشا منحة مالية ، وأرسل مثلها إلى باقى الفقهاء ، لكنه رفضها ، ولما ذهب محمد على لزيارتهم فوجئ بالفقيه الذى رفض المنحة يمد قدمه وجهه فى فسأله عن السبب ، فأجابه الفقيه أن من لا يمد يده ، يسهل عليه أن يمد قدمه .

القصة سمعتها قبل ذلك منسوبة إلى أحد خلفاء العصر العباسى ، وسمعتها مرة أخرى منسوبة إلى ابراهيم باشا ابن محمد على ، ولا يهم أيضا اسم الفقيه ، ولا يهم أيضا اسم الحاكم ، فالأهم هو الموقف ، والأكثر أهمية هو مراجعة هذه القصة ومناقشتها بالمنطق ، وهو ما حدث معى ، حيث أغلقت مفتاح الراديو وأخذت أتأمل مضمون القصة .

أفهم أن يرفض الفقيه منحة الحاكم ، فهذا حقه ، لكنى لا أفهم أن يمد

قدمه فى وجه الحاكم مهما كان الحاكم ، لأن هذا باختصار سوء أدب ، وقلة ذوق ، وتصرف يستحق عليه الحساب أو العقاب ، ولا يستحق عليه المدح أو التمجيد ، ثم ما هى الحكمة التى يسعى إليه الاعلام من عرض هذه القصة ، وما هو القصد ، وهل من الحكمة ومن نبل القصد أن نعلم الجمهور كيف يسيء التعامل مع حاكمه أو رئيسه ، ليس فقط على مستوى الدولة ، بل حتى على مستوى العمل .

وإذا كانت القصة السابقة تتعرض لتاريخ قريب ، فإن القصص التى تتعرض لفترات أسبق من التاريخ تبدو أكثر سطحية ويبدو حجم المبالغة فيها هائلا ، ويبدو الكذب أيضا واضحا دون لبس .

الحاكم دائما عادل ، بل غاية فى العدل ، زاهد ، بل غاية فى الزهد ، عابد ، بل هو إمام المتقين ، وهو مستمع رائع لموعظة الفقيه ، مستوعب لا مثيل له لفتوى المفتى ، دموعه تسيل دائما على خديه ، وسلوكه هو الطهارة ذاتها ، وهدفه ، ولا هدف غيره هو القرب من الله والتمسك بحبل الدين المتين .

لا جوارى ولا خمور ولا غلمان ولا قيان ولا سيف ولا نطع ولا تبذير ولا اضطهاد للمختلفين معه .

متى حدث هذا رأين وعلى مدى كم عام وما هى نسبة هذا إلى مجمل تاريخ طويل حافل بكل ما تجنبته المسلسلات والبرامج .

ومن إذن الذى جلد مالك وابن حنبل ، وسجن أبا حنيفة ، وروع الشافعى والأوزاعى وصلب الحلاج وقطع أوصال ابن المقفع وأحرق السهروردى .

فليعفنى القارئ من ذكر الحقائق ، وليكن عذرى أن هذا يخرج بنا عن الخط الأساسى لحديث اليوم ، حيث نتحدث عن محنة العقل فى بلادنا ، وكيف أن أول مظاهر هذا المحنة يتمثل فى العودة للخلف والردة

الحضارية ، والسعي الحثيث إلى هدم العصر والامساك بتلابيب ماضٍ تخيلناه أولا ، ثم سعينا إلى خيالنا دون إدراك لحظ هذا الخيال من الوهم ، وهو حظ لو نعلم ونتعلم عظيم ..

والعيب أيضا فى منهج التفكير ..

فنحن نبدأ دائما بالكل ، ثم ننتقل إلى الجزئيات ، ونحن نهوى المطلق ثم ننصرف بعد ذلك إلى التفصيلات ، بينما العقل الأوروبى يتبنى منهجا معاكسا تماماً ، حين يبدأ بالجزء وينتهى إلى الكل .

نحن نبدأ مثلا بالايمان ، ثم ننتقل إلى جزئيات القضية (قضية الايمان) ، فنجد أن لا محل للإعراب بالنسبة لخلافاتنا العقائدية ، ولا مجال للشك كسبب لليقين ، ولأننا نبدأ باليقين ذاته .

العقل الأوروبى على العكس من ذلك تماما ، فهو يبدأ بالجزئيات ، وينتهى إلى الكل بعد ذلك يبدأ بالشك وينتهى باليقين ، يبدأ بالحرية المطلقة للفكر والاعتقاد وينتهى إلى الايمان بالاقتناع العقلى والقلبى معا .

هذا المنهج ليس مقصورا فقط على قضية الايمان مثلا ، لأنه لو اقتصر عليها لهان الأمر وكان محلا للقبول ، لكنه يصبغ حياتنا الفكرية كلها ، فنحن أهل نتائج ولسنا أهل أسباب ، وإذا استعرنا التشبيهات العامية ، وهى تشبيهات بليغة ، لقلنا إننا أنصار منهج (هات من الآخر) ، ولسنا أبدا أنصار منهج (هات من الأول) ..

منذ أيام قرأت لكاتبة فى إحدى الصحف اليومية واسعة الانتشار ، حديثا عن حوادث الاغتصاب ، سردت فيه عددا من الحوادث نقلتها عن الصحف اليومية ، وكانت المصادفة أنها جميعا فى حى مصر الجديدة الراقى ، ثم عرضت فى نهاية عرضها للحوادث ، تعقيبها على ما حدث ،

وصاغته فى صورة تساؤل عن السبب فى عدم إعدام المغتصبين (علنا) ، وفى ميدان عام من ميادين مصر الجديدة ،-ويبدو أنها فركت يديها فرحا عندما توصلت إلى هذه النتيجة حيث أردفت قائلة ما معناه أن كل شيء يصبح بعد ذلك على ما يرام .

الكاتبة توقفت أمام الجرم والعقاب الذى تصورته ، وأعتقد أن هذا منهج الكثيرين فى مواجهة أمثال هذه المشكلات ، رغم أن الترتيب المنطقى لمثل هذه المناقشة يجب أن يبدأ بسؤال عن سبب تكرر هذه الظواهر ، وسوف تأتى الاجابة واضحة ، ومتمثلة فى مشكلة جنسية حادة يعانيها شباب أيامنا هذه ، حيث إمكانية الزواج شبه مستحيلة ، وإمكانية الحصول على مسكن ملائم أكثر استحالة .

السؤال المنطقى التالى لابد أون يكون عن سبل علاج هذه الأسباب ، وبعد هذا فقط يمكن الحديث عن الجريمة وعن العقاب ، وأكاد أجزم أن هذا هو منهج معالجة مشكلة كهذه فى أى بلد متقدم .

جميع مشكلاتنا تعالج على هذا النحو ، بدءا بالارهاب السياسى الدينى ومرورا بالفتن الطائفية وانتهاء بادمان السموم البيضاء .

وتبقى الازدواجية :

وهى آفة قديمة ، بل أخشى أن تكون متغلغلة فى نخاعنا منذ أمد بعيد ، فنحن نتعامل فى كثير من الأحيان مع الظواهر كشخصيتين منفصلتين تماما ، ولم يصل إلى أسماعنا بعد مفهوم أن المنطق لا يتجزأ . وأوضح الأمثلة على ذلك شباب الجماعات الظلامية وهى جماعات تنتشر فى الكليات العملية ، مثل الطب والهندسة ، وتفرز أحيانا ظواهر لا يملك المرء أمامها سوى الابتسام والتعجب أحيانا والحزن دائما .

طالب السنة الخامسة فى كلية الطب فى جامعة أسيوط ، الذى كان

يذهب إلى المشرحة راكبا ناقة . طالبة كلية الطب (أيضا) التى تسأل وهى فى السنة النهائية عن حرمة تشريح جثة (الميت) الذكر ، وعن حل أو حرمة أن تخلع ملابسها أمام (كلب) ذكر .. شباب الجماعات وأغلبهم طلبة جامعات ، الذين حرموا بيع القرع والباذنجان أو شرائعها فى سمالوط بحجة أن القرع يحشى وأن الباذنجان يحشى ، وأن الحشو رمز جنسى يثير لواعج النساء ، وأحرى بهن أن يمتنعن عن التعامل معه ، أخذ بالأحوط ..

إلى هذا المدى تصل الازدواجية ..

الطالب أو الطالبة يتعلمان علوم الهندسة والطب ، بعقل علمى منهجى منطقى ، ويتعاملان مع ظواهر الدين والحياة بغياب لهذا كله ، وبشخصية أخرى لا علاقة لها بالشخصية الأولى من قريب أو بعيد ..

الشيء بالشيء يذكر ، فأكثر ما يثير انتباهى ، ويلفت نظرى ، ويجعلنى أضرب أخماسا فى أسداس ، يتمثل فى تلك (الحقيقة) المفزعة ، التى توحى بوجود ارتباط مؤكد ، بين انشاء جامعة إقليمية ، ونشر التطرف والارهاب والتعصب .

يظل الاقليم أو المحافظة ، هادئا ، حتى يتم افتتاح جامعة فى الاقليم ، فيبدأ التطرف ، ويشتعل الارهاب ، وتنتشر الفتن .

منطق عجيب وعكسى ، فالمفروض أن يكون إنشاء الجامعة حربا على هذا كله ، ولكن ما يحدث فى بلادنا هو العكس تماما ، ولا تفسير لذلك سوى بازدواجية الشخصية ، وباصرار بعض الشباب على أن يتعلموا ويفهموا بعقولهم ، ثم يتركوا هذا كله على باب الجامعة ، والمؤكد أن ازدواجية الشخصية عيب قديم ، فقد لاحظه مفكر وفيلسوف لبنانى هو الأستاذ حسين مروة (الذى لقى مصرعه على يد المتطرفين فى لبنان)

حيث ذكر فى بحث له عن (جابر بن حيان) أنه شعر وهو يدرس تراث العالم العظيم ، أنه أمام شخصيتين متناقضتين تماما ، فهو فى مجال البحث العلمى عقلانى ومنطقى وموضوعى ، وهو نفسه عندما ينتقل إلى مجال الفكر الدينى ، يصبح منهجه خاليا من هذا كله ، فهو يتمسك بأشد التفسيرات سطحية وضحالة وغيبية ، وهو ممسك بتلابيب الخرافات وشتات الشعوذة .

والحديث عن الازدواجية لابد وأن يمر بكلمة (لكن) ، ولابد أن يمر بتعبير (وآه من لكن هذه) ، وهو تعبير أحسب أننى أول من استخدمه فى كتاب (حوار حول العلمانية) ، ثم شاع بعد ذلك ، وسبب شيوعه فيما أعتقد أنه يمثل وصفا دقيقا لظاهرة الازدواجية ليس فقط فى الفعل بل فى القول أيضا .

حدثنى صديق عاش فى الجزائر فترة من حياته ، وعاصر أحداث الخليج أثناء اقامته فيها ، وعن أنه التقى مع أشخاص كثيرين ، خلال الأزمة ، بعضهم حصل على أرقى الشهادات العالية من الجامعات الأوروبية ، وجميعهم كانوا يبدأون الحديث عن الأزمة بداية منطقية تماما ، وعقلانية إلى آخر مدى ، فهم يتحدثون عن الشرعية الدولية ، ويعلنون رفضهم القاطع لغزو الكويت بالقوة المسلحة ، ويعيدون فى هذا ويزيدون ، ثم ينطقون الكلمة اللعينة (ولكن) وبعد (لكن) هذه يبدأ حديث آخر ، لا يمت للحديث الأول بصلة ، ولا للمنطق باتصال ، وهو حديث ينتهى بمضمون عكسى تماما ، حيث يكتشف المستمع فى نهاية النصف الثانى من الحديث أن الكويت بنت ستين فى سبعين ، وأنها تستحق ما حدث لها ، وأن صدام معه حق ، وأن الغزو مشروع ، وأن القضاء على دولة الكويت واجب وطنى وقومى وانسانى .. فليدلنى القارئ على مكان آخر فى العالم ،

يفكر فيه الناس بهذا الأسلوب ، ويتعايشون بهذا المنهج ويسلكون فى حياتهم سبيلين لا رابطة بينهما ولا صلة .

الحديث عن أزمة العقل العربى طويل ، وهمه ثقيل ، وهو حديث يستحق المناقشة ، ويحتاج إلى مزيد من الحوار وما عرضناه يشمل بعض مظاهر الأزمة ، ولابد من حديث آخر ، نعد القارئ به ،وإن كنا نعتذر للقراء مسبقا على ما تسببه لهم من ضيق أو قلق أو انزعاج ، ونخص بالذكر من يستهويهم القول بأن كل شىء على ما يرام ، وأنه ليس فى الامكان أحسن مما كان ، ومما هو كائن ، وما سيكون ..

هذا بلاغ للناس

كل شيء في العالم يتغير ، والخرائط السياسية اليوم تختلف عنها في الأمس . وغدا يوم جديد سوف يختلف كثيرا عن اليوم ، ومنذ عامين لم يكن أحد يصدق أن ألمانيا الشرقية سوف تختفي وأن شطرى ألمانيا سوف يتحدان ومنذ شهر واحد لم يكن أحد يصدق أن الاتحاد السوفيتي نفسه سوف يختفي ، وأن أكبر جمهورياته وهي روسيا سوق تطلب رسميا الانضمام لحلف (الأطلنطي) ، وأن باقي الجمهوريات المستقلة سوف تتبعها في ذلك ، وأن الماركسية كلها سوف تصبح تاريخا ، والمشكلة أننا نتصور في مصر أننا خارج خريطة العالم ، وأنه يتغير ونحن ثابتون ، وأن صراعاته وتحالفاته وراياته كلها تتبدل ، في حين أن راياتنا وتحالفاتنا وصراعاتنا أزلية لا تعديل فيها ولا تغيير .

فلنفاجئ القارئ بالقول بأن حجم التغيير في قوى منطقة الشرق الأوسط وصراعاته ، لا يقل شراسة أو ضراوة أو حجما عما يحدث في عالم الشمال ، فالصراع الحاضرى الذى ظل زمنا طويلا ، قائما بين مصر والبلاد العربية في جانب ، وإسرائيل في جانب آخر يبشر بالانتهاء في المدى الزمنى المنظور ويتحول إلى اتجاه آخر لم يحسب له أحد حسابا من قبل . فالصراع القادم سوف يكون مع أقصى الشرق ، وبالتحديد مع الجمهورية الإيرانية الإسلامية ، وهو صراع واضح الملامح تماما بين قوى الحضارة وقوى الردة الحضارية ، أما الصراع المسلح فسوف يتجه إلى الجنوب حيث مصادر المياه ، وليس إلى الشرق أو الغرب وإذا كان

جورباتشوف قد أعاد (تفنيط) أوراق الكوتشينة فى عالم الشمال ، فإن صدام حسين قد فعل الشىء نفسه فى عالمنا الشرق الأوسط ، وليس علينا الآن سوى حصاد نتائج ما حدث .

لقد انقشع الآن غبار المعارك تماما ، وأصبح واضحا للجميع أن وجود صدام حسين على رأس العراق القوى قبل حرب الخليج ، كان صمام أمان فى المنطقة ، وكان قوة توازن فى مواجهة إيران وبخروج العراق من ساحة التوازنات الإقليمية ، أصبحت مصر هى حائط الصّد الوحيدة ، فى مواجهة القوة الايرانية العملاقة بالمقارنة مع الامارات الخليجية ، التى سيطر عليها الهلع ، ومعها حق ، والمفاجأة الحقيقية فى هذا الصراع أن إيران قد تخلت عن منطق الدفاع ، وتسلمت زمام المبادرة للهجوم على مصر ، واستطاعت أن تخترق نظام البشير فى السودان من خلال سيطرة الجبهة الإسلامية عليه ، لكى تهدد حدود مصر الجنوبية .

الذى لا يصدق عليه أن يتابع ما حدث فى زيارة رافسنجانى للسودان الشقيق ، وكيف تجمع مئات الألوف من المطحونين للهتاف له ، ولمباركة ثورته ، وللهتاف أيضا ضد إعداء الإسلام (يقصدون مصر) من أنصار الاستسلام (يقصدون السلام) ، ولا تسل عن الحضارة ولا عن حقوق الانسان ، فالذى لا يجد ما يأكله على استعداد لأن يضحى بهذا كله ، والذى يعانى من المجاعة ليس على استعداد لسماع مبادئ فولتير وروسو وبيكون ومونتسكيو ، وقد لوح رافسنجانى بالمال والبترول والسلاح ، وبهذا انتقل الصراع المتوقع بين مصر بما تمثله ، وإيران بما تمثله ، نقلة هائلة ، لأنه لم يعد حديث تاريخ (الوحدة العربية أو الوحدة الاسلامية) ، بل تحول إلى حديث جغرافيا ، بكل ما تمثله الجغرافيا من تأثير وثقل ، فمصر لا تتحمل امتداد أصبع الصورة الايرانية إلى حدودها الجنوبية .

لعل القارئ الآن منزعج كل الانزعاج ، لما يحمله هذا الحديث من تصورات تصطدم بما استقر فى ذهنه ، فقد تعودنا أن ترتبط كلمة الصراع باسرائيل وألا تنصرف إلى غيرها ، وقد تعودنا أن ترتبط كلمة (الشقيق) بالحديث عن السودان ، وأن ترتبط كلمات التعاون والأخوة بالحديث عن الدول الاسلامية غير العربية ، ونحن نستأذن القارئ فى عرض عناصر معادلة الصراع الجديدة عليه ، ومن خلالها يمكنه أن يستنتج ما يشاء .

هذه حقائق الموقف الجديد ..

١ - وقوع السودان تحت حكم الجبهة الاسلامية بقيادة حسن الترابى وتحوله إلى مستقر للأصوليين والارهابيين ، تحت شعارات الثورة الإسلامية .

٢ - انتقال التعاون الإيرانى السودانى إلى مستوى جديد يتمثل فى الدعم بالفكر والمال والبترول والسلاح ، وليس هناك ما هو أشد جاذبية لأنصار تصدير الثورة الإسلامية فى إيران ، من سقوط مصر ، زعيمة العالم الاسلامى السنى ، فى قبضة أفكارهم المتخلفة .

٣ - تكريس انفصال الجنوب السودانى من خلال دعم معسكر الشمال السودانى بالسلاح ، ومن خلال دفع الشمال إلى الاصرار على تطبيق الشريعة ، وهو المدخل المؤكد للانفصال ، والغريب أن أدبيات الجبهة الاسلامية فى السودان تتحدث عن انفصال الجنوب بقدر هائل من الارتياح ، وتباركه باعتباره إزاحة لعبء ثقيل عن كاهل السودان ، وتتعمد صب الزيت على النار بالحديث عن (أسلمة) الجنوب .

الذى يجب أن يتعرف عليه القارئ هنا ، أن انفصال جنوب السودان ليس هما سودانيا صرفا ، بل هو هم مصرى فى الأساس ، ففى جنوب

السودان يقع مشروع قناة جونجلي ، الذى يوفر ١٨ مليار متر مكعب من المياه سنويا توزع مناصفة (بناء على اتفاقية موقعة) بين مصر والسودان ، أى أن نصيب مصر من عائد هذا المشروع هو ٩ مليارات متر مكعب تحصل عليها سنويا .

إن معنى هذا ببساطة أن مشروع قناة جونجلي هو مشروع القرن بالنسبة لمصر ، ويكفى أن تذكر أن السد العالى الذى تنظر إليه على أنه أكبر مشروع انشائى فى تاريخ مصر ، لا يوفر لمصر سوى سبعة مليارات سنويا وفقا لاتفاقية السد العالى بين مصر والسودان ، وهى الاتفاقية غير العادلة ، التى منحت مصر ٧ مليارات ومنحت السودان ١٤ مليارا (؟) .

مشروع قناة جونجلي إذن هو أخطر مشروع تنموى ، مستقبلى فى التاريخ المصرى الحديث . والعائد منه وفق أية حسابات يتجاوز عائد أى قطاع إنتاجى أو خدمى فى مصر ، وسواء كان عائد البترول أو السياحة أو تحويلات المصريين من الخارج . والفاقد من تعطيله خلال السنوات العشرين الأخيرة يتجاوز حجم مديونية مصر ، واستمرار تصاعد مشكلة الجنوب يهدد باستمرار توقفه ، فى حين أن انفصال الجنوب يهدد بإلغائه بالكامل ..

٤ - وصول جبهة الإنقاذ الإسلامية إلى مقاعد الحكم فى الجزائر ، وهو مؤشر خطير يهدد حدود مصر الغربية ، خاصة إذ أضفنا إليه ما يحيط بالنظام الليبى من تهديدات جدية من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، ومعلوم طبعا أن ليبيا هى الفاصل الجغرافى الطبيعى بين مصر والجزائر ، ومعنى هذا أن حدود مصر الغربية ملتصقة بنظام مهدد . (بالشدة والفتحة على الدال) يليه مباشرة نظام مهدد (بالكسرة والشدة على الدال) .

٥ - دعم بعض دول المشرق العربى للجبهة الإسلامية فى السودان . وجبهة الانقاذ فى الجزائر على الرغم من مواقفها فى حرب الخليج ،

والثابت يقينا أن هذا الدعم كان قائما قبل حرب الخليج ، لكن المثير للانتباه حقا هو استمراره بعدها ، ولا داعى للخوض كثيرا فى هذه الجزئية ، حتى لا نخرج عن الخط الأساسى للحديث .

٦ - البدء الفعلى فى مباحثات السلام بين الدول العربية وإسرائيل الأمر الذى يشير إلى اتجاه الصراع العربى الاسرائيلى إلى الاضمحلال وإلى الانتهاء بتحقق السلام العادل الشامل . وبرغم أن ذلك فى تقديرنا سوف يستغرق وقتا طويلا ، لكنه أمر لا مفر منه فى نهاية المطاف ، ولاشك أن ذلك يسهم فى دعم السلام المتحقق بين مصر وإسرائيل فى المدى الطويل ، لكنه فى المدى القصير يسهم فى تأمين الحدود الشرقية ، ويدفع إلى النظر إليها على أنها حدود السلام (العازل) ، الذى يؤمن الجبهة الشرقية من أية أخطار محتملة .

٧ - بدء التحرشات الفعلية بين السودان ومصر ، من خلال الحديث عن انشاء سدود سودانية على نهر النيل داخل السودان ، وقد بدأ ذلك بصورة جدية بعد زيارة رافسنجانى للسودان ، وأنا شخصيا لم أفهم تصريح وزير الرى المصرى بعد لقائه بوزير الرى السودانى ، عن حق السودان المطلق فى انشاء السدود على مجرى النيل ، مادامت تتم داخل السودان ، ولا تؤثر على حصة مصر من مياه النيل .

هذا حديث مهندسين وليس حديث ساسة ، فمن قال إن انشاء سد على نهر النيل فى السودان ، أو حتى فى أوغندا هو مجرد مشروع وطنى ، ومن قال إن ما يوفره أى مشروع داخل أى قطر هو حق مكتسب للقطر الذى يتم فيه المشروع وحده .. بهذا المقياس فإن ما يوفره السد العالى يعتبر حقا للمصريين وحدهم .. وبهذا المقياس أيضا فإن ما توفره قناة جونجلى يعتبر حقا للسودانيين وحدهم .. إن انشاء سد على نهر النيل فى أية دولة من الدول المطلة عليه هو مشروع اقليمى وليس مشروعا وطنيا

وهو أمر لا يمكن السماح به دون موافقة دول المصب عليه ، ودون المشاركة فى عائده ، ولهذا حديث طويل نرجئه أيضا حتى لا نخرج مرة ثانية عن الموضع .

باختصار شديد ، أصبحت حدود مصر الجغرافية فى حاجة لقراءة جديدة .

- شمال يطل على البحر المتوسط حيث أوروبا على الضفة الأخرى منشغلة ببناء عالمها الجديد .
- شرق يحده البحر الأحمر ، والسلام العازل مع إسرائيل .
- جنوب يتبلور فيه خطر محدق .
- غرب يتشكل فيه خطر محتمل ، يتنامى بخطى متسارعة .

وهكذا يتصرف الايرانيون ..

فهم أصحاب فلسفة واضحة ومحددة . تمكن صياغتها على النحو التالى ..

- مشاركة مصر فى أمن الخليج ، سوف تقابلها مشاركة ايران فى أمن البحر الأحمر .
- مشاركة مصر فى الأمن الخليجى تحت راية القومية العربية ، سوف يقابلها مشاركة ايران فى دعم النظام السودانى وجبهة الانقاذ الجزائرية والجماعات الاسلامية تحت راية الثورة الاسلامية .

والأخطر من ذلك يتمثل فى الرسالة الأخيرة لزيارة رافسنجانى للسودان والتى تزامنت مع أحداث ليبيا والجزائر ، وهى رسالة موجزة لكنها واضحة كل الوضوح .

نص الرسالة (نحن لا نكتفي هذه المرة بموقف الدفاع أو رد الفعل ،

بل ننتقل الآن إلى موقف جديد ، هو موقف الهجوم ، والحصار جنوبا وغربا .. نحن أمامكم ، والبحر خلفكم . فماذا أنتم فاعلون ؟) .

ولابد من مراجعة الموقف العربي ..

فهو يكمل جوانب الصورة ، فليس صحيحا أن العالم العربي ، كما كنا نتغنى دائما ، منشغل بهموم مشتركة وموحدة ، فالثابت الآن أن الهموم تفرعت واختلفت أولوياتها ، وأنها (أى الهموم) قسمت العالم العربي إلى ثلاث كتل واضحة ومحددة .

– كتلة الهم الاسرائيلي ، وهي كتلة دول المواجهة مع اسرائيل . وتشمل سوريا والأردن ولبنان وفلسطين والهم الأول لهذه الدول هو مواجهة الخطر الاسرائيلي .

– كتلة الهم الايراني ، وتشمل دول الخليج والمملكة العربية السعودية والهم الأول لهذه الدول هو مواجهة خطر انكشاف الجبهة الشرقية أمام الخطر الايراني بعد زوال التوازن بغياب قوة العراق العسكرية عن الساحة ، وعدم وجود (معدات) اقليمية قادرة على مواجهة أحلام السيطرة والسطوة والهيمنة .

– كتلة الهم الإرهابي المتستر بشعارات الدين الاسلامي ، وتشمل الدول العربية الأفريقية ، مع حساسية خاصة لدول الشمال التي تشمل مصر ودول المغرب الغرب ، والهم الأول لهذه الدول هو مواجهة هذا الخطر بعد تصاعده في الجزائر والسودان ، وداخل هذه الدول ذاتها .

وهكذا تحدد الصراع ..

وهو صراع يراهن عليه كاتب هذه السطور .

وهو أيضا صراع يزعج الكثيرين ممن يتصورون أن عالم الشمال هو

عالم التغيير وإننا أهل الثبات فى كل شيء ، فصراعاتنا أبدية ، وعدواتنا أبدية وصداقاتنا أبدية ، وكل هذا أضغاث أحلام ، فالصراع العربى الاسرائيلى فى طريقه للتآكل منذ معاهدة السلام بين اسرائيل ومصر ، وهو يتسارع فى تآكله بعد عقد مؤتمر السلام ، والصراع المصرى الايرانى هو الصراع القادم بغير شك ، والصراع هنا كما ذكرنا صراع حضارى ، أما الصراعات المسلحة ، فمكانها فى الجنوب حيث مصادر المياه ، وإذا لم ندرك هذا من الآن . وإذا لم نسع بكل السبل لتأمين منابع مياه النيل ومساره ، فسوف نخطئ خطأ جسيما ولسنا فى هذا مخترعين أو مبتدعين ، فقد أدركه قبل ذلك محمد على والخديو اسماعيل وكان معهما كل الحق .

وتبقي بعض التساؤلات ..

وهى تساؤلات بالغة الأهمية ..

أولها عن موقف القوة العظمى مما حدث ويحدث ، وهل هى غائبة عنه أم أنها مشاركة فيه ، وأعتقد أن إجابة السؤال واضحة .

وثانيها عن الدور الغريب والشاذ الذى لعبته وما تزال تلعبه بعض الدول الخليجية فى مساندة التيارات السياسية الارهابية ، المتسترة خلف شعارات الدين ، برغم مواقف هذه التيارات فى أزمة الخليج ، وإذا كان القارئ قد لاحظ أننى أتلكأ كثيرا عند عهد محمد على والخديوى اسماعيل ، لاعتقادى بأن فى تاريخهم دروسا لابد من استيعابها لتفسير ما يحدث اليوم . فإنه من المؤكد أن بعض الدول تتلكأ أكثر عند هذه الفترة ، ولا تنسى حساباتها معها ، وتحاول تصفيتها اليوم بأسلوب مختلف ، وهو أمر يبعث على الأسى إن كان صحيحا ، وأغلب الظن أنه كذلك .

وثالثها عن سبب عدم تغيير مؤشر البوصلة فى السياسة المصرية

العربية ، فالثابت أن الاتجاه غربا قد أصبح ضرورة ، وأن الاهتمام بدول المغرب العربى قد أصبح لازما ولمصر من رصيدها الثقافى والحضارى والفكرى والفنى ما يؤهلها لأداء دور مميز ومطلوب فى هذه المرحلة ، وإذا كان أهل المغرب العربى (فى تونس والمغرب على سبيل المثال) ، يشكون من جهل المصريين بانجازاتهم الفكرية والحضارية ، نتيجة توجه أنظار المصريين إلى المشرق العربى ، فقد آن الأوان لتصحيح هذا الخطأ ، استنادا إلى رصيد الحب فى نفوس هذه الشعوب لمصر وللمصريين وهو رصيد هائل بكل المقاييس .

ورابعها يتمثل فى التساؤل عن سر هذا الحياد غير المبرر والحساسيات المبالغ فيها ، والتى تحجم مشاركة مصر فى الحياة السياسية السودانية .

فى السودان حزب اتحادى هو أحد أقوى الأحزاب السودانية التقليدية .. وفى مصر نحو ثلاثة ملايين سودانى يشعرون أنهم فى بلادهم .

والمعارضة السودانية موجودة فى مصر ، والسلطات المصرية تعاومها بتحفظ شديد .

والجسور بين مصر وجنوب السودان قائمة ومن الممكن تنميتها .

والقوى السياسة العربية وغير العربية تلعب دورا فى السودان ، أما مصر فتكتفى فى أغلب الأحيان بموقف المراقب ، وقد آن الآوان لتغيير هذه النظرة .

وخامسها يتمثل فى التساؤل عن السر فى عدم مراجعة سياسة المواجهة مع التيارات الارهابية الدينية ، بدءا بالاعلام وانتهاء بالتعليم ، ومرورا بالممارسة السياسية اليومية ، ولابد أن يكون هذا مجالا لمقال آخر مستقل ..

وسادسها يتمثل فى تساؤل مطروح اليوم ، بعد انتهاء أزمة الخليج

وتكشف غبار المعركة عن واقع جديد ، عن الموقف الصحيح مما يحدث للعراق اليوم .

إن كاتب هذه السطور كان من أشد الناس هجوما على صدام حسين وعلى موقفه من الكويت خلال الأزمة الأخيرة ، والعراق اليوم يدفع ثمن جريمته الشنعاء ، لكن انهيار العراق الشامل ليس فى مصلحة أحد ، وليس بالتحديد فى مصلحة مصر ، ولا فى مصلحة دول الخليج ، بل إن وجود صدام حسين الآن ، برغم كل مساوته وأخطائه ، أهون بكثير من البديل المتاح حاليا ، وهو قيام حكم شيعى فى العراق أو فى جنوبه .

إن الحيلولة دون الانهيار الشامل للعراق ، والمحافظة على قدر من تماسكه فى مواجهة إيران ، ضرورة لكل نظم المنطقة بما فيها دول الخليج ، وهو ضرورة أيضا لمصر ، ولا مفر أمام السياسة المصرية لأخذ زمام المبادرة فى الصراع الجديد ، من اغلاق ملف حرب الخليج ، وفتح صفحة جديدة ، ومن مساندة المعارضة السودانية ومن توثيق الروابط السياسية والثقافية مع تونس والمغرب ، وبعض هذا الدواء مستحب ، وبعضه مر ، لكنه فى النهاية ضرورة سياسية ، إذا كنا نفهم السياسة بمنطق الحساب وليس بمنطق الوجدان والعواطف .

أقول قولى هذا وأنا أعلم أن ما أكتبه يفتح على أبوابا كان أولى بى أن أسدها لكنى أدرك أن سبيل العقل يصطدم دائما بالوجدان ، وهو قدر على أية حال .

ونعود إلى بداية المقال ..

فقد قلنا فى بدايته إن كل شىء فى العالم يتغير ، ونقول الآن إن كل شىء فى الشرق الأوسط يتغير أيضا ، والذى لا يصدق ذلك عليه أن

يراقب ويتأمل .. فمن يصدق أن العراق قد انتهى كقوة عسكرية وكدور سياسى مؤثر عن المنطقة كلها .

ومن يصدق أن الجمهورية الإيرانية الإسلامية قد بدأت تعيد إلى الأذهان ذكريات التتار فى زمن غابر .

ومن يصدق أن العسكرية المصرية مطالبة اليوم بالنظر إلى الجنوب ، وفتح خرائطه ، وهو ما لم تفعله منذ أيام الخديو إسماعيل .

ومن يصدق أن دائرة حصار قوى الردة الحضارية تكاد تطبق على مصر جنوبا وغربا .

ومن يصدق أن أحدا لا يناقش ذلك ، ولا يتحدث عنه ، ولا يتطوع بتحليل مفرداته وكأنه يحدث فى جمهوريات البلطيق .

هذا هو الأمر المحزن حقا ، وهذا هو مالا أصدقه ، لكنه واقع .. من حيث يصدق هذا كله ؟ ..

على أية حال ، هذا بلاغ للناس .

فصبر جميل والله المستعان

هذا مقال اضطررت أن أختصر نصفه على الأقل ، تجنبا للقيل والقال ، واحتراما منا لمن لم يحترمونا ، وتنزيها من جانبنا لصرح عال ، والقارئ الفطن سوف يدرك علة الاختصار ، ومضمون ما أختصرناه ، حين ينتهى من قراءة المقال ..

ونبدأ بمقدمة ..

ففى طبعة فاخرة من سلسلة (قضايا إسلامية معاصرة) ، أصدرت الأمانة العامة للجنة (العليا) للدعوة الإسلامية (بالأزهر الشريف) ، كتابا من خمسمائة صفحة من الحجم المتوسط ، ثمنه ثلاثة جنيهات فقط ، وعنوانه (حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب) من تأليف الأستاذ (الدكتور) يحيى هاشم حسن فرغلى ، (العميد) السابق لإحدى كليات أصول الدين والدعوة بالأزهر الشريف ، والرئيس حاليا لقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الإمارات العربية المتحدة ..

باسم الأزهر الشريف إذن صدر الكتاب ..

وتحت إشراف (أعلى) لجان الدعوة تمت مراجعته ونشره ..

وبثمن يقل كثيرا عن التكلفة تم بيعه وتسويقه بحتى (تعم الفائدة) ..

وقد تصورت نتيجة لما سبق ، أننى سوف أقضى بضع ساعات مع فكر مضئ ، وعلم واسع ، وتدين عميق ، وهذا كله يسعد ويمتع ، مهما بلغت

شقة الخلاف فى الرأى ، واعترف - كما سيرى القارئ - أننى أخطأت الظن .

الكاتب الذى لم يقرأ ..

لقد ذكرنى الكاتب فى أكثر من موضع ، وشرفنى بالإشارة إلى اسمى بلقب (العلمانى الشهير) ، ويؤسفنى أننى لن أستطيع رد التحية بمثلها ، ومخاطبة الكاتب بلقب (الإسلامى الشهير) ... لسبب لا يتعلق به ، بقدر مايتعلق بالإسلام ، دين العقل والعلم وأمانة النقل ونزاهة النقد وشرف الكلمة وموضوعية التناول ..

يقول الكاتب (ص ٢٠٧) بعد استعراض لاضطهاد المسلمين فى ألمانيا وبلغاريا ما نصه (وهلا قرأ ذلك الدكتور فرج فودة الذى يعاير الاتجاه إلى الإسلام بخطأ ارتكبه ابن عمر بن الخطاب ، إذ أخذ يعتب قاتل أبيه عبد الرحمن بن ملجم قبل أن ينفذ فيه القصاص ؟) وفوق الكلمة الأخيرة يوجد رقم (٣) ، الذى توضحه المذكرة التفسيرية بعبارة (الحقيقة الغائبة - د . فرج فودة) ، دون ذكر رقم الصفحة .. ومعذرة للشيخ إذا قلنا له مايلى :

أولا : إن الذى قتل عمر بن الخطاب ليس هو عبد الرحمن بن ملجم ، بل هو فيروز غلام المغيرة بن شعبة ، وكنيته (أبو لؤلؤة) ، وهذا معلوم ليس فقط لمن قرأ التاريخ ، بل أيضا لمن سمع عنه ، ومعنى هذا ببساطة أنه يستحيل على مثلى أن يقع فى هذا الخطأ ، لا فى كتاب الحقيقة الغائبة ولا فى غيره ..

ثانيا : إن عبد الرحمن بن ملجم هو قاتل الإمام على ، بعد مقتل عمر ابن الخطاب بنحو سبعة عشر عاما كاملة ، وأظن أن هذا معلوم للجميع ياشيخنا الجليل ، وأحرى أن يكون معلوما لى ولك ..

ثالثا : إن ابن عمر لم يعذب قاتل أبيه يا شيخنا الجليل ، لسبب لا أظن أنك تجهله ، وهو أنه لم يقبض عليه حيا ، حيث تحدثنا كتب التاريخ أنه خلال محاولة الإمساك به قتل سبعة ثم انتحر بخنجره .

رابعا : إن قاتل الإمام على ونقصد به عبد الرحمن بن ملجم ، هو الذى قبض عليه حيا ، وهو الذى عذب رغم نهى الإمام (على) عن ذلك قبيل وفاته ، والذى عذبه لم يكن ابن عمر يا شيخنا الجليل ، بل كان عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب ، وقد عذبه كما تذكر كتب التاريخ يقطع يديه ثم قطع رجليه ، ثم سمل عينيه بحديد محمى ، ثم قطع لسانه قبل أن يقتله ..

خامسا : إن تبريرك ما حدث ، وهو خطأ لا يغتفر بمقاييس الإسلام ، الذى ينهى عن المثلة ولو بالكلب العقور ، بتجاوزات حدثت فى ألبانيا وبلغاريا ، أمر يبعث حقا على الحزن ، فالإسلام يعلو ولا يعلو أحد عليه ياشيخنا الجليل ، ودعك ياشيخنا من شهرة ذبح العلمانيين وتفنيد آرائهم ، وتخيل معى أن شخصا سرق متجرا فى القاهرة ، فإذا بأحد العلماء يبرر ذلك بقوله :

وماذا فى ذلك ؟ أنهم سرقوا بنكا فى نيويورك ، أيمكنك أن تقبل هذا التبرير بضمير مستريح ، أم أنك ستقف معنا وتتساءل ، أى منطق عجيب هذا ؟ وأى قياس ؟ ..

سادسا : من الذى أوهمك يا شيخنا الجليل أننا كنا (نعاير) الاتجاه إلى الإسلام حين ذكرنا قصة عبد الرحمن بن ملجم ؟

لست معى أولا يا شيخنا فى أن لفظ (المعايرة) لا يليق بحوار العلماء ثم ألم يكن من حق القارئ عليك أن تقرأ ما كتبناه جيدا ، وتفهم قصدنا منه حتى لا يشطح بك الخيال إلى دروب(المعايرة) ؟ لقد ذكرنا القصة لكى تعرض على القارئ سلوك عبد الرحمن بن ملجم عند تعذيبه ، وكيف أنه لم يتأوه ، ثم كيف انتفض حين حاولوا قطع لسانه ، فلما سألوه ، قطعنا

يديك ورجليك وسملنا عينيك فلم تعترض ، ما بالك تفعل عند قطع لسانك ، كانت إجابته « لا أريد أن يفتر لسانى لحظة واحدة عن ذكر الرحمن قبل أن أموت » .

هذا ما تعجبنا له ، وما ذكرناه وعلقنا عليه ، بأن ابن ملجم كان نموذجا للإيغال فى الدين بغير رفق ، وسوء الفهم وسوء التأويل ، إلى الدرجة التى قتل معها على بن أبى طالب ، وهو يتصور نفسه من غلاة الصالحين ، وما أكثر ما نشهد فى زماننا هذا أمثال هذه النماذج ، التى تستحق النقد والرفض والتنديد .. درس كهذا يا شيخنا الجليل كان أولى بك أن تهنئنا عليه ، وتؤيدنا فيه ، بدلا من أتهامنا بالمعايرة .

سابعا : وهذا هو الأهم ، فما نقلته عنا لم يرد فى كتابنا ، وإذا كنت تحسن الظن بنا حقا ، وتربى فينا قدرا من الشهرة ، أفلم يكن من قبيل حسن الظن أن تحسن النقل ، وأن توثقه ، وألا تخلط بين واقعتين ذكرناهما ولا علاقة بينهما ، الأولى فى صفحة ٦٨ عن تعذيب ابن جعفر لابن ملجم ، والثانية فى صفحة ٧٠ وصفحة ٧١ عن قتل عبيد الله بن عمر لثلاثة ظن أنهم شاركوا فى قتل أبيه ، أليس عجيبا أن تدمج القصتين فى قصة واحدة ، وتقيسهما على غير قياس ، وتتصور (المعايرة) على غير أساس ..

هل هذا محض مصادفة ؟

ربما التمس القارئ للشيخ قدرا من حسن الظن فى المثال السابق ، بيد أننا نقدم إليه هذه المرة نموذجا لا يحتمل خطأ القصد ، حيث يذكر الكاتب فى صفحتى ٣١٦ ، ٣١٧ ما نصه : (ويقول العلماني الشهير ، فى تقديرنا أن نجاح هؤلاء الخلفاء ، وهو يعنى هنا حسب سياق كلامه ، معاوية رضى الله عنه ، وعبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، الذين يحسبهم الخلفاء الأربعة من الدولة الأموية الذين

يستحقون لقب رجل الدولة ، يقول إن نجاح هؤلاء الخلفاء الأربعة !! قد ارتبط ارتباطا وثيقا بفصلهم بين الدين والدولة عند قيامهم بأمانة الحكم .. مرحى مرحى ، ها قد جاء واحد منهم ليعلنها صريحة أن « أمانة الحكم » لا يتحقق لها النجاح إلا بانفصال عن الدين . أى أمانة تلك ؟ أى أمانة حكم يعنى ؟ أى نجاح يعنى ؟ أى شرف ؟ وأى دولة ؟ وأى نجاح يعنيه الكاتب على حين أن واحدا من هؤلاء الأربعة « الوليد بن عبد الملك » يقول عنه العلماني الشهير فيما تسقطه من أخبار « انه قد أشتهر بالمجون ، وبالشراب ، وباللواط ، وصدق أو لا تصدق برشق المصحف بالسهام . وكان إلى جانب ذلك شاعرا مطبوعا يحسن اختيار ألفاظه ورويه وإن بعضا من شعره وبعضا من قصصه لا تستطيع روايته لوقاحة ألفاظه ، وأنه فى تلوطه راود أخاه عن نفسه » .

هكذا قالوها ولله الحمد صريحة ..

تلك هى الدولة الناجحة التى يريدونها ، ذلك هو النجاح ، ذلك هو رجل الدولة الذى لا يكون كذلك إلا بالبعد عن الدين !!!

تلك هى دولتهم ، ولكنها لا تكون دولة الإسلام بحال ..

إلى هنا تنتهى الفقرة التى نقلناها حرفيا عن الكاتب ، والتى حاول تأكيد صحتها بإشارة فى المذكرة التفسيرية نصها (انظر الحقيقة الغائبة ص ٨٩ ، ٨٦ ، ٨٧) ..

فليستعد القارئ معنا لسماع الرد ، وليهيئ وجدانه لما هو أكثر من التعجب ، وأشد من الأسف ..

أولا : يذكر شيخنا الجليل أننى كتبت عن (الوليد بن عبد الملك) أنه (أشتهر بالمجون وبالشراب واللواط ... الخ) والذى يقرأ ذلك لا ينتابه الشك فى صحة النقل ، فالاسم واضح ، والأقواس موجودة ، وأرقام الصفحات مذكورة ، والكاتب يربط بين هذا القول فى حق الوليد بن

عبد الملك وبين ما ذكرناه من مدح فيه باعتباره واحدا من أعظم خلفاء بنى أمية ..

فليسمح لنا الشيخ الجليل أن نتحداه بقولنا إننا لم نكتب حرفا واحدا مما ذكره فى حق (الوليد بن عبد الملك) ..

وليسمح لنا أيضا بأن نوضح له معلومة لا تخفى على المبتدئين فى قراءة التاريخ ، وهى أن هناك خليفتين أمويين ، اسم كل منهما الوليد ، أولهما الوليد بن عبد الملك ، الذى مدحناه فى إحدى الصفحات ، وثانيهما الوليد ابن يزيد ، الذى هاجمناه فى صفحة أخرى ، وإننا فزعنا حقا حين اكتشفنا أنه يؤمن بالحكمة الشهيرة ، وهى أن (كله عند العرب .. وليد) ، وأن فضيلته لايعرف أن الذى يفصل بين الخليفتين ، أربعة من الخلفاء بالتمام والكمال ، هم سليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، وإنه فى تقديرنا قصد عامدا أن يخلط بين الاثنين ، ورغم وضوح الأسماء ، وتسلسل السرد واختلاف الصفحات ، حتى يبدو كاتب هذه السطور فى موضع الساذج الجاهل الذى يصف حاكما بأنه عظيم ، ثم يتحدث عن رشقة للمصاحف بالسهام ولواطته ، ولو رجع فضيلته ، إلى الفقرة التى نقلها ، ونسبها (بمعرفته) إلى الوليد بن عبد الملك ، لوجدها مسبوقة فى نفس الصفحة (ص ٨٦) بعبارة (وننتقل من حديث يزيد إلى حديث ولده ، الوليد بن يزيد ، الذى ..) ثم تأتى العبارة التى ذكرها الشيخ الجليل ..

هل يعذرنى القارئ إذن إذا تصورت أن الأمر يتعدى المصادفة إلى القصد ؟ .

ثانيا : كان الوليد بن عبد الملك خليفة عظيما بغير شك ، فهو مؤسس الجامع الأموى فى دمشق ، والمسجد الأقصى فى القدس ، وهو موطد أركان الدولة الأموية بعد أبيه ، بينما كان الوليد بن يزيد فاسقا ماجنا ، تشهد

على ذلك ليس صفحات التاريخ فقط ، بل حادثة مصرعه ، على يد ابن عمه يزيد بن الوليد (وهو بالمصادفة ابن الوليد ابن عبد الملك) ، فى محاولة منه لإيقاف مجونه وزندقته وفسقه ..

معنى هذا أننا لم نخطئ هنا ولا هناك ، وأن الذى أخطأ هو الذى وصل بين هذا وذاك ، متصورا أن الغاية وهى الهجوم علينا ، تبرر الوسيلة وهى فساد النقل ، ولو عرف الشيخ طبيعتنا المتسامحة ، لأدرك أن الهجوم علينا لا يستحق كل هذا العناء ..

ثالثا : ما الذى يغرى كاتبا له مكانته العلمية والدينية ، بذلك الموقف الذى امتلأت به صفحات الكتاب ، والذى هاجم فيه ليس كاتب هذه السطور فقط ، بل رموزا أدبية وفكرية شامخة ..

لقد هاجم الشيخ على مدار صفحات الكتاب ، الأستاذ نجيب محفوظ ، والدكتور زكى نجيب محمود ، والدكتور فؤاد زكريا ، وصورهم وتصورهم أعداء للإسلام ، وشياطين تتذرع بالعلمانية لهدم الدين الحنيف .

أفهم أن يحدث هذا من كاتب مبتدئ ، ومن دار نشر ، من تلك الدور التى نعرفها وتغصب أنفسنا على قراءة ما تنتجه ، أما أن يحدث ذلك من كاتب وقور ، ودون دليل مذكور ، وبعد مراجعة علماء أفاضل ، فهذا يبعث على العجب حقا .

ويبقى أغرب ما قرأناه ..

وقد أرجأناه إلى نهاية المقال ، فقد هيئ للشيخ الفاضل أن موقفه الصحيح ، يجب أن يكون حيث لا تكون ، وحيث الرفض لكل ما نكتب ، حتى لو كان ما ذكرناه حقا معروفا ، وحقيقة مشهورة ، وموقفا موثقا لا لبس فيه ولا غموض ، وقد أدى به ذلك ، وهو متكرر على مدى

صفحات الكتاب ، إلى مواقف لا يحسد عليها أبدا ، تذكر واحدا منها للقراء .

كاتب هذه السطور أنتقد الحجاج بن يوسف الثقفى ، سفاح بنى أمية الشهير ، وقاتل الصالحين ، وراشق الكعبة بالمنجنيق ، وهنا عز على الشيخ الجليل ألا يتخذ موقفا منى ومنه ، فماذا يظنه القارئ قد فعل .

لقد أنهال الشيخ الجليل على الحجاج بن يوسف الثقفي بالمدح ، وتفنن فى الحديث عن صلاحه وتقواه وورعه وزهده ، وصدق أو لا تصدق أيها القارئ ، فقد تصور الشيخ أننا مادمنا قد هاجمنا الحجاج ، فلابد أنه أحد خلفاء المسلمين ، ولأنه لا يعرف ما يعرفه عامة القراء ، وليس العلماء ، من أن الحجاج كان واليا وقائدا للجيش ، فى عهد عبد الملك بن مروان وولده الوليد ، فقد أندفع يحكى القصص عن صلاح الرعية وغنى الناس فى (خلافته) .

فليقرأ القارئ معنا ما ننقله حرفيا من كتاب الشيخ العظيم ، العميد السابق لكلية أصول الدين ، (ص ١١٧) حيث يقول (ولما مات الحجاج بن يوسف الثقفى خلف مصحفا وسيفا وعشرة دراهم فضة ، فلا يجد مستحقا يدفعها إليه ، لأن الناس كلهم كانوا قد أصبحوا فى خلافته — أغنياء) .

مرحى مرحى يا شيخنا العزيز .

هذا إذن هو النموذج الرائع للحكم الإسلامى الذى تلقيه فى وجوهنا .

هذه هى الحجة المفحمة التى يواجهنا بها أنصار الحكم الدينى ودعاة الخلافة الإسلامية .

الحجاج بن يوسف الثقفى إذن هو الحل ، والنموذج ، والمثال ، والقدوة ، وفضائله هى النموذج لدولة الإسلام التى يدعون إليها أمثالنا من الخطاة العصاة .

والمهم رحمتك ..

فماذا ينتظر منى هذا العالم الجليل ، ومن غيرى ممن رشقهم بسهام قوله العنيف ، وسخريته اللاذعة ، وروائع حججه ، وعميق علمه .

لنا الله يا سيدى ، فقد علمنا الإسلام أن نحترم العلماء ، وإن أخطأوا فى حقنا ، وأن نبسط لهم جناح المودة والحب ، حتى لو كان خطؤهم أوضح من قرص الشمس ، وأن نعتب عليهم فى رفق وندلهم على الصواب فى لين ، ونرشدهم إلى صحيح القول وحكيمه فى أناة وصبر ومحبة .

هذا هو فصل القول فيما شجر بيننا من خلاف فكرى ، أربأ بنفسى أن أرفعه إلى ساحات القضاء ، رغم أن جريمة القذف ثابتة الأركان ، بل أنها تتجاوز ذلك إلى التحريض على قتل أصحاب الأقلام الشريفة ، العفيفة ، تحت مظنة أنهم (محاربون لله ورسوله) .

مثلى ياشيخنا الكريم ، لايسمح لنفسه أبدا بأن يأتى بفضيلتك إلى ساحات المحاكم ، فأنت أكرم علينا من ذلك ، وأصدقاؤك ياشيخنا الكبير علمونا أن نتمثل بالصبر الجميل ، وأن ندعو الله لمن يخطئ فى حقنا بالمغفرة ، وقد أستجبنا لهم يا أستاذنا الفاضل لأن دعوتهم النبيلة تجد صدى فى نفوسنا الخيرة ، فصبر جميل ، والله المستعان .

ويبقى نداء ..

إلى الشيخ الجليل ، شيخ الأزهر الشريف ، الذى أناشده أن يصدر أوامره بمراجعة الكتاب فى ضوء ما ذكرت ، وسوف يكتشف أن ما ذكرته صحيح ، وأن حجم الأخطاء الواردة فى الكتاب ، أضعاف أضعاف ما ذكرت ، تاريخا وفقها ولغة وتوثيقا ، وسوف يعز عليه ، كما يعز علينا ، أن تصدر مثل هذه الكتب تحت مظلة هذا الصرح العلمى العتيد الشامخ ،

صاحب التاريخ المشرف ، وسوف يكتشف أن الأزهر بمثل هذه الكتب ، يدخل معركة لا مبرر لها ولا طائل ، فمعركته الحقيقية مع التخلف ، ومع الارهاب ، ومع الأعداء الحقيقيين للإسلام ، وليس منهم طه حسين ونجيب محفوظ وزكي نجيب محمود وفؤاد زكريا وكاتب هذه السطور ..

وإذا كان جهد الأزهر قد توجه في الفترة الأخيرة إلى مصادرة بعض الكتب ، فإننا لا ندعوه إلى مثل ذلك بالنسبة لهذا الكتاب ، لأننا نرفض أسلوب المصادرة من أساسه ، وما أحرى الأزهر أن يصرف جهده لمراجعة ما يصدر عنه ، وإلى سحبه من الأسواق لتصحيحه وإعادة طبعه خاليا من الأخطاء الجسيمة ، حرصا على سمعته العلمية ، أما بالنسبة لنا فالأمر سواء ، فقد قالوا وقلنا ، ولا مجال للمقارنة بين عدد من قرأوا الكتاب ، وعدد قراء هذا المقال ..

لغة الحضارة

للحضارة لغة ، لا تعرف المحسنات البديعية ، وتخلو من الجناس والطباق ، وهى لغة علمية ، موضوعية ، لا علاقة لها بأسلوبنا فى التعامل مع لغتنا الجميلة للأسف الشديد ..

فى اليمن الشقيق ، المشهور بقصر قامة أبنائه ، يطلقون على أفراد القوات الخاصة اسم (العماليق) ، وفى القطر الليبى الشقيق يطلقون على البيت الأبيض اسم (البيت غير الأبيض) . ويطلقون على كامب ديفيد اسم (اسطبل داود ، وفى جميع البلاد العربية كان شائعا أن توصف اسرائيل بدولة (العصابات الصهيونية) ..

هذا هو أسلوبنا فى حسم المعارك ، والنزاعات ، والمشاكل ، نحسمها بالمصطلحات اللغوية ، فى حين يحسمها غيرنا باحتلال الأرض ، أو بفرض الإرادة ، أو بالانتصار العسكرى ، وكلها أساليب تنشئ واقعا جديداً ، فى حين أن أساليبنا تنشئ نثرا مجيدا ، وشعرا أجود ، وفرصة رائعة للخطب المنبرية ، العنترية ، البليغة ..

منذ ربع قرن كان حالنا أسوأ ، فأنا مازلت أتذكر ما كان يردده إعلامنا المصرى بعد حرب ١٩٥٦ ، حيث كان يصف دول العدوان الثلاثى ببريطانيا (الفاجرة) وفرنسا (العاهرة) وإسرائيل (مخلب القط) ..

فى بلاد العالم المتقدم يندر أن تجد أغنية تتغنى بالوطن ، وحبه ، وعشق أرضه ، واستعداد المواطنين للتضحية من أجله ، على حين فى بلادنا الجميلة ، ألف أغنية تتحدث عن حب الوطن . والطريف أن الوطن يتقدم

فى البلاد التى لا تغنى له ، ويتخلف فى البلاد التى يغنى أبناؤها عشقا للوطن ، ويذوبون فيه حبا ووجدا وصبابة ..

نحن نغنى وهم يعملون ، ونحن نحب وهم يبدعون ، وهذا هو جوهر المأساة ..

فى حديث مع أصدقاء ، يمثلون صفوة المجتمع ، اكتشفت أن عددا لا بأس به منهم قد أودع نقوده فى شركات توظيف الأموال ، وأحدهم باع شقة يملكها طمعا فى أن تصبح الشقة شقتين . وأكثرهم يحاول أن يلقى باللائمة على الدولة ، وهذا ظلم بين ، فالمسؤل الأول حقا هو الطمع ، وهو (حسن النية) ، وهذا هو التعبير المهذب عن الواقع والحقيقة ، وأنا مستعد أن أتحدى لو نشرت صور الإخوة الثلاثة ، الريان ، فى أى مكان فى العالم ، أن يدفع لهم مجنون مليما واحدا ، وأنا أتابع الآن المسلسل الجديد ، وهو مسلسل السعد .

وغدا مسلسل جديد .. هو مسلسل (الشريف) ، الذى ماتزال تصلنى خطابات من المودعين فى شركاته ، بعضها يثير الانزعاج ، وبعضها يثير الألم الشديد ، وسوف أكتب عن ذلك بالتأكيد ، فليس هناك ما هو أقسى من أن تطحنك الحاجة ، فى حين أن نقودك فى يد الآخرين ، وفى علم الغيب ، لا تدرى هل ستحصل عليها أم لا ، ولا تعرف يقينا هل أنت ضحية (نصب من الشركات) أم ضحية (طمع) من سيادتك . أم ضحية (تخاذل) من المسئولين ، أم ضحية هذا كله ، وقد عاصرت بداية هذه الشركات وهى بداية تؤكد عنوان هذا المقال ومضمونه ، فالثابت أن هذه الشركات جميعا قد تحدثت مع الناس باللغة التى يستجيبون لها . وهى لغة لا علاقة لها بالحضارة من قريب أو بعيد ..

أتذكر قصة طريفة حدثت منذ نحو عشر سنوات ، فقد طلب منى صديق يمتلك مشروعا لإنتاج البيض ، أن أتقدم له بعرض لدراسة

الجدوى الاقتصادية للتوسع فى المشروع . وقد أجهدت نفسى مع العاملين فى مكتبى . فى صياغة العرض بالأسلوب العلمى المتعارف عليه ، فقد شمل العرض محتويات الدراسة ، والفترة الزمنية اللازمة لها ، والفريق البحثى القائم بها ، وتفصيلات الدراسات الفنية والإدارية والاقتصادية والتمويلية والتسويقية ، إلى آخر هذه المفردات (العلمية) ، وفى نهاية العرض أرفقت عرضا ماليا منفصلا ، وتوقيتا زمنيا لتمويل الدراسة ، بحيث يتم دفع الأقساط مع الحصول على النتائج ..

أكثر من أسبوعين ونحن نعد محتويات الدراسة ونناقش تفصيلاتها ، ونعرضها على المستشار ، الذى بدا لى منبهرا بما نفعله ، وفى كل لقاء معه ، أحظى بعدد لا بأس به من القبلات ، ويأتى الخادم مع سخونة الحوار بالشاى والقهوة والفطائر ، وأشعر أننا على وشك الاتفاق ، لولا شىء لم أتبينه ، وتبينته فيما بعد ، وهو يتمثل باختصار فى أن ما أعرضه على المستشر الصديق ، متوافق مع عقله تماما ، لكن وجدانه فى اتجاه آخر ، بل تبين إلى أيضا أننى كلما أوغلت فى (العلم) ، أوغل هو فى (الشك) ، وتصور أننى تصاب (قرارى) ، وفى أحد اللقاءات حضر شخص لا أعرفه ، يرتدى جلبابا وعباءة وقدموه لى بأنه الشيخ (فلان) ، وهو مقاول غير متخصص ، يتحدث عن الشركة أكثر بكثير مما يتحدث عن غيرها ، وقد لاحظت أنه منشغل بالنظر إلى ساعته ثم فوجئت به يهب واقفا ويؤذن لصلاة الظهر ، على حين أن عيون المستشرين تتابعه بشغف وإعجاب ، ووقفنا جميعا وراءه وهو يؤمنا للصلاة ، ولم أربط بين وجوده وبين المشروع ، إلى أن فوجئت بعد ذلك باعتذار المستشر عن الدراسة ، لأن الشيخ فلان سوف يتولى الأمر من الألف إلى الياء ..

بقية القصة عرفتها فيما بعد ، حين التقيت بالمستشر الصديق ، فى

معرض للدواجن فى (يوتريخت) بهولندا ، فإذا به يهتف بى (أنت فين) ، ثم جلس يحكى لى كيف (نصب) الرجل عليهم ، وكيف (لهف) منهم أكثر من مائة ألف جنيه ، وهو مبلغ كبير بحسابات تلك الأيام ، وكيف تحولت العلاقة بينهما إلى قضايا تتداولها المحاكم ، وكيف انتهى الأمر به إلى إعطاء المشروع بأكمله للشركة الأجنبية لاستكماله بنظام تسليم المفتاح ، وهو ما يعنى فى تقديرى خسارة تتجاوز نصف مليون جنيه كان يمكن تلافيها لو تم اتباع الأسس العلمية السليمة ، وهو أمر كان فى مقدور مكتبى أن يفعله ، كما كان فى مقدور كثير من المكاتب المصرية ، أن تفعله ، ولم أستطع أن أمنع نفسى من سؤاله عن علاقته بالمقاول ..

- ألم تتعاقد معه ..
- للأسف لا .. كنت أثق فيه ..
- ألم يأخذ منك النقود بإيصالات ..
- للأسف لا ، كانت ثقتنا فيه كاملة ..
- هل كانت للرجل خبرة سابقة بمثل هذه المشروعات ..
- ولا بغيرها .
- أين تعرفت على الرجل ..

فى مسجد (كذا) ، وقد بهرنى صلاحه ..

- والدراسة التى قدمتها لك ..

كنا نعرضها عليه ، وكان رأيه فيها لا يسر ، وكان تقديرى أن الأمر أبسط بكثير مما ذكرتم ..

- ولماذا لم تلجأ إلينا بعد كل ما حدث ..
- خجلت أولا ، وأصابنى الإحباط والإحساس بعدم الثقة فى كل

شيء ، فقررت أن أسلم الجمل بما حمل للشركة الأجنبية ، مهما كان الثمن ..

الشاهد هنا أن لغة الحضارة ، وأقصد بها لغة العلم والحسابات ، ليست واردة فى ذهن صديقنا المستثمر ، وليست متصلة بوجدانه من قريب أو بعيد ، وهذا مالم يعترف به أبدا ، وربما لن يعترف به أبدا ، ولعلى أطمئن القارئ إلى أن حديث المقال لا علاقة له بالدعاية الشخصية ، لأن النشاط الذى أشرت إليه لم يعد قائما ، ولهذا لا أجد حرجا فى أن أذكر أننا عندما تقدمنا للمستثمر ، كانت لنا خبرة بخمسة مشروعات سابقة فى المجال نفسه ، وخمس عشرة مشروعا بعدها .. وأن العرض المادى كان منخفضا للغاية ، حتى بمقاييس تلك الأيام ، وأن القصة السابقة تكررت كثيرا بصور مختلفة ، وقد كنت أفسر للعاملين معى سر ذلك كله بأننا نتحدث لغة مختلفة ، وأن موقفنا شبيه بمن يتحدث إلى الشعب الأسبانى مثلا باللغة اليابانية ، ومازلت أتذكر أن أحد المستثمرين رفض أحد العروض لسبب لا يتخيله القارئ ، وهو أن الخطاب المرفق بالعرض ، لم يكن متوجا بعبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) ..

فى هذا المناخ تقدمت شركات توظيف الأموال ، وتحدثت للمجتمع باللغة التى يفهمها ، ويقبلها ، وفعلت بمن تعاون معها ما فعله صاحبنا المقاول بصاحبنا المستثمر ولم يفهم المجتمع خلال هذا المد الروحانى أن الإسلام هو الكمبيوتر ، وهو استخدام العقل . وهو احترام العلم ، وهو إعطاء العيش لخبازه ، وليس لمن يلتهمه بعد البسملة والحوقلة والتعوذ ، وأن عناصر الإنتاج الثلاثة المعروفة ، وهى رأس المال والعمل والإدارة ، قد أضيف لها عنصر رابع ، وربما أصبح أهم العناصر ، وهو التكنولوجى ، وأن هذا العنصر ليس مرتبطا بعقيدة ، وليس قاصرا على اعتقاد ، وأن العناصر الثلاثة القديمة ، قد أصبح أهمها عنصر الإدارة ، وهو عنصر

شديد التعقيد ، وقد بلغ من أهميته وخطورته وتخصصه ، أنه أصبح منفصلا الآن عن الملكية ، فأصحاب (جنرال موتورز) مثلا لا يديرونها ، وأوناسيس مثلا لم يكن يدير مشروعاته ، بل يلجأ كما يلجأ غيره ، إلى المديرين المتخصصين ، الذين أصبحوا عملة صعبة ، وبعضهم يحصل على أجره بالملايين فى كل عام . وتتخاطفه الشركات بالإ غراء المادى ، ولعل القارئ يعجب إذا علم أننى فى كتاب (قبل السقوط) الذى صدر عام ١٩٨٤ ، قد حذرت من شركات توظيف الأموال ، حيث أسميتها بالتيار (الثروى) نسبة إلى الثروة ، وبعدها مباشرة بدأت فى شن حملة عليها كانت مثار دهشة الجميع ، بل أن بعضهم اتهمنى وقتها بالعداء للإسلام (هكذا) ، وكأن هؤلاء المتاجرين بالدين هم وجه الإسلام الصحيح ، وكأن ما كانوا يفعلونه هو التعبير المشرق عن قيم الإسلام الرفيعة ، وقد كان السؤال البديهى الذى طرح نفسه على ، وقادنى إلى هذا الموقف ، متمثلا فى موقف هذه الشركات من الإدارة ، حيث كنت أسأل نفسى دائما ، هل يملك إخوة الريان مثلا الكفاءة الإدارية اللازمة لإدارة استثمارات تتجاوز مليارين من الجنيهات ، وكانت الإجابة المنطقية بالنفى ، وقد زادنى تأكدا قصة طريفة حدثت فى منزل أحد الأصدقاء ، حيث التقيت بمحاسب الشركة المشار إليها ، وكانا (المحاسب والصديق) يأخذان على موقفى من الشركة ، ولتأكيد وجهة نظرهما اندفع المحاسب ليقص علىّ قصة عاصرها ، حيث ذكر لى وهو يؤكد قصته بالأيمان الموثقة ، أنه دخل على أحمد الريان ، فوجده يطلب من أبنائه(وهم أطفال صغار) أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء ، أن يرتفع سعر الدولار ..

– والله العظيم يا دكتور ، كانوا يتوجهون إلى الله بالدعاء (يارب الدولار يزيد يارب) ، وصاحب قصته ينطق لفظ الجلالة بأسلوب منطق الصغار ، وقد اندهش وأنا أرد عليه قائلا ..

- يا نهار أسود .. هل تريد أن تقنعنى أنه يدير أرصدته فى البورصة بأسلوب (يارب الدولار يزيد يارب) ..

وهنا اندفع الصديق قائلا فى لهجة كلها تأنيب ..

- يا سلام عليك يا أخى ، الرجل مؤمن وهو يتوجه إلى الله بالدعاء ، ويتوسل إليه بالأطفال ، أحباب الله ..

لست أشك فى أن المحاسب كان صادقا ، وأن الصديق كان صادقا ، لكنها اللغة غير المشتركة ، فأنا أفهم أن التعامل مع الأرصدة فى البورصة ، يكون بالحسابات ، وبتقدير الاحتمالات ، وباستخدام الخبراء المتخصصين ، وبدراسة حركة الأرصدة ، وبتقييم الأوضاع الاقتصادية للدول المصدرة للعملات الرئيسية ، ولا أفهم إطلاقا أن تدار مئات الملايين بأسلوب (يارب الدولار يزيد يارب) ، فالرب عادل ، ولكل مجتهد نصيب ، ولكل مهمل وجاهل جزاء ، ولكل نصاب عقاب وإن طال الزمن ..

جهل لغة الحضارة هو الذى قاد المودعين إلى شركات توظيف الأموال ، وجهل لغة الحضارة هو الذى قاد الشركات إلى مصيرها المحتوم ، وجهل لغة الحضارة هو الذى قادنا جميعا إلى صراع عسكرى استمر نصف قرن ، خرجنا منه إلى نقطة البدء ، ونحن أسوأ حالا بكثير ، وقبلنا بعده ، وسنقبل ما لم يكن أحد يتصور أننا سنقبل به فى يوم من الأيام ..

فلندرك جميعا أننا أمام اختيار واضح بين لغتنا الجميلة ، ولا أقصد بها اللغة العربية بالطبع ، بل أقصد أسلوب الحياة ، وبين لغة الحضارة ، وأن مساحة الاختيار تطبيق يوما بعد يوم ، بسبب إنجاز حضارى رائع ، هو تقدم وسائل الاتصال ، التى تنقلنا إلى العالم ، وتنقل العالم إلينا ، وبسبب هذا التقدم ستتوحد لغة العالم كله . وسنتحدث لغة الحضارة ، سواء شئنا

أم أبينا ، وإذا كنا خلال ربع قرن قد انتقلنا من الحديث عن (مخلب القط) إلى الحديث عن (دولة) العصابات ، ثم إلى الحديث عن السلام العادل ، ثم إلى الجلوس مع الاسرائيليين على مائدة المفاوضات ، فلابد أن ننتقل غدا من مرحلة انتظار (البركة) التى ستهبط على المشروعات ، إلى مرحلة العلم والدراسة ، ثم إلى مرحلة إدراك أن التقدم رهن بسبيلين لا ثالث لهما ، وهما الإدارة والتكنولوجى ..

لقد انتهى عصر الجبابرة الذين يخرون (ساجدينا) ، أمام رضيعنا إذا بلغ (الفطاما) ، وأجبرتنا الأيام احترام حقائق العصر ، وقد بدأنا بالسياسة ، ولابد أن ننتهى بالفكر ، وإن كان العكس هو الأقرب إلى المنطق ..

غدا يوم جديد بغير شك ، يسمح فيه المناخ بطبع رائعة نجيب محفوظ (أولاد حارتنا) ، ويلغى فيه مجلس الشعب ذلك القانون الذى يسمح للمؤسسة الدينية برقابة الكتب ، ويدرك الجميع أن الرد على الفكر لا يكون إلا بالفكر ، وأن بوسعنا أن نرد على الكتاب الذى لا يعجبنا ، بثمانى كتب ، وليس بثمانى سنوات وراء القضبان ، وأنا واثق أن حديثى هذا قد يصدم البعض ، لكنى متأكد فى الوقت ذاته أنه سيكون حديثا لا معنى له فى المستقبل ، لأنه سوف يكون بديهة من البديهيات ..

غدا يوم جديد ، لو أعلن فيه مغامر عن شركة لتوظيف الأموال تحوطها البركة .. وتباركها السماء فسوف يكون مصيره شبيها بمصير شجرة الدر على يد المواطنين هذه المرة ، وساعتها نستطيع أن ندعى بأننا أدركنا العصر ، وتحدثنا بلغته ، وتعاملنا بمفرداته ، وهو أمر عسير الآن ، لكنه سيكون يسيرا غدا ..

سطور أخيرة ..

تطاردنى تساؤلات وخطابات تطلب منى المساهمة بالرأى فى الحوار السائد حول أزمة البطالة فى مصر ، وهى أزمة علاقتها وثيقة باستقرار الحياة السياسية ، وعلاقتها أوثق بمجال تخصصى الدقيق وهو الاقتصاد ، وفى إيجاز وتبسيط أذكر وجهة نظرى التى أخشى أن تكون ثقيلة على عقل القارئ أو على وجدانه ..

خبراء اقتصاديات التنمية ، فى دولنا (النامية) ، يواجهون خطرين مزعجين ، أولها التضخم ، ونقصد به الزيادات المتتالية والمتسارعة فى الأسعار ، وثانيها البطالة ، ومشكلة هؤلاء الخبراء أنهم لا يستطيعون حل المشكلتين معا ، بل أن نجاحهم فى حل إحدى المشكلتين ، يترتب عليه مباشرة تفاقم المشكلة الأخرى ، لأن تاريخ الاقتصاد لا يعرف فى إطار السوق الحرة إلا نوعين من السياسات ، النوع الأول يمكن أن نسميه بالسياسات الانكماشية ، والنوع الثانى يمكن أن نسميه بالسياسات التضخمية ..

السياسات الانكماشية (وهذا ما تفعله مصر منذ عام ١٩٨٢ وحتى الآن) . هى سياسات تواجه أساسا مشكلة ارتفاع الأسعار المستمر ، وتتلخص ببساطة فى تقليل الطلب على السلع والخدمات والاستثمار ، عن طريق التحكم فى كميات النقود المتداولة فى السوق (ولاداعى للحديث عما يسميه الاقتصاديون أشباه النقود) ، فتكون النتيجة أن يصبح فى يد (الناس) نقود أقل يترتب عليها إنفاق أقل ، فتنخفض الأسعار أو بمعنى أدق يقل معدل ارتفاعها ..

أساليب الحد من كميات النقود وأشباهها عديدة ، منها تشجيع الادخار

برفع أسعار الفائدة ، فيقبل الناس على الادخار بدلا من الاستهلاك أو الاستثمار ، والحد من طبع النقود الورقية ، وتحديد سقوف ائتمانية ، أى تقليل حجم القروض بحيث لا تتجاوز نسبة معينة ..

الاستهلاك هنا سيقل . والاستثمار أيضا ، ومعنى هذا انخفاض الطلب ، الذى يؤدى إلى انخفاض الأسعار ..

هذا ما حدث فى مصر باختصار خلال نحو عشر سنوات ، وكانت نتيجته ممتازة فيما يخص معدلات أرتفاع الأسعار ، فالمؤكد أن معدل التضخم انخفض عنه فى النصف الأخير من السبعينات ، والمؤكد أن سعر صرف الدولار بالجنيه المصرى قد مال للثبات منذ فترة ليست بالقليلة ، والمؤكد أيضا أن معدلات الادخار قد تزايدت (خاصة بالجنيه المصرى) ..

الوجه الآخر السيئ لهذه السياسة يتمثل فى ارتفاع مستويات البطالة بسبب انخفاض الاستثمار ، وزيادة الراكد من السلع ، وزيادة حالات إشهار الإفلاس ..

ونعود الآن إلى السياسات العكسية ، والتى نسميها بالسياسات التضخمية ، والتى تأخذ بها كثير من البلدان النامية ، وأشهر الأمثلة عليها أغلب دول أمريكا اللاتينية خاصة الأرجنتين والبرازيل ، والسياسات فى هذه الحالة عكسية ، حيث يتم تشجيع الاستثمار بالتحكم فى أسعار الفائدة ، والتوسع فى الإقراض ، وتشجيع الانفاق على السلع والخدمات ، وتكون النتيجة رواجا استثماريا ، وعلاجا لمشكلة البطالة ، لكن الوجه الآخر السيئ لهذه السياسة يتمثل فى ارتفاع مستويات التضخم (حتى أن الأسعار ترتفع فى الأرجنتين خلال ساعات اليوم الواحد) ، وأيضا انخفاض وتدهور قيمة العملة ..

بعض الدول تسعى إلى تحقيق التوازن بين السياستين ، ومثال ذلك تركيا وإسرائيل ، وأظن أن هذا ما سيسعى إليه مجلس الوزراء خلال بحثه لهذه المشكلة ، وهو اختيار مر ، لكنه فى تقديرى قد أصبح ضرورة ملحة ..

ترى هل استطعت تبسيط الأمر ، وهل انزعاجى من الحديث عن القضايا الاقتصادية ، كان له ما يبرره ، أم أنه تخوف لا مبرر له ، الله أعلم ، والقراء أقدر على الحكم ..

من فضلك .. لا تقرأ هذا المقال ..

هذا مقال أتمنى أن يقرأه القارئ ثم ينساه . ويحاسبنى عليه بعد عام أو عامين ، وهو مقال مكتوب بأسلوب (الكلمات المتقاطعة) ، حيث يضع القارئ حرفا بجانب حرف ، ولا تكتمل الكلمة ، ولا يتضح المعنى ، إلا بعد جمع الحروف كلها معا ، وبدهى أن المقدمات المنطقية ، تقود الى نتائج منطقية ، بيد أن النتائج هذه المرة تبدو عبثية تماما ، وإن كانت مقدماتها صحيحة ومنطقية ..

الطريف أن البعض يتصور أن الكاتب فقط هو الذى يؤثر فى الناس بما يكتبه ولا يتصور أن يحدث العكس ، فيتأثر الكاتب نفسه بما كتب ، وهذا ما حدث لى ، فقد كتبت فى مجلة أكتوبر مقالا مثيرا عنوانه (هذا بلاغ للناس) أثار ردود فعل واسعة ، كان أقساها وأقصاها رد فعل الاذاعة السودانية ، والصحافة السودانية ، ثم خطر لى أن أقرأه بعد نشره ، فإذا به يؤثر فى ، وكأننى لست كاتبه ، وإذا بتداعيات مزعجة تتسارع إلى ذهنى ، وإذا بالحيرة تنتابنى وتطرح على تساؤلا مزعجا ، هل أكتب هذا أو أكتمه ؟ هل أنشره أو أحتفظ به ؟ وأخيرا قررت أن أكتب وأنشر ، وللقارئ أن يقبل أو يرفض ، وله أن يضحك هازئا أو يصدق مندهشا ، ولو كتب أحد منذ خمس سنوات يتنبأ بما سيحدث للاتحاد السوفيتى لرماه الناس بالجنون ، ولو كتب أحد منذ عامين أن صدام حسين سوف يتحدى العالم ، وسوف يتحداه العالم ، لاتهمه الناس بالخرف ، لكن ماذا نفعل وعالمنا مجنون ؟ ماذا نفعل ومستقبل البشرية لا يسهم العقلاء وحدهم فى

صنعه ، بل يشارك معهم ، بنصيب واضح ، أصحاب العاهات النفسية ، والأمراض العقلية ، والخيالات المرضية ؟

عموما ، ما سأكتبه الآن هو سيناريو لنبوءة مستقبلية محتملة ، تقود الحسابات إليها ، وقد تصح وقد لا تصح ، لكنها مثيرة فى كل الأحوال ، مزعجة إلى أقصى حد .

وندخل فى الموضوع ..

ونبدأ من حيث انتهينا فى مقالنا السابق الاشارة إليه ، حيث تصورنا الصراع القادم فى المنطقة ، وهو صراع بدأ بالفعل كما أوردنا فى المقال ، والجديد فى الصورة ان هذا الصراع الذى نعتقد بوجوده ، ليس إلا جانبا من جوانب الصورة ، التى لا تكتمل إلا بصراع كونى أو أممى محتمل ، سمة ما شئت لكن تأمل معنا كيف يمكن أن يحدث ؟ ولماذا ؟..

السيناريو المحتمل يتكون من جزءين منفصلين ، أولها خاص بايران ، وثانيها خاص بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهو ينتهى كعادة السيناريوهات ، بنهاية درامية تجمع بين جزئى الصورة ، وهى نهاية لا تقل فى غرابتها عن نهاية الأفلام المصرية القديمة ، التى يهمس فيها الأب فى أذن ابنه (أنا عايز اعترف لك بسر .. أنا مش أبوك .. أنا أمك) .

ونبدأ بالسيناريو الايرانى ..

ونوجزه فى نقاط سريعة .

١ - إيران قدمت أوراق اعتمادها دوليا ، كزعيمة لنظرية عالمية أممية جديدة ، هى نظرية (الثورة الاسلامية) .

٢ - ايران سجلت نفسها فى سجل المصدرين لهذه الثورة ، وقد وجدت سوقا رائجة لبضاعتها ، تمثلت فى عديد من المستوردين على طول

الساحة العالمية وعرضها ، بدءا بأحزاب (الله) فى لبنان ، ومرورا بحزب التحرير المنتشر فى المغرب العربى ، وثورة الانقاذ فى الجزائر ، ونظام الحكم الحالى فى السودان ، والجماعات الاسلامية فى العالم العربى كله ، والشيعة فى دول الخليج وجنوب الاتحاد السوفييتى وبعض الدول الاسلامية الآسيوية .

٣ - تشير المؤشرات إلى احتمال اتساع السوق لهذه البضاعة ، واحتمال تزايد أعداد المستوردين فى كثير من أقطار العالم العربى ، حيث تمثل بديلا لكثير من الأنظمة العسكرية ، ومن المتوقع مع نهاية هذا القرن ، أن تسجل بعض الدول اسماءها رسميا فى سجل المستوردين .

٤ - لعبت إيران دورا تجاوز إطارها الاقليمى واتسع المجال الحيوى لنشاطها خارج هذا الاطار بل خارج القارة الآسيوية ، وطالت يدها الغاشمة كل أحداث المنطقة فى السنوات الأخيرة .

ففى لبنان ، تصدت لقرارات مؤتمر الطائف ، حيث لم تخضع الأحزاب الموالية لها فى الجنوب لسيطرة الجيش اللبنانى ، وأعطت بهذا مبررا للتواجد الاسرائيلى فى الجنوب اللبنانى .

وفى الضفة الغربية المحتلة ، تصدت منظمة (حماس) التى تنعم بالدعم الايرانى المباشر لمنظمة التحرير ، وأغرب ما نقلته وكالات الأنباء فى هذا الصدد ما حدث فى (طولكرم) حين دعت منظمة فتح لمحاضرة فى سينما (الأندلس) يحاضر فيها فيصل الحسينى وحنان عشراوى ، وقد هاجم أنصار حماس المجتمعين بالسلاح الأبيض ، وأفشلوا المحاضرة ، وسقط قتيل إضافة إلى عشرات الجرحى ، ولو نقلت وكالات الأنباء الحادث مجردا دون أسماء ، لتصور القارئ أن المهاجمين هم أعضاء جماعة كاهانا ، لكن ماذا نفعل لمنظمة (حماس) ، التى نجحت ضمن ما نجحت فيه ، فى تقسيم الصف الفلسطينى لأول مرة على أساس طائفى ، حيث سمعنا عن

منظمة (حمام) التي تتبنى النضال الفلسطيني (المسيحي) ، وهو مما يعطي الاحتلال أقوى الحجج .

وفي أعقاب أزمة الخليج ، نجحت ايران في تقليص إعلان دمشق ، ودفعت أنصار هذا الاعلان إلى تبادل العتاب والغضب ، ثم الاستسلام للأمر الواقع ، وهو تقليص الاتفاق ، وتجريده من محتواه ، تلافيا للغضب الايراني ، الذي يلهب أعصاب الامارات الخليجية .

وفي السودان بدأ الحديث عن فصل الجنوب ، أو أسلمة أبنائه ، مع بدء في تسليح الجيش الشمالي ، وفي تجييش المنظمات الارهابية الأصولية على مستوى العالم العربي ، والذي لا يصدق عليه أن يراجع جوازات سفر الارهابيين الأصوليين في العالم العربي الآن ، ثم تقدم الصراع خطوة أخرى بالحديث عن بناء سدود سوادنية على مجرى النيل ، لجر مصر إلى صراع حقيقي ، يستعرض فيه الإيرانيون قدرتهم على التأثير في المنطقة .

وفي جبهة الانقاذ ، يحظى الزعماء والأعضاء بالدعم الايراني ، إلى الدرجة التي دفعت إلى قطع العلاقات بين البلدين ، مع تداول أحاديث مزعجة ، عن علاقة الحرس الثوري بالميليشيات المسلحة لجبهة الانقاذ ، وهو حديث قد تتضح تفاصيله خلال الشهور القادمة .

وفي دول المغرب العربي ، حيث التيارات الثعبانية ، ناعمة الملمس ، حلوة الحديث ، سمحة الظاهر ، بينما يتحرك أسفلها أعضاء حزب التحرير الاسلامي ، وهم جزء من نسيجها ، ويمثلون أعنف فصائلها ، ويرتبطون مباشرة بايران ، وقد شاهدت ذلك وتعرفت عليه خلال زياراتي للقطر التونسي الشقيق ، حيث كان الظاهر حزب النهضة ، والباطن حزب التحرير .

إن معنى هذا أن الدور الايراني قد أصبح دورا (أمميا) ، وتعاظم حتى

تجاوز حدود الدولة والمجال الحيوى والقارة كلها ، إلى قارة أخرى يبدو تأثيره فيها أكثر وضوحا رغم ابتعاد المسافات .

٥ - دون دخول فى تفصيلات حرب الخليج ، نذكر أن الرابح الأكبر فيها هو ايران ، ونذكر ملاحظة عرضية ، ربما كان لها أهميتها ، وهى أن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى أدارت هذه الحرب .

تحطمت الآلة العسكرية العراقية ، وهى المصدر الرئيسى للأطماع الايرانية ، وأصبحت الساحة مكشوفة أمام ايران حتى حدود مصر ، ولا نستثنى إلا إسرائيل ، لأنها صديق وثيق لايران ، ورغم كل الضجيج والعجيج ، على الأقل على مستوى المصالح ، والذى لا يصدق عليه أن يراجع ملف فضيحة صفقة (الكونترا) الشهيرة فى عهد ريجان .

أكثر من ذلك أصبح محتملا أن يحكم الجنوب العراقى نظام حكم شيعى ، وهو مطلب شعبى للجنوب ، أو على الأقل أن يصبح لهذا التيار السياسى الدينى صوت عال فى توليفة النظام الديموقراطى العراقى ، إن شهد مثل هذا النظام النور .

٦ - اعتمدت الأمم المتحدة تعويضات لإيران عن الحرب العراقية الايرانية تصل إلى نحو مائة مليار دولار .

الطريف إن هذا حدث كنتيجة لحرب الخليج ، ومثلى لا يفهم ما هى العلاقة بين حرب الخليج والحرب العراقية الايرانية إلا بمنطق المصادفات السعيدة ، ولا أظن أن أحدا يمكنه أن يفسر الأحداث بمنطق الانتقام من صدام حسين ، لأن مصائر الشعوب لا يمكن أن تخضع لأسلوب (كيد النسا) أو منطق (التار البايت) ، والأصح أن نقول إن هذا القرار له دلالة ، وإنه صدر تحقيقا لمصالح دولية ، وأنه استهدف نتائج على المدى البعيد .

٧ - الدول العربية الخليجية فى موقف عصيب فى مواجهة هذا الغول

الايرانى المحتمل ، ونمو هذا الغول ، واتساع تأثيره ، هو الضمان الأكيد لمسارعة هذه الدول للتزود من ترسانة السلاح الأمريكى حتى الأسنان ، خاصة أنها قادرة على الدفع ، وخاصة أيضا وهذا هو الأهم ، أن القيود المفروضة على تصدير السلاح انطلاقا من المحافظة على الأمن الاسرائيلى ، فى سبيلها للانتهاء مع نهاية هذا الصراع ، الذى تبدو معالم نهايته واضحة فى نهاية طريق بدأ بالفعل ، وساهم فيه الخليج العربى بممثل فى المفاوضات ..

٨ - وسط هذا السيناريو تضىء (اللمبة الحمراء) معلنة عن حدث عالمى هائل ، وهو استقلال الجمهوريات السوفيتية الإسلامية ، وبدء مسيرتها للبحث عن (هوية) ، والعجيب حقا أن يحدث هذا الانفصال قبل أى اتفاق على نزع السلاح النووى من ترسانة هذه الدول .

فلنساهم فى توضيح الصورة أكثر للقراء ، حين نذكر حقيقتين ، الأولى أن الإسلام دين الأغلبية وأن المذهب الشيعى واسع الانتشار ، وأن اللغة الفارسية والثقافة الفارسية تمتدان كجيوب واضحة داخل الجمهوريات السوفيتية المجاورة للجمهورية الايرانية ، والثانية هى (مجرد احصائية) لعدد الرؤوس النووية التى تملكها بعض هذه الجمهوريات .

- جمهورية فرجيزستان فيها (٧٥) رأسا نوويا ..

- جمهورية طاجيكستان فيها (٧٥) رأسا نوويا (وقد اتخذت قرارا بالتحول إلى الأبجدية الفارسية) ..

- جمهورية كازاخستان فيها (١٨٠٠) رأس نووى ..

- جمهوريا أوزبكستان فيها (١٠٥) رءوس نووية ..

- جمهورية أذربيجان فيها (٣٠٠) رأس نووى (مذهبها الدينى هو المذهب الشيعى) .

وللقارئ أن يصدق أن هذا الانفصال المخطط ، دون تخطيط مسبق

بنزع السلاح النووى ، وبهذه الثروة الهائلة من الرؤوس النووية والعلماء والفنيين ، مجرد مصادفة غير سعيدة .

٩ - الخبثاء (ولسنا منهم) يقولون إن هذا تسيب مقصود ، وأن ايران التى عاشت كما ذكرنا على (التصدير) ، سوف تصبح المستورد الرئيسى والوحيد لجزء من هذه الثروة ، ليس فقط على مستوى الرؤوس النووية ولكن أيضا على مستوى (الامكانية) ، حيث يوجد آلاف العلماء ، يحصلون على مرتبات تصل بسعر السوق السوداء اليوم إلى أقل من عشرة دولارات شهريا ، أى نحو ثلاثين جنيها مصريا ، ولا يستطيع أحد أن يدعى أنهم ينتمون إلى طائفة الرهبان أو القديسين .

١٠ - لازمة أخرى نراها ضرورية ، وهى التأكيد على أنه لم يوجد فى التاريخ الحديث ، نظام يمتلك هذا القدر من العداء فى نفوس العالم الغربى ، والمحور الأول فى هذا العداء ينطلق من تبنى النظام الايرانى للارهاب فى أسوأ صوره ، ومثال ذلك خطف الرهائن من المدنيين ، مع كل ما أحاط بعمليات الاختطاف من تركيز اعلامى ، وقبلها أزمة الرهائن الدبلوماسيين فى السفارة الأمريكية ، ومرورا باعدام المعارضين ، والمخالفين فى العقيدة ، إضافة إلى العداء التاريخى التقليدى بين الحضارة الغربية ، بمفاهيمها المدنية والعلمانية والليبرالية ، وبين نظم الحكم الدينية ، الثيوقراطية ، الاستبدادية .

لعل القارئ الآن يتساءل ، ومعه حق ، ماذا يريد الكاتب أن يقول بالتحديد ؟ ونحن نرجو من القارئ أن يصبر قليلا ، وأن ينسى ما ذكرناه الآن حول السيناريو الايرانى ، وأن يقبل بذهنه على السيناريو الآخر ، وهو السيناريو الأمريكى .

وهذا هو السيناريو الأمريكى ..

وننقله إلى القارئ ، بمنتهى الايجاز ، كما فعلنا مع السيناريو الايرانى .

١ - العالم قد انتهى من حرب عالمية حقيقية ، انتصر فيها طرف على طرف انتصارا نهائيا (سبق أن شرحنا هذا التصور فى عدة مقالات) .

٢ - يحدث الآن ما يحدث فى نهاية كل حرب عالمية ، وهو ما يتمثل فى :

- إعادة تشكيل خريطة العالم .
- أن يصبح أعداء الأمس أصدقاء ، وهو ما يحدث الآن .
- أن يصبح حلفاء الأمس أطرافا فى صراع جديد ، وهذا ما نهتم به ونركز عليه فى هذا التحليل ..

٣ - السياسة الدولية الآن أمام أحد الاختيارين .

- اختيار واضح الآن ، وهو انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بزعامة العالم ، وهو اختيار مشكوك فى استمراره طويلا ، لأن الاختيار الثانى يبدو أكثر احتمالا .
- اختيار ثان ، وهو ظهور ثلاث قوى عالمية هائلة ، تدخل فى صراع جديد بينها ، وهو صراع اقتصادى فى الأساس .

أطراف الصراع الثلاثة هى الولايات المتحدة الأمريكية ، واليابان ومعها نمور الشرق الأقصى ، وأوروبا الموحدة .

٤ - الاختيار الثانى يبدو مخيفا للولايات المتحدة من زاوية اقتصادية بحتة ، بل إنه فى ظل الأوضاع الاقتصادية القائمة يهدد مكانة الولايات المتحدة ضمن القوى الرئيسية لأسباب متعددة ، أولها سبب تجارى بحت فصادرات الشرق الأقصى تمثل ١٠ ٪ من التجارة الدولية ، وصادرات

أوروبا الموحدة تمثل ١٧ ٪ من التجارة الدولية ، بينما لا تزيد مساهمة الولايات المتحدة عن ٩ ٪ .

٥ - يبدو المستقبل أكثر سوءا بالنسبة للولايات المتحدة فى ظل العجز الهائل فى الميزانية ، والديون الهائلة ، وارتفاع نسبة البطالة باستمرار .

٦ - يزيد الأزمة تعقيدا أن توقف الصراع العالمى بين الشرق والغرب ، يهدد أخطر الصناعات الأمريكية وهى صناعة آلة الحرب ، وصناعة سباق الفضاء ، وهى صناعات لابد أن تتدهور فى ظل تنامى صراع عالمى ، ليس له وجهه العسكرى ، ومضمونه اقتصادى بحت .

٧ - دون دخول فى تفصيلات اقتصادية معقدة ، يمكن القول بأن جزءا من تماسك الاقتصاد الأمريكى يعود إلى سيادة الدولار الأمريكى على العملات العالمية وإن هذه المزية سوف تتعرض لخطر جسيم ، فلو تم السيناريو (الثلاثى) فإن هناك احتمالا كبيرا أن تحل العملة الأوروبية محل الدولار الأمريكى أو أن تناطحه رأسا برأس على الأقل .

٨ - النتيجة المنطقية لذلك ، أن السيناريو الثلاثى هو الخطر الأكبر الذى يهدد المصالح الأمريكية فى المدى الطويل ، وأنه من الضرورى أن يتم حسم الصراع الحالى لصالح السيناريو الآخر ، وهو الهيمنة الأمريكية على الغرب ، وبالتالى على العالم ، والمبرر الوحيد لهذه الهيمنة هو استبدال الأممية الاشتراكية التى انهارت بأممية أخرى تتحقق فيها عدة مواصفات ، أولها أن تكون أممية كونية ، أو لها امتداد جغرافى واسع ، وثانيها أن تمثل عداءً حقيقيا للمصالح الغربية وللنظام الغربى الحضارى ، وثالثها أن يحظى العداء لهذه الأممية بقبول شعبى عام فى دول العالم المتقدم ، ورابعها أن تمثل تهديدا عسكريا حقيقيا لهذا العالم المتقدم ، وبمعنى أكثر دقة أن تمتلك سلاحا نوويا قادرا على التدمير ، واستعدادا واضحا لاستخدامه ، وخامسها أن تتمتع هذه القوة باستقرار فى العالم المتقدم ، وسادسها أن تكون

الاحتمالات لصالح تناميها وتوسعها وليس لصالح تآكلها أو انحسارها أو ضعفها ..

٩ - تجربة الخليج كانت لها مزية واضحة ، فقد أوضحت أن خطرا شديد المحدودية ، مثل صواريخ سكود المتخلفة تكنولوجيا ، والتى لا تحمل رؤوسا نووية ، يمكن أن تشكل خطرا على العالم كله ، ويترتب عليها كساد عالمى حقيقى ، وتستدعى توحد دول العالم الغربى تحت مظلة الولايات المتحدة الأمريكية ، لمجرد وقوع مثل هذا السلاح غير المتطور بما فيه الكفاية فى يد سلطة ارهابية متخلفة .

١٠ - ظهور هذه القوة الأممية المزعجة ، سوف يدفع آلة الحرب الأمريكية إلى الدوران ، والصناعات العسكرية الأمريكية إلى الانتعاش ، والاقتصاد الأمريكى الى الرواج ، والهيمنة الأمريكية إلى السيادة ، وإذا تصادف كانت هذه القوة مؤثرة فى منطقة الشرق الأوسط ، حيث المصادر التمويلية الهائلة ، المستعدة لبذل الغالى والرخيص فى سبيل التماسك أمام هذه القوة النامية ، من خلال شراء أحدث انجازات التكنولوجيا العسكرية ، فإن إخراج هذه القوة إلى ساحة الصراع ، بالمواصفات السابقة ، يصبح قضية حياة أو موت بالنسبة للسياسة الأمريكية فى المدى الطويل .

وهكذا نصل إلى النتيجة ..

وهى نتيجة مزعجة ، نتركها لخيال القارئ ، ونطلب منه أن يحاسبنا عليها فيما بعد ، ونرجوه وهو يتأملها أن يلاحظ أنها تقدم تفسيرا لعديد من التساؤلات ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

- لماذا هذا (الدلع) الجميل فى مواجهة الارهاب الايرانى ، فى مقابل الشراسة الواضحة فى مواجهة الجماهيرية الليبية ؟ ومنذ متى كانت

الولايات المتحدة تصنف الارهاب الى ارهاب مقبول وارهاب غير مقبول أو إلى (دلع) وجد ؟..

– لماذا هذا الاصرار على بقاء حلف الأطلنطى وفى مواجهة من ؟..

الأسئلة كثيرة ، والسيناريو الذى نذكره يتطوع بتفسير بعضها أو أغلبها ، وقد يصح السيناريو حتى نهايته ، وقد يتم إجهاضه إذا تغيرت الظروف ، لكنه فى النهاية يقدم تفسيرا لبعض ما يحدث الآن ، وتحليلا لما يمكن أن يحدث ، وإن كنت أتمنى أن أكون مخطئا من الألف للياء .

ما رأى القارئ ؟ الم يكن معى حق فى اختيار عنوان المقال ؟ ، عموما ، إذا كانت قرأت المقال ، فمن فضلك ، لا تقرأه مرة ثانية .

أنا لا أتحدث عن مصر

(١)

(كات بالو) فيلم من أفلام رعاة البقر ، عرضه التليفزيون مؤخرا ، بطولة (جين فوندا ، ولى مارفن) والفيلم يبدأ بجين فوندا واسمها فى الفيلم (كات بالو) وهى تنتظر الاعدام العلنى ، وينتهى وهى تصعد إلى المشنقة حيث يتم إنقاذها بحيلة طريفة ، وفى البداية والنهاية تحتشد الجماهير وتتدافع فى شوق ولهفة ، لمشاهدة تنفيذ الاعدام ، الذى يتم (على الطبيعة) أمام الجماهير الحاشدة من أجل تحقيق (الردع) .. (كات بالو) تصعد إلى المشنقة ، يحيط بها الحراس ، ثم يضع الجلاد الحبل حول عنقها ، منتظرا إشارة من قائد الحرس ، والجماهير فى غاية السعادة واللهفة على رؤية المشهد العظيم ..

كان هذا فى القرن الثامن عشر ، عندما كانت المشاعر أقرب إلى البدائية منها الآن ، وأبعد عن الحضارة منها الآن ، وقد تخلت الولايات المتحدة عن هذا التقليد منذ أكثر من مائة عام ، وإذا سألت أمريكيا عن السر فى عدم علنية عقوبة الإعدام الآن كانت إجابته واحدة من عدة إجابات ..

- لأننا أصبحنا أكثر تحضرا ..
- لأننا أصبحنا أقل بدائية ..
- لأن العلنية لم تقلل عدد الجرائم ونسبتها ..

– لأن العلنية لم تردع المجرمين ، وأغلب من عوقبوا سبق لهم مشاهدة العقاب العلنى ..

والإجابات كلها صحيحة ، وبعض الأمريكيين سوف تكون إجابتهم مختلفة .. إنهم يرفضون عقوبة الإعدام أصلا ، فكيف يقبلون بعلانية عقوبة مرفوضة ؟

هذا عن الولايات المتحدة ..

وأنا لا أتحدث عن مصر ..

(٢)

فى بلد عربى شقيق ، يتم الاعدام علنا بقطع الرأس .. وكذا يتم قطع اليد والجلد والرجم ..

فالعقوبات البدنية كلها علنية فى الميادين العامة ..

أخبرنى صديق أقام هناك فترة أن التصوير ممنوع فى تلك الميادين ، سواء كان فوتوغرافيا وبالفيديو ..

تعجبت لهذا الأمر ، لأن التصوير أعلن (أى أكثر إعلانا) وأردع (أى أكثر ردعا) ..

أخبرنى صديقى أيضا أن التليفزيون لا يتقبل هذا ، رغم أنه أسرع سبل العلانية وأكفؤها ..

كان صديق آخر من وزارة الداخلية حاضرا المحادثة ، فأخبرنى أن (قوافل) النشالين المصريين تسافر إلى ذلك البلد فى مواسم محددة ، حتى (تهتبل) فرصة هذا التجمع ، وأنهم يمثلون مشكلة حقيقية لوزارة الداخلية فى مصر ..

وهذه الظاهرة ماتزال مستمرة ، رغم قطع اليد علنا ، ورغم قطع يد بعض النشالين المصريين ، ورغم مشاهدة النشالين للعقوبة أكثر من مرة ..

– علنية العقوبة إذن لم تردع هؤلاء ..
سمعنى صديقى وأنا أردد ذلك فقال ..
– إنها لم تردعهم هناك .. ربما إذن تردعهم فى مصر ..
– أجبته قائلا ..
– أعفنى من مناقشة ذلك فأنا لا أتحدث عن مصر ..

(٣)

سألتنى ابنتى وعمرها ستة عشر عاما ، وهى عضو فى نادى الشمس ..
– هل صحيح أنهم سيعدمون تاجرا للمخدرات أمام النادى ؟
قلت لها ..
– يطالبون بهذا ، ولكنى لا أظن ..
– ما هو السبب فى المطالبة ؟
– يقولون إنه للردع ..
– ردع من ؟
– ردع تجار المخدرات ..
– إذن سيجمعون تجار المخدرات ويعدمون التاجر أمامهم ؟
– لا أعتقد ذلك .. إنتم ستكونون جمهور المشاهدين ..
– إذن سيردعوننا ؟
– نعم
– لماذا ؟
– حتى لا تتاجروا فى المخدرات ..
– ومن قال إننا نتاجر .. أو سنتتاجر ..
– ربما ..
– هذا غير وارد ..

- إذن يجب إنهاء هذه المناقشة ..
- لماذا ؟
- لأننى أرفض الحديث عن هذا الموضوع ..
لقد عاهدت نفسى يا ابنتى ألا أتحدث عن مصر ..

(٤)

سألنى صديقى ..
- هل قرأت بريد الأهرام ؟
- للأسف لم أقرأ ..
- هناك قارئة تطالب بتوزيع أجزاء جسد المحكوم عليه بالإعدام على من يحتاجون إلى (قطع غيار) ..
- لا أفهم ..
- مثلا يأخذون كليتيه لمن يحتاج إليها ، وعينيه لمن يحتاج إلى ترقيع قرنية ، وكبده لمن يحتاج إلى زرع كبد .. وهكذا ..
- فكرة عبقرية لكنها غير كاملة ..
- وماذا ينقصها ؟
- ينقصها بعض الإضافات البسيطة ..
- مثل ماذا ؟ ..
- خذ عندك .. هذا التاجر ضخم الجسد ..
- نعم ..
- إذن فى جسده شحوم ..
- أكيد ..
- نستفيد بها فى صناعة الصابون ..
- كرة ..

- ويقطع جسده (ترانشات) ..
- لماذا ؟
- أمثال هذه القارئة كثيرات .. وسوف يجدن عشرات الاقتراحات ..
- مثل ماذا ؟ ..
- يمكن مثلا الاستفادة من هذه (الترانشات) فى صيد أسماك القرش ، وبالتأكيد فإن اللحوم ليست المشكلة ، المشكلة الكبرى ستكون فى (الكوارع) ..
- الكوارع ؟ .
- نعم ، الزند ، والأظافر ، وإن كان ممكنا الاستعانة بها مؤقتا فى صناعة الجيلاتين ، وهو مطلوب صناعيا ..
- هذا اقتراح ممتاز ..
- ولابد من عرض هذا الاعدام فى التليفزيون ، حتى تتحقق العلانية ، ويتحقق الردع ..
- قد يؤذى هذا بعض المشاعر ..
- يمكن التغلب على ذلك بالتدرج ..
- كيف ؟
- نبدأ بإعدام القطط والكلاب .. ثم الآدميين ..
- من المجرمين ؟
- هذه هى المرحلة النهائية .. لكن فى البداية يمكن فتح الباب للتطوع ..
- ماذا تقصد ؟
- المسألة فى هذه المرحلة ستكون تعليمية ، أو تدريبية ، والتطوع هنا يمكن أن يحل المشكلة ..
- أنت تهذر ..

– بل أتكلم بمنتهى الجدية ..
– المشاعر فى مصر لا تقبل ذلك ..
– ومن قال لك إننى أتحدث عن مصر ..
– أنا لا أتحدث عن مصر ..

(٥)

رجال الدين جميعا أعلنوا سعادتهم بعلنية العقوبة ..
بعضهم أفتى بأن هذا هو حكم الإسلام ..
أصطدم هذا بمعلوماتى عن الإسلام السمح الرحيم ، دين الرحمة والانسانية .. معلوماتى تقول إن النص على علنية العقوبة لم يرد فى القرآن إلا فى آية واحدة ، وفى عقوبة واحدة هى عقوبة الزناة ..
العقوبة التى وردت فى الآية هى الجلد وليس الرجم الذى لم يرد فى القرآن .. والآية تقول (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) ..
والطائفة فى قواميس اللغة اثنان فأكثر ، وفى بعضها واحد فأكثر ..
العقوبة فقط فى جلد الزناة ، والنص القرآنى الخاص بالعلنية يتحقق بوجود اثنين فقط .. أو أكثر ..
البعض يتوسع فى مسألة العلنية ، ويجعلها شاملة لكل العقوبات ، وعلى رأسها الاعدام ، وهى مسألة فيها نظر ..
ولو قبلنا ذلك ، وهو محل نقاش ، لقلنا إن النص يتحقق فى عقوبة الاعدام فى مصر ، لأن من يحضرون الاعدام فى سجن الاستئناف هم الحراس ووكيل النيابة ، وكاتب النيابة وعشماوى ومساعده ومأمور السجن ومساعده والواعظ أو القسيس والطبيب ، وهم يزيدون على عشرة أفراد وهم أكثر من اثنين بكثير ..
قد يرد البعض بالاستناد إلى السنة الفعلية فى حياة الرسول عليه

الصلاة والسلام . وهى سنة فى تقديرنا مرتبطة بأعراف عصر الرسول ، وينطبق عليها ما ينطبق على بعض أبواب السنة ، التى تنصرف إلى عصر الرسول ، ولا تنصرف إلى غيره من العصور ، مثل سنة الرسول فى الزى أو العلاج ..

لماذا الاصرار إذن على الربط بين الإسلام وهذا الشكل من أشكال الاستعراض العقابى ؟

أنا هنا أتحدث عن فهمى للإسلام ..

واجتهد فى حدود معلوماتى المتواضعة ..

ولا أتحدث عن مصر ..

(٦)

أنا شخصيا لم أذبح فى حياتى دجاجة ..

ولا أتحمل مشاهدة ذبح دجاجة ..

ولا أرى فى هذا متعة ..

أحد أصدقائى أقسم لى أننى لو ذبحت دجاجة ، فسوف يصبح ذبح الدجاج بالنسبة لى هواية ، وأنا أصدقه ..

التدريب على الذبح هنا هام ، لأنه يسقط الحاجز النفسى ..

وكذلك القتل ..

السماع عنه شيء ، ومشاهدته شيء آخر ..

المشاهدة تدريب ..

واحد الموانع التى تقف حائلا بين الإنسان والقتل هو أنه لا يتصور أن يرى إنسانا يموت أو يقتل ..

والمشاهدة نصف المسافة إلى الممكن ..

لا أقول هذا من عندى ..

لكنى أقوله من عند علماء النفس ..
القتل أسهل بكثير لدى من يشاهد القتل ..
هذا بالنسبة للكبار ..
أما الصغار فإن القتل قد يشجعهم ..
وهو أسهل السبل لتكوين الشخصية السيكوباتية ..
وأنا هنا أتحدث عن علم النفس ..
ولا أتحدث عن مصر ..

(٧)

بعد أن طالب المستشار جمال عبد الحليم ، وهو بالمناسبة صديق عزيز ، بإعدام تاجر المخدرات أمام نادي الشمس ، هرع الآلاف فى يوم الجمعة التالى إلى النادى ، وتصوروا أن الاعدام سيتم بالفعل هناك ..

هذه ظاهرة جديدة على الطبيعة المصرية ..

لكنها ظاهرة تستحق التأمل ..

جذور هذه الظاهرة كانت واضحة فى أحداث الأمن المركزى ، حيث شاهدنا عنفا لا سابقة له ، والغريب أنه كان عنفا جماعيا ..

الطريف أن دور الكتاب والمفكرين ورجال الاعلام ، أن يبحثوا أسباب هذه الظاهرة ، وسبل ترويض هذا العنف ومواجهته ..

لكن الذى حدث عكس ذلك على خط مستقيم ..

نحن الآن نشجع العنف ونرعاه ونخرج المارد من القمقم ، وهو إذا خرج فلن يقف أمامه شيء ..

جريدة الأهرام أعلنت عن استفتاء ..

لم يكن الاستفتاء على نوع جديد من السلع ، ولا عن قوانين الايجارات ولا فى تعديل الدستور ..

كان الاستفتاء عن (الاعدام فى ميدان عام) ..

البعض يقول إنها الحرية ، وهو قول مردود عليه ..

فليس من الحرية مثلا أن يعلن عن استفتاء عن إباحة بيع الحشيش مثلا ، كما يحدث فى هولندا ، وهو استفتاء نتيجته معروفة ..

وبالمناسبة .. مساء الخير .. وأرجو ألا يفهمنى أحد خطأ ، فأنا أتحدث عن الاعلام .. وعن دور رجال الاعلام ، وهل هو قيادة المجتمع ، أو الانقياد له ؟ ولا أتحدث عن مصر .

(٨)

لا تظلموا المستشار جمال عبد الحليم ، فهو قاض شجاع ، وهو شخصية عامة بكل المقاييس ، فهو فنان ، والذى يقترب منه لابد أن ينجذب إليه ، لأنه يحمل قدرا هائلا من المشاعر الإنسانية ، والحب ، والمودة ، لكل من يعرفه ، وهو أيضا صاحب صالون أدبى له بصمته على وجه مصر الثقافى والحضارى ، وهو لم يضمن حكمه ذلك الطلب ، ولم يقصد الاعدام علنا أمام الجماهير ، بل قصد الاعدام فى مكان مستور ، فى موقع الجريمة ، اندفاعا منه وانفعالا بالجريمة البشعة ، وكان من الممكن أن تمر عباراته مر الكرام ، لولا أنها وجدت صدى وهوى لدى نفوس يمتعها ذلك ، وتسعى لتبريره ولو على حساب المنطق ، وقد أساء أصحاب هذه النفوس إليه ، فنسبوا إليه مالم يقله ، وأولوا ما ذكره لحساب مشاعرهم القاسية ، وحملوه وزر مالم يفعل ، وذنب مالم يقله ، وصنفوه فى جانب المدافعين عن العنف ، وهو أبعد ما يكون عنه ، والقسوة وهى ضد طبيعته وسلوكه ، ولو كان الأمر بيدى لوجهت إليه الشكر ، لأنه كشف لنا وجها آخر لمصر ، لا نعرفه ، ولا نقبل به ، ولو تحدثت عن هذا الوجه ،

وهاجمته ، لتنال مصر التى أحبها من هذا الحديث رذاذ .. ولهذا .. لا أتحدث عن مصر ..

(٩)

إذا كنتم جادين فعلا فى تطبيق ذلك فى مصر ، فأرجوكم ، أعطونا مهلة ، حتى نرتب أمورنا ، ونغادر الوطن ، ونذهب إلى أى مكان فى العالم ، يحترم فيه الوطن آدمية المواطن ، وإنسانيته ، حتى لو كان مجرما ..

فى العالم كله موجة ضد أحكام الاعدام ، ومن حقنا بالطبع أن نرفض ذلك ، لأن طبيعتنا ترفض بعض الجرائم البشعة . مثل الاغتصاب ومثل ترويج الهيروين ..

الجديد فى الأمر أننا نطالب بعقاب (بشع) وهو القتل العلنى ولا نسأل أنفسنا عن الفرق فى هذه الحالة بيننا وبين المجرم ..

إذا كان الأمر متعلقا بالثأر من المجرم فالإعدام يكفى ..

وإذا كان الأمر متعلقا بالردع ، فالإعلان عن تنفيذ الاعدام يكفى ..

أما إذا كان الأمر يتعلق بما هو أكثر ، وهو الاستمتاع بمشاهدة القتل ، وإذا كانت الدعوة للإعدام العلنى قد وجدت هذا الهوى وهذا الصدى فى نفوس الكثيرين ، ومنهم كبار الكتاب ، فلابد من وقفة ، ولابد من موقف ..

أما الوقفة فأقصد بها الاعتراض ، والتعجب ، والأسف ..

وأما الموقف فهو أن أقول لا ..

فى وجه من قالوا نعم ..

فى وجه من يستمتعون بالألم ..

وأنا هنا أتحدث عن نفسى ..

وباليقين .. لا أتحدث من مصر ..

يا قلبى لا تحزن

أصبح للارهاب دولة فهناك الصحف التى تدافع عنه ، وهناك الفلاسفة الذين يبررونه ، وهناك القوى الخارجية التى تدعمه ، وهناك بعض الدعاة الذين يقطعون نصف الطريق إليه ، وهناك التردد الذى يواجه به بعض رموز الاعلام المصرى الموقف ، والنتيجة يمكن اختصارها فى عنوان هذا المقال ، وهو (يا قلبى لا تحزن) ، فجرائم القتل مستمرة ، وجرائم النهب متواصلة ، وجرائم اثارة الفتن الطائفية متواترة ، والقتل الآن لم يعد للمواطنين الآمنين ، مع الاحتياط بالاختفاء بعيدا عن أعين الشرطة ، كما يفعل الأرهابيون فى كل مكان ، بل أصبح جديدا فى جديد كما تقول احدى المطربات .

الجديد الآن هو قتل رجال الشرطة أنفسهم ، ليس ردا على اعتداء ، بل بدءا باعتداء ، وفى مثل هذا لا مجال لحوار أو لأخذ وعطاء ، وإلا فقدنا جميعا نعمة الأمن ، وفقدنا قبل ذلك سلطة الدولة وهيبتها ، وكرامتها ، وكل هذا سوف ننال منه نصيبا مهما تصور البعض منا أنهم بعيدون عنه أو غير مشاركين فيه .

واستشهد المقدم
أحمد علاء الراوى

ولو أنصفنا لقلنا أن الرصاص أصاب صدورنا جميعا ، فالرجل كان يؤدى واجبه ، ولم يكن بينه وبين الجناة ثأر ، وعندما أصابه الرصاص اعطانا درسا بليغا فى أداء الواجب ، فقد توجه بسيارته نحوهم وأصاب

(الموتوسيكل) الذى يحمل الجناة فسقط أحدهم فى الترعة ، وتمكن الاهالى من القبض عليه ، وبعدها سكن الجسد النبيل ، وصعدت الروح إلى بارئها ، وأصاب اليتم ميرا (٨ سنوات) ويسرا (٦ سنوات) ومحمد (٦ شهور) ، وما تزال الطفلتان فى انتظار دخول الأب إلى منزله ومعه فوانيس رمضان ، ولن تدرك واحدة منهن أن رمضان هذا العام ، وكل رمضان قادم ، سوف يخلو من الفوانيس ، فقد انطفأت شعلة الحياة فى جسد الأب ، وسوف يكبر محمد ، وسيسمع القصص عن بطولة والده ، وعن استشهاده ، لكن هذا لن يغنى أبدا عن حنان الأب ، ورعايته ، وسوف تذهب زوجة الشهيد وأمه إلى قاعة المحكمة ، ولست أدرى كيف ستتحمل مشاعرهن رؤية قاتل لم يعرف القتيل ، ولم يقترب منه ، ولم يشاهده إلا حين صدرت إليه التعليمات بالقتل ، وسوف يشاهدن موكب المحامين الأفاضل ، الذين يهتبلون هذه الفرصة ، ليس للاعتذار عن الجريمة ، أو طلب تخفيف الحكم ، بل لالقاء المرافعات الرنانة ، عن بطولة القتلة ، وحقهم الشرعى فى القتل ، وفساد الدولة ، وكفرها وجاهليتها ، وربما تجاوز بعضهم كما يحدث فى العادة ، فقال فى القتيل ما قاله مالك فى الخمر ، وساعتها ستشهد قاعة المحكمة وقائع الاغتيال الثانى للشهيد وهو اغتيال هذه المرة يحميه القانون ويربح منه المحامون ، هم نفس الوجوه التى نعرفها ونراها فى كل مرة والذين يعلنون عن أنفسهم بأنهم محامو التيار الاسلامى ، ولست أعرف على وجه اليقين ما هو سر هذه التسمية ، فالإسلام دين عظيم ، وهو أعظم من أن ينحصر فى تيار أو أن تنسبه جماعة إلى نفسها ، والإسلام أبعد ما يكون عن مثل هذه البشاعة ، والتنظيم الجبان الذى انتمى إليه القاتل يحمل اسما عجيبا هو (تنظيم تكفير الكافر) ، وهو اسم يعكس البلاء الذى نعيشه ، حين يعطى الصبية الجهلاء لأنفسهم حق التكفير ، وحق اصدار الأحكام ، وحق تنفيذها ،

ولعلهم حاولوا الهرب من كراهة الاسلام ورفضه لتكفير المسلم ، فلاذوا بشعار (تكفير الكافر) ، وهم آمنون مطمئنون ، فالدعاة فى منابرنا الاعلامية يكفرون المجتمع بطريقتهم ويهاجمون الدولة بأسلوبهم ، فهذه مظاهر فسق ، وهذه ظواهر خلاعة ، وهذه آيات معصية ، وهذه علامات كفر ، وهذه مصادر دخل آثمة ، والذى يقرأ لهم ويسمع ، يتصور أنهم يقبضون مرتباتهم من دولة أخرى لها مصادر دخل مختلفة ، وأنهم ينالون الشهرة من خلال وسائل إعلام أجنبية لا علاقة لها بدولة الكفر والمعصية ، وأنهم ينتمون لوطن آخر غير مصر ، التى تنفق نحو نصف مليار جنيه سنويا على الأزهر الشريف وحده ، والتى تحتفى بالعلم والعلماء ، والتى بلغ المسلمون فيها من التدين والاقتراب من الله واحترام الأديان حدا لم تبلغه دولة فى المنطقة المحيطة بنا كلها .

وسوف نسمع ما نكره

وأشد ما نكره هو ذلك القول ، الذى يقوله أنصار الارهاب ، دون وجل أو خجل ، وهو أن هؤلاء المتطرفين ، أو الارهابيين ، شباب وديع مؤمن طيب ، أجاد القصد ، وأخطأ الوسيلة ، وأصاب الهدف ، ولم يصب السبيل ، وهو قول سمعناه فى كل مرة ، وفى مواجهة كل جريمة .

سمعناه حين قتل الارهابيون من تنظيم (التذير) ، مدير بنك (إسلامى) فى المنصورة ، ومعه ابنه الصغير البرىء ، ومعه صديقه الذى قاده حتفه إلى زيارته ، وآه لو نجح القتلة فى الهروب بالغنيمة ، وأطلقوا بعدها رصاصة واحدة على مسئول فى الدولة أو فى أجهزتها ، إذن لشاهدنا زفة المحامين من جديد ، وطنطنة بعض صحف المعارضة ، ودفاع بعض الآثمين قلبا ووجدانا عن الآثمين يدا وعدوانا .

لا أقول هذا دون دليل ، فقد بدأ قتلة السادات (نضالهم) بسرقة

وقتل الصاغة الأقباط فى نجع حمادى وشبرا الخيمة ، لكنهم اتبعوا آثامهم بإثم أكبر ، يروق للمشاركين فى الجريمة بالنصيب الأكبر ، وهم المدافعون عن الارهاب باللسان والقلم ، فأصبحوا ابطالا ، ورموزا للجهاد ، وأمثلة للنضال .

شباب طيب إذن ، غاية فى الأمر أنه يسرق .. شباب مؤمن بغير شك لا يضيره أبدا أنه يقتل .. شاب طاهر دون ريب لا يعيبه أنه يمزق الوطن بالفتن .

أما المحامون الذين يبررون فعالهم تحت راية اداء الواجب ، فهم فتية آمنوا بربهم وشيوخ يدافعون عن دينهم ، ومواكب حق تنير الطريق للقتلة ، اللصوص ، المتعصبين .

لا ياسادة

فالارهاب لا ينبع من الصبية ، بقدر ما ينبع من (المعلمين) ، الذين يزينونه سياسيا بعدم إدانته ، وإعلاميا بادانة المجتمع ، وفكريا بإهدار الدستور والقانون ، والبحث عن شرعية بديلة .

والإرهاب يا سادة لا يواجه فقط بالشرطة ، ولا يحاسب فقط بالقانون ، بل يواجه ويحاسب بالرأى العام الذى يجب أن يتكتل ضده ، وأن يتشكل لمواجهته وابحثوا فى أساليب تكوين الرأى العام حتى تضعوا أيديكم على مفتاح المشكلة .

ابحثوا فى الصحف القومية عن بعض المقالات الأسبوعية وبعض الأعمدة اليومية وسوف تكتشفون العجب ، وأنا لست من دعاة المنع أو المصادرة على الفكر ، فموقفى معروف من هذا ، لكنى من دعاة فتح المنابر للآراء المختلفة ، أما أن تفتح الدولة منابرها لدعاة هدمها وتقصرها عليهم ، وأن يتسع صدر الدولة المصرية المدنية ، لمن يدعون أسبوعيا

لشرعية دينية بديلة ، وأن يحتل (اللوبى) المناصر للارهاب مواقعه ، ليس فى بعض مواقع المعارضة وحدها ، بل فى بعض المواقع الاعلامية المؤثرة ، فهذه جريمة فى حق مصر كلها ، سوف نحصدها جميعا ارهابا واغتيالا ونهبا وتمزيقا للوطن .

وأنا اتساءل

ما الذى ينتظره المجتمع حتى يصحو فى حملة لمواجهة هذا الارهاب الشرس .

ماذا بعد قتل رئيس الدولة السابق ؟ .

ماذا بعد قتل رئيس مجلس الشعب السابق ؟ .

ماذا بعد قتل ضباط وجنود الشرطة فى أسيوط وعين شمس والفيوم ؟ .

ماذا بعد سيطرة أنصار الإرهاب على بعض النقابات وبعض نوادى أعضاء هيئة التدريس ؟ .

ماذا بعد الفتن الطائفية التى تتواتر وتتابع سنويا وموسميا ؟ .

هل ننتظر أن يدخلوا علينا البيوت ؟! .

هل بلغ تأثرنا بمحمد عوض فى المسرحية الشهيرة ، أن أصبحنا نردد كلماته .

ينطلق الرصاص ونحن نفكر ونفكر .

تنتهك الحرمات ونحن نفكر ونفكر .

يقتل القادة ونحن نفكر ونفكر .

يغتال رجال الشرطة ونحن نفكر ونفكر .

ثم ينتهز البعض الفرصة ليوسعوا أنصار مواجهة الارهاب هجوما

ونقدا وتشكيكا فى العقيدة ، وتكفيرا فى الاعتقاد ، وتكتمل الصورة فى النهاية بمصادرة كتبهم .

لم تعد الصورة فى حاجة إلى رتوش أو تزويق أو تجميل .

الذين يواجهون الارهاب يحاكمون على آرائهم .

والكتب التى تتصدى للمجرمين تصادر .

ودخول التليفزيون محظور على رموز المواجهة للارهاب ، بل وعلى رموز مناصرة الدولة المدنية ، والدفاع عن الدستور والقانون .

حتى الأحزاب التى تتصدى للمواجهة ، تتعطل الموافقة عليها حتى ييأس أصحابها من الاستمرار ، وينضمون إلى الطابور الذى يفكر ويفكر ، ثم يقرر أن يغير أسلوبه ، فيندفع هادرا وثائرا ، لكى يفكر ويفكر .

وما أسوأ ما نفعله بأنفسنا

نعم ، فنحن أسرى الحكمة البليغة ، بيدى لا بيد عمرو .. أكتب هذا وقلبى يتمزق .

فالاعلام ليس فى يد المتطرفين ، وقد نجح خلال أكثر من خمس عشرة سنة ، فى أن يرسخ فى الاذهان أن الشرعية المدنية ، التى تحتكم للدستور والقانون ، لم تعد صالحة ، وأن الأصلح للجميع هو الشرعية البديلة ، وقد تسلل هذا إلى العقول والقلوب ، وأصبح سندا للارهاب ، ومبررا له .

والتعليم ليس فى يد الجماعات الارهابية ، ومع ذلك يجرؤ البعض على التخلى عن تحية العلم ، وعن الهتاف باسم مصر ، وبعض المدارس تحولت إلى معامل تفريخ للارهاب والارهابيين ، تحت سمع وبصر الدولة .

والقانون فى مصر يمنع نوادى أعضاء هيئة التدريس من العمل

بالسياسة أو الدين ، وهى لا تعمل فى أحدهما فقط ، بل تعمل فى الاثنين معا ، وربما لا تهتم بغيرهما .

والقانون يمنع خطباء المساجد من التحريض السياسى ، وآلاف المساجد تخصصت فى ذلك وبعض أئمتها صبية لا يستطيع الواحد منهم أن ينطق جملة عربية صحيحة لكنه يجيد الحديث عن الكفر والجاهلية والاغتيال وسب الأعراض والتحريض على الدولة والمواطنين .

والنقابات المهنية لم تعد متفرغة لخدمة أبناء المهنة ، لأن هناك ما هو أهم ، وهو مساعدة ثوار أفغانستان وعقد المؤتمرات (لأسلمة العلوم) بعد أن اكتشفت أن العلوم هى الأخرى كافرة ، فالطب كافر ، والهندسة زنديقة والصيدلة فاسقة .

كل هذا يحدث ونحن منشغلون عنه .

هل يعرف القارئ لماذا .

لأننا ، ومعذرة ، مازلنا نفكر ونفكر ، وأرجو ألا يسألنى القارئ عن الحل لأننى منذ أكثر من سبع سنوات وأنا أكتب وأنشر مقالات وكتبا ، أطرح فيها حلولا ومناهج للمواجهة والتصدى ، ويفعل غيرى المثل ولا أحد يسمع ، لأن الجميع منشغلون بشىء آخر .

هل تعرفون ما هو .

لابد أن القارئ هنا سيجيب ، وسيبتسم .

ومعذرة للغضب

فأنا بالفعل غاضب ، وحزين ، وثائر ، وأظن أن الغضب والحزن والثورة لا تحتاج إلى شرح أو توضيح .

لقد دخل الحزن هذا الشهر الى بيت المقدم الشهيد ، وغدا سيدخل بيوتا غيره ، وأمامى الآن مجلدان أصدرتها شركة (المحروسة) وهى

شركة متخصصة فى جمع وتوثيق ما ينشر فى الصحف عن موضوعات محددة ، وقد جمعت أحداث التطرف والارهاب والفتن الطائفية فى عام ١٩٩٠ فشغلت نحو ألف صفحة ضمها مجلدان كبيران ، وكنت أود أن يتاح هذا للقراء جميعا حتى يدرك الجميع ما نعيشه وما نقدم عليه ، وما يدفعنى إلى سؤال كل صاحب ضمير حى .

ماذا سنقول لأولادنا تبريرا لما يحدث أمامنا وما يحدث منا .

هل سنقول لهم ، كان الصبية يقتلون باسم الإسلام فانشغلنا عن مواجهتهم باثبات أن الاسلام لا يبرر القتل .

سيضحكون ملء أشداقهم من غفلتنا وسيرددون ،وهل هذا يحتاج إلى اثبات .

هل سنقول لهم إن بعض الجبناء نجحوا فى اشعال الفتن الطائفية فانشغلنا بالحديث عن سماحة الإسلام .

سيسخرون منا ، وسيسألون ، وهل سماحة الاسلام تحتاج إلى دليل .

هل سنقول لهم إن بعض الجهلة حاربوا العلم والوطنية والوحدة والفن والأدب والثقافة الانسانية الرفيعة ، وأننا اكتشفنا أننا كنا نزرع الأرض لهم بمقالات أسبوعية فى أكبر الصحف والمجلات ، وأننا تصدينا ليس لهم ، بل لمن يتصدون لهم ، وصادرنا كتبهم ، ومنعناهم من أجهزة الاعلام ، حتى لا نثير مشاعر القتلة فيقتلون أكثر ، وحتى لا نستفز اللصوص فيسرقون أكثر ، وحتى لا نثير المتعصبين فيثيرون الفتن أكثر وأكثر .

إن كان هذا يرضى أحدا ، فهو لا يرضى بالقطع ، كاتب هذه السطور .

وليعذرنى القارئ للحزن والغضب والثورة مرة ثانية ، فللمرة الأولى أشعر بقدر من الضيق وربما اليأس بينما سؤال حزين يمزق صدرى ومشاعرى هو .

ماذا ننتظر للمواجهة .
والى متى لا تصبح قضية التصدى للارهاب أولى القضايا .
وكيف نتطوع جميعا بالتخلى عن أسلحتنا فى المواجهة طواعية وبمنتهى المحبة والاشفاق والدبلوماسية ، وهذه كلها كلمات معسولة تخفى حقيقة مشاعرنا ، التى ربما كانت الكراهية مقترنة بالتردد ، والرغبة فى التصدى مقترنة بالتخاذل ، والسعى للمواجهة مقترنا بحسابات لا معنى لها ولا فائدة منها .
فليسفر كل محب للوطن عن وجهه .
وليواجه كل قادر على المواجهة لأن هذا قدره .
وليدق كل صاحب ضمير ناقوس الخطر لأن هذا واجبه .
ولأعترف للقارئ بأننى كتبت عنوان المقال وأنا هادئ .
فلما خضت فيه انفعلت انفعالا لا أندم عليه ، ولهذا استسمح القارىء فى الاعتراف بأننى الآن رافض للعنوان ، ولو قدر لى أن أكتب المقال من جديد لوضعت عنوانا له (يا قلبى احزن) .
نعم .. ياقلبى احزن .
ويا قلم لا تتردد .
ويا شعب واجه .
ويا مصر كونى وطنا للمصريين ، كل المصريين وللشجعان غير المترددين ، وللمواجهين ، وللتنوير وللمتنورين ، وللحضارة وللمتحضرين ، وللدستور وللقوانين ، ومعذرة لهذا الوضوح ، فلا مكان فى المستقبل ، إن كان هناك مستقبل ، للخائفين أو للمترددين ..

حوار حول الدولة المدنية

فرق كبير بين البحث والمحاضرة والمقال الصحفى ، فالأخير لا يحتمل الرجوع للمراجع ، والتوثيق بالمصادر ، وكاتب هذه السطور يحب لأخيه القارئ ما يحب لنفسه ، ولهذا يفضل أن يكون المقال خفيفا رشيقا ، ولا مانع أن يكون موضوعيا وعلميا ، والأفضل من هذا كله أن يكون مرتبطا بواقع حى ، وهذا متاح بالنسبة للعنوان الذى اخترناه ، وهو (الدولة المدنية) ، لأن قضية (مصر بين الدولة المدنية والدولة الدينية) ، كانت محور مناظرتين ساخنتين ، شارك فيهما كاتب هذه السطور ، مدافعا عن الدولة المدنية ، الأولى كانت فى معرض الكتاب الدولى بالقاهرة ، وحضرها أكثر من عشرين ألفا ، والثانية كانت فى نادى المهندسين بالاسكندرية ، وحضرها نحو أربعة آلاف ، توزعوا على خمس قاعات ، احتوت على مكبرات الصوت وشاشات العرض ، وللأسف الشديد لم تحظ المناظرة الثانية بما حظيت به الأولى من تركيز اعلامى ، رغم إنها كانت أكثر سخونة ودسامة وثراء .

الذين اختاروا موقعهم تحت راية الدفاع عن الدولة الدينية ، كانوا فى المناظرة الأولى ، الشيخ الجليل محمد الغزالى الداعية الاسلامى المعروف ، والأستاذ مأمون الهضيبى المتحدث الرسمى باسم الإخوان المسلمين ، والدكتور محمد عمارة الكاتب الاسلامى الشهير ، أما فى المناظرة الثانية ، فقد كانا الدكتور محمد عمارة ، والأستاذ الدكتور محمد سليم العوا ، وهو كاتب إسلامى ومحاضر قدير .

على الجانب الآخر كان المدافعون عن الدولة المدنية فى مناظرة القاهرة هم كاتب هذه السطور ، والدكتور محمد أحمد خلف الله الكاتب الاسلامى المعروف ، أما فى مناظرة الاسكندرية فقد كانوا : كاتب هذه السطور والأستاذ الدكتور فؤاد زكريا أستاذ الفلسفة والمفكر الشهير .

استمرت المناظرة الأولى زهاء ثلاث ساعات ، بينما استمرت الثانية أكثر من أربع ساعات ونصف الساعة ، وتحكم الزحام فى المناظرة الأولى ، إضافة إلى جدة أسلوب المناظرات ، وسخونة أنصار الدولة الدينية ، الذين تنادوا وتداعوا وتدفقوا على معرض الكتاب ، وأشعلوا المشاعر بهتافات ساخنة ، زادها سخونة ما تواترت به الأنباء من الجزائر ، وهو ما انعكس على أداء أنصار الدولة الدينية ، وإن كان واضحا أن المناظرة قد انتهت فى مناخ معاكس تماما ، فقد انعدم الهتاف ، وذابت الحدة ، وسيطر الهدوء على الحاضرين ، وانصرف الجميع وهم يدركون ما لم يدركه البعض فى البداية ، وهو أن أحدا لا يمتلك الصواب المطلق ، ولا الحق المطلق ، وأن لكل طرف حججه ومنطقه ، وأن مساحة الالتقاء أكبر بكثير من مساحة الخلف ، وأن الاسلام ليس طرفا فى الحوار ، فهو لدى الفريقين فى أعلى عليين ، بيد أن الرؤى التى تنطلق منه ، ولا تصطدم به ، تختلف وتتباين وتتعدد وتتحاور وتؤكد ما اقتنع به الجميع : مناظرين وحاضرين ، وهو أن الحوار هو الحل .

* * *

هذا المناخ هو الذى سيطر على مناظرة الاسكندرية ، حيث كان واضحا أن أغلب الحاضرين قد انتقلت اليهم أخبار المناظرة الأولى ، وشاهدوها من خلال شرائط الفيديو ، أو سمعوها من خلال شرائط الكاسيت ، أو قرأوها كاملة على صفحات مجلة أكتوبر ، ولهذا حضروا للانصات ، وأرهفوا اسماعهم لهذا وذاك ، ولم يخطر فى بال أحد منهم أبدا

أن فريقا سوف يصرع الفريق الآخر بالضربة القاضية ، وانتقل هذا كله إلى المتناظرين ، فأفاضوا فى شرح حججهم ، وأسعدوا الحاضرين بصراع فكرى حقيقى ، فما يتصور الحضور أن أحد الفريقين قد أحرز هدفا فى مرمى الطرف الآخر ، حتى يفاجأوا بالكرة قد ارتدت إلى مرمى الطرف المنافس ، ثم إذا بها تعود مسرعة ، ثم ترتد مرة ثانية فى لمح البصر ، وهكذا حتى انتهت المناظرة فى سلام ، وخرج الحاضرون وعلى وجوههم الابتسام ، بينما قبلات المجاملة تطرقع بين المتناظرين ، كأنهم لم يكونوا أطراف حوار ساخن ، مشتعل منذ لحظات .

* * *

هذه صورة أردت ان أنقلها للقراء ، حتى لا ينزلق أحد منهم الى ما انزلق إليه جمهور الحاضرين قبل المناظرة الأولى ، من خلط لأوراق الفكر والدين ، أو صبغ لمنهج فكرى بأنه صواب مطلق ، أو باطل مطلق ، ولعل أيسر سبيل للوقاية من ذلك ، هو طرح ما أكده الجالسون تحت شعار الدولة الدينية ، خلال المناظرتين ، من آراء متباينة ، لكنها تتفق جميعا على إنكار ورفض الدولة الدينية بالمنهج الثيوقراطى (منهج الحكم بالحق الإلهى) ، ورغم أن هذا المنهج يجد توثيقا فى أقوال بعض حكام المسلمين فى التاريخ الاسلامى ، فإن هذه آراء مسلمين ، وهى ليست حجة على الاسلام ، بقدر ما هى حجة على أصحابها ، وفى المقابل فقد اختلفت آراء الفريق المشار إليه فى التصورات التفصيلية لما يدعون اليه ، فبينما تساءل الشيخ الغزالى عن المقصود بالدولة الدينية ، وذكر أنه يفهم منها أنها الدولة الاسلامية ، دون خوض فى التفصيلات ، أعلن المستشار الهضيبى قبوله بالدولة المدنية كاطار مع تحفظ أكد عليه ، وهو تطبيق التشريعات الاسلامية ، بينما اطلق الدكتور محمد عمارة شعارا مدويا نصه (بديل الدولة الدينية هو الدولة اللادينية ، وبديل الدولة المدنية هو الدولة

العسكرية) ، وهو شعار يضع المستمع فى حيرة ، فالنصف الأول منه يدعو أى عاقل إلى تجنب بديل الدولة الدينية ، لأنها فى تقدير الدكتور عمارة دولة لا دينية ، أو دولة كافرة ، بينما النصف الثانى من الشعار يدفع المستمع إلى قبول الدولة المدنية ، لأن بديلها وهو الدولة العسكرية مرفوض ابتداء .

النتيجة إذن ، اذا أخذنا بهذا الشعار ، هو القبول بالدولة الدينية والدولة المدنية معا ، وهو ما أظن أن الدكتور عمارة لم يوضحه بالدرجة الكافية فى المناظرة الأولى ، وكان من حظ الجميع أنه قد اتيحت له الفرصة لهذا التوضيح فى المناظرة الثانية ، حيث أوضح أن الدولة الاسلامية فى تقديره ، التى تحظى بقبوله وقبول الكثيرين من تياره السياسى ، هى الدولة (المدنية) حكما والدينية (تشريعا) وأظن أنه بهذا التوضيح تتكامل ملامح التصور لدى فريق الدولة الدينية ، وأظن أن الأستاذ فهمى هويدى قد أكد على هذه الفهم ، خلال عدة مقالات نشرها حول الموضوع فى جريدة الأهرام .

* * *

من خلال هذا التصور يبدأ الخلاف الحقيقى بين الفريقين ، حيث يرى فريق الدولة المدنية ، الذى أتشرف بالانتساب إليه ، أنه لا خلاف حول الدين ، وأن الخلاف يدور حول مفهوم الدولة ، وبالتحديد حول مرجعيتها ، التى لا بد أن تنحصر تحديدا فى الدستور والقانون ، اللذين يضعهما البشر ، لصالح البشر ، وعلكان تغييرهما إذا تغيرت المصالح والظروف والحادثات ، وإذا كانت التشريعات الوضعية تتعرض للتفصيلات ، فإن الدستور يتعرض لما هو أهم فى تقديرنا ، وأسبق فى قائمة الأولويات ، وهو نظام الحكم ، الذى نحسب أن دعاة الدولة الدينية ، لم يقدموا فيه اجتهادا مقنعا ، ولم يحسموا خلافاتهم حوله ، ولم

يستقروا بعد على مفهوم الشورى ، وهل هي ملزمة أو معلمة ؟ وحول الديموقراطية ، وهل هي كفر بواح كما يدعى البعض ، أو أنها تعكس روح الاسلام الحق ، كما يرى فريق آخر من التيار السياسي الاسلامي ، أو أن لها وعليها كما يرى فريق ثالث ؟ وما هو البديل تحديدا حتى نتحاور حوله ، ونقبل به ، أو نرفضه ، ونقتنع به أو نعترض عليه ؟ وحول الحاكم ، وهل يجب أن يكون قرشيا ، كما يؤكد البعض ، أو أنه يولى الأصلح ، ولو كان عبدا رأسه زبيبة ؟ وحول أسلوب تولية الحاكم ، وهل هو انتخاب أهل الحل والعقد كما حدث فى انتخاب أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أو التولية بتوصية من الخليفة السابق فى خطاب يبايع عليه المسلمون وهو مغلق ، كما حدث فى تولية عمر رضى الله عنه ، أو اختيار مجموعة منتقاة يختارون بدورهم الخليفة ، كما حدث فى انتخاب الستة الذين اختارهم عمر ، للخليفة عثمان رضى الله عنه ، أو بيعة بعض الأمصار كما حدث فى خلافة الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أو أن التولية جائزة بحد السيف ، كما حدث فى تولية معاوية ، أو بالوراثة كما حدث فى تولية يزيد بن معاوية ، أو أن هذه جميعا اختيارات ، لنا الأخذ بها جميعا ، والاختيار منها حسب الظروف والملابسات ؟ وإذا كان هذا منطقا مقبولا فأى هذه الاختيارات أوفق وأنسب ، أو أن هذه كلها كانت اجتهادات فقهاء المسلمين لعصرهم ، ولهم أن يجتهدوا ، لعصرنا ، كما اجتهد السابقون ؟ وإذا كان الأمر كذلك فأين ياترى هذا الاجتهاد ؟.

تلك أمور لابد أن يجمع عليها الفريق المدافع عن الدولة الدينية ، ولابد أن يكون واضحا لديهم ولدينا موقفهم من حرية الفكر، ومن حرية الاعتقاد ، وهل هذه الحريات مطلقة ؟ وإذا لم تكن فما هى القيود تحديدا ؟ وأى الآراء والاجتهادات هى الراجحة فى معاملة غير المسلمين ؟ وأيها المرجوح ؟ وهل يا ترى تندرج هذه الأمور جميعا ضمن الجانب الدينى فى

الدولة الإسلامية وهو جانب التشريع ، أو فى الجانب المدنى ، وهو جانب السلطة ؟.

أمثال هذه القضايا العامة محل خلاف وجدل شديدين من أنصار الدولة الدينية - أو الإسلامية - وهم لا يتعرضون لها إلا على سبيل الرأى الشخصى ، أما الرأى السياسى ، الذى يجمع عليه أنصار التيارات السياسية ، وبعضها يضم الآلاف المؤلفة ضمن فريقه أو جماعته ، فهو غائب عن الساحة ، وبدهى أن مثل هذه الآراء ، إن كانت فى صلب الجانب التشريعى وبالتالى (الدينى) كما يذكرون ، فلابد أن تكون موثقة بالنص ، أو الاجماع ، أو القياس فى أقل القليل . كما لابد أن تكون محددة ، وبدونها لا يستقيم الحديث عن الدولة ، سواء سميت بالدينية أو الإسلامية ، فليس معقولا أن مجرد تطبيق بعض التشريعات الجنائية ، هو الذى يصبغ الدولة بصبغة الدين أو يحجب عنها هذه الصفة ، خاصة أن مجال الاجتهاد واسع فى تلك القضايا التشريعية ، إضافة إلى أن المتاح منها حاليا ، لا يخرج عن نطاق اجتهادات فقهاء القرنين الثانى والثالث الهجريين لعصرهم ، وهى اجتهادات يتناقض بعضها مع العلم ، وبعضها الآخر مع العقل ،وبعضها الثالث مع ظروف العصر ومواءماته وأعرافه .

* * *

لا نريد الخوض التفصيلى فى هذه القضايا ، وإن كنا قد خضنا بالفعل فيها كتبنا وحاضرنا وناظرنا ، بيد أننا نلفت النظر إلى قضية ركزنا عليها ، وما نزال نركز ، وهى ضرورة أن يتوافر لذى أنصار الدولة الدينية برنامج سياسى تفصيلى ، ونجزم أن بذل الجهد فى هذا الاتجاه سوف يحسم كثيرا من الأمور ، ويزيل كثيرا من الأوهام حول الخلافات الجذرية العميقة ، وهى ليست كذلك بالقطع .

لقد تحاورنا فى الاسكندرية حول تطبيق الشريعة ، وكانت وجهة نظر

كاتب هذه السطور أن أحدا من أنصار الدولة المدنية لا يحجر على السعى لذلك بالأسلوب الديمقراطي والتشريعى المعروف ، بيد أن روح الاسلام تأبى البدء بالوجه العقابى ، فمن السهل ان نرجم الزناة أو أن نجلدهم فى الميادين غدا ، لكن روح الاسلام تدعونا جميعا إلى البدء بسد الذرائع ، وفى هذا نلتقى ، فليس بخاف على أحد أن موانع الزواج كثيرة ، ومنها البطالة ، ومنها انخفاض مستوى الدخول ، ومنها وربما كان على رأسها أزمة الاسكان ، ومن أجل هذا نطالب بالبرنامج السياسى ، الذى سيتعرض بالحتم لحل مشكلة الإسكان المزمنة ، وساعتها ، وهذا ما ذكرت ، سوف يكتشف الفريق الآخر فى الحوار ، أنه لا يوجد مبنى يؤسس على المذهب الشافعى ، أو مبنى يؤسس على مذهب ابن حنبل ، وان المبانى لا تقام على قواعد الايمان ، ولكن على القواعد الخرسانية ، مع كل الاحترام للأئمة ، وللإيمان الذى موقعه القلب ، وساعتها أيضا سوف يكتشف الفريق الآخر أنه قريب من فريقنا ، وأنه لا خلاف بيننا على عكس ما يبدو فى الظاهر .

لا أريد أن أستطرد فى الحديث ، وأحسب أن القارئ فى حاجة إلى تأكيد منا على الحقائق التالية :

أولا :

إن الدولة المدنية لا تحتاج إلى تعريف بقدر ما تحتاج إلى وصف أو توصيف ، فمصر على سبيل المثال دولة مدنية ، ونحن نصفها بذلك لكونها تستند فى نظام الحكم وتفصيلاته ، إلى الدستور والقوانين (الوضعية) أى التى يضعها البشر لأنفسهم ، وتحقيقا لمصالحهم ، ويملكون تغييرها بتغير المصالح .

ثانيا :

إن المرجعية (المدنية) لا تتجاهل المرجعية الدينية ولا تقفز فوقها ، بل كثيرا ما تلتقى معها ، اذا تحقق الاجتهاد المستنير الذى يوائم بين النصوص الثابتة ومتغيرات العصر ، ومثال ذلك فى مصر ، قوانين الأحوال الشخصية التى لا يعترض أحد على مرجعيتها الدينية .

ثالثا :

إن الدولة الدينية ليست فى حاجة إلى تعريف ، بقدر ما هى فى حاجة إلى وصف أو توصيف هى الأخرى ، فهى ليست وهما أو خيالا أو حلما بل تجربة تاريخية طويلة ، استمرت زهاء ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، ونحسب أن لا أحد يختلف حول أن العبرة بالخواتيم ، وأن ما انتهت إليه هذه التجربة ، كان وبالا على المسلمين ، بل نحسب أيضا أن هذه الدولة ينطبق عليها قول الشيخ الغزالى (إنها بعد فترة حكم الراشدين ، قد فقدت صفة الرشد) وما نظن أنها على مدى هذه السنوات الطوال ، عدا سنوات قليلة ونادرة ، كانت نموذجا يحتذى ، أو مثالا يستحب تكراره ، خاصة إذا قومناها من زاوية استبداد الحكم وحقوق الرعية وحقوق الانسان .

رابعا :

يبدو أن هذا التاريخ الطويل ، هو الذى دفع من تحاوروا معنا إلى الخروج بهذه القاعدة الاجتهادية (مدنية السلطة أو الحكم ، ودينية التشريع) ، لأنهم لو ذكروا عبارة (دينية السلطة أو الحكم) لتناقض هذا مع سلوك حكام المسلمين فى الأغلبية الغالبة من تاريخهم ، ولعل هذا يحصر الخلاف حول التشريع ، وهو خلاف لا نرى بأسا من الخوض فيه

فى مجال آخر ، وحوار طويل ممتد ، بيد أننا نلفت النظر إلى أن هناك ما هو أهم ، وهو نظام الحكم (الأيديولوجية السياسية) والبرنامج السياسى لحل المشكلات ، وبهما يتحدد شكل الدولة وأسلوب ادائها السياسى ، وتظل التشريعات بعد ذلك ضمن ما نسميه (التفصيلات) أو إن شئنا الدقة (تفصيلات التفصيلات) ..

نحن هنا نتمنى أن يكون التركيز على الأصول قبل الفروع ، وعلى الأسس قبل التفريعات .

خامسا :

ما نزال نعتقد أن بعض الأسئلة ما تزال حائرة ، وتحتاج إلى اجتهاد حول إجاباتها ، ومنها التساؤل حول تقويم التجارب المعاصرة للحكومات الإسلامية ، ومنها التساؤل أيضا حول نظام الحكم ، وهل هو اختيار الأغلبية أو أنه قضية اتفاق عام بين الجميع أغلبية وأقلية ؟ وهو ما نراه ونعتقده ، خاصة أن المسلمين وإن كانوا أغلبية فى أغلب بلادنا فإنهم أقلية فى بلاد أخرى ، ومازلنا نتذكر مقالا للأستاذ فهمى هويدى يرى فيه أسلمة الحكم عندما يكون المسلمون أغلبية ، وعلمانية الحكم عندما يكونون أقلية ، ونظن أن هذا المقياس المزدوج لا يصمد للتحليل المنطقى ، لأنه يحوى ضمنا الاعتراف بضمان علمانية الحكم لحقوق الأقليات ، وهو ما لا نظن أن اجتهادات فقهاء الدولة الدينية قد اتفقت حوله ، ومنها التساؤل أيضا عن طبيعة العصر ، وثقافته التى تكفلت وسائل الاتصال الحديثة بنشرها ، وهل تتسق هذه الثقافة وما تحمله من قيم حضارية ، أبرزها حقوق الإنسان والديموقراطية ، مع التصورات التى يقدمها أنصار الحل الدينى ، التى لم تحقق حتى الآن فى تقديرنا مواءمة حقيقية بين ما يدعون إليه ، وما تدعو إليه هذه القيم ، التى هى فى تقديرنا

لا تختلف مع جوهر الاسلام ومقاصده ، بيد أنها تحتاج إلى اجتهاد مستنير ، نظن أن الساحة لم تتسع له بعد ، خاصة أننا لم نسمع بعد ، ما يشفي صدور قوم مؤمنين ، بالدين والوطن معا .

سادسا :

يبدو لنا من خلال ما سبق ، أن الفريق الذى نختلف معه قد شغل نفسه بالشعارات أكثر مما شغل نفسه بالاجتهاد ، وأنه يرهقنا برمى الكرة إلى ملعبنا مغلفة بشعارات عامة ، واتهامات مفزعة ، وسيوف إرهاب فكرى مشرعة ، ولن يغنيه هذا ابدا عن اجتهادات تفصيلية مستنيرة ، وعن اجتماع على كلمة سواء ، وعلى المجتهدين أن يبدأوا بصفوفهم ، ويجمعوا كلمة تياراتهم حول آرائهم ، بدلا من رمى خلافاتهم إلى ساحتنا ، ولعل القارئ يعذرنا إذا اعترفنا بأننا فى حيرة حقيقية ، حيث لا ندرى أى الأطراف أولى بالرد ؟ القلة القليلة التى تخرج علينا بمعسول الكلام ، ومتقدم القول ، أم الكثرة الكاثرة ممن يشرعون السيوف ويرهبون باتهامات التكفير المسبقة ، ويهدرون أمن الوطن والمواطنين ؟ ولعله يعذرنا أكثر إذا أدرك ما ندركه ، وهو أن الطرفين ركبوا السهل ، ولم يرهقوا أنفسهم بالتفصيلات ، وهو ما نحزن له ونفزع ، وندعو الله أن يوفقهم للخروج منه ، حتى نتفق على كلمة سواء .

فصل الخطاب اذن أن يوحد الفريق المناهض لنا صفوفه ، وأن يجمع كلمته على تصور محدد ، وأن يجتهد بما يمليه عليه واجبه نحو دينه ووطنه ، وأن يحدد لنا تفصيلات ما يدعو إليه ، حتى يحاورنا على بينة ، وأن يحدد لنا أيضا تفصيلات ما يختلف حوله فى الدولة المدنية ، حتى نحاوره على بينة ، وأن يدرك فى النهاية حقيقة لا مجال للطعن فيها أو إنكارها ، وهى أن هذا الحوار ذاته ، ثمرة من ثمار الدولة المدنية ..

لهذه الأسباب يتهمون ليبيا

هل صحيح أن الولايات المتحدة تتعقب القوى العربية (القومية) واحدة إثر واحدة ، وقد بدأت بالعراق . وهاهى ذى تتهم ليبيا ، وتحاصرها استكمالا لمخطط مسبق مدروس ؟

هل صحيح أنها حرب (صليبية) ضد العالم الاسلامى ؟

هل صحيح أن مجلس الأمن أصبح ألعوبة فى يد القوى الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة ، وأنه ينفذ أوامرها دون مناقشة . ودون أدلة . ودون أسباب ؟

هل صحيح أن اتهام ليبيا بتفجير الطائرتين ، مجرد (فبركة) أجهزة إعلام وأجهزة استخبارات ، وأنه لا يوجد دليل حقيقى على هذا الاتهام ؟

هل صحيح أن الرأى العام العربى شريك فى المؤامرة بالصمت والتأييد المشبوه ، انسياقا وراء رأى قياداته ، وأجهزة إعلامه دون دليل مستند إليه ؟

وكيف ياترى تشكل هذا الرأى العام بحيث أصبح كله ضد ليبيا . ومع اتخاذ أعنف الاجراءات ضدها ، وهو أمر لم يحدث فى حرب الخليج ، حيث كان لصدام حسين أنصار وللحرب أعداء ، وللحصار معارضون حتى لحظة بدء الحرب ؟

جميع هذه الأسئلة مشروعة ، ونقطة البدء هى الإجابة عنها أن نضع القارئ العربى أمام مذكرات الاتهام التفصيلية ، كما قدمت للرأى العام

العربي والعالمى ، وبعد ذلك سوف تكون اجابة القارئ عن الأسئلة واضحة وكاملة وموضوعية ..

لابد أن يتعرف القارئ المصرى والعربي على تفصيلات ثلاث وثائق الأولى هى نص قرارات هيئة المحلفين الفيدرالية العليا بالولايات المتحدةالأمريكية والثانية هى تفصيلات المؤتمر الصحفى الذى عقده النائب العام الأمريكى (بار) والثالثة هى مذكرة الأسئلة والاجابات التي وجهت لريتشارد بوتشر المتحدث باسم الخارجية الأمريكية حول اتهامات لوكيربي يوم ١٤ نوفمبر ١٩٩١ . ولحسن الحظ فقد صدر أخيرا كتاب اسمه (تفجير الطائرة الأمريكية) للكاتب مدحت فؤاد ، أصدره المكتب العربي للمعارف وهو يشمل تفصيلات هذه الوثائق الثلاث ..

فلنعتذر أولا للقارئ لأن دورنا هنا سوف يقتصر على النقل الدقيق الأمين لهذه الوثائق الواردة فى الكتاب . وسوف يكتشف القارئ معنا أن هذا هو أقصر الطرق للاجابة عن الأسئلة السابقة ، وعن غيرها من الأسئلة التى كانت ، ومازال حائرة ، ولعله يتساءل عن علة تقصير أجهزة الاعلام العربية هى نقل هذه الوثائق إلى الرأى العام العربي ، ولو من باب العلم بالشيء ..

ترجمة اتهام هيئة المحلفين الفيدرالية العليا

إليكم نص الاتهام الذى سلمته إلينا هيئةالمحلفين الفيدرالية الأمريكية العليا فى ١٤ نوفمبر حول تورط اثنين من عملاء المخابرات الليبية فى تفجير طائرة بأن امريكان رحلة رقم ١٠٣ فوق لوكربي باسكتدلندا (فى ديسمبر ١٩٨٨) .

محكمةالولايات المتحدة
الجزئية التابعة لمقاطعة كولومبيا
الاسم الحقيقى والأسماء المستعارة

أحمد خليفة عبد الصمد / الأمين خليفة فهيمة / الأمين فهيمة / السيد / الأمين .

الاتهام :

* خرق القوانين رقم (مكررة) .

* تدمير طائرةمدنية وتدمير مركبة تستخدم فى التجارة الخارجية ، باستخدام وسائل تفجير بغرض قتل رعايا الولايات المتحدة الأمريكية بالمساعدة والتحريض .

الاتهام

توجه هيئة المحلفين العليا الاتهامات التالية :

أولا : مقدمة :

نصوص هذه التهمة سارية المفعول فى كل الأوقات ما لم ينص على غير ذلك :

١ - تقع الجماهيرية الليبية العربيةالاشتراكية العظمى (التى يشار إليها هنا بلفظ ليبيا) على ساحل البحر المتوسط لشمال أفريقيا .

٢ - منظمة الجوهرة الأمنية والتى يشار إليها هنا بالاختصار (جى اس أو) هى وكالة المخابرات الليبية .

٣ - تنقسم (جى اس أو) إلى إدارات وأقسام مختلفة بما فيها الإدارة التقنية (أو الفنية) .

٤ - تضم مسئوليات الادارة الفنية مساعدةالإدارات الآخرى داخل (جى أس أو) فى تطوير المعدات التكنولوجية وتمد علميات (جى اس أو) داخل وخارج ليبيا بالمساعدة التكنولوجيةاللازمة .

٥ - منذ ١٩٨٤ - ١٩٨٥ شغل سيد رشيد كيشة (يشار اليه باسم سيد رشيد) منصب مساعد مدير الادارة ، وقد طلب من شركة سويسرية . مستر ايه بولير أن تقوم بتطوير عدادات زمنية لليبيين .

٦ - منذ تاريخ ١٩٨٥ إلى حوالى الأول من يناير ١٩٨٧ شغل سيد رشيد منصب مدير إدارة العمليات فى منظمة (جى أس أو) .

٧ - انقسمت إدارة العمليات إلى عدة أقسام تضم قسم أمن الخطوط الجوية .

٨ - كان قسم أمن الخطوط الجوية مسئولا عن المهام التالية .

(أ) تقديم وتوفير الأمن المادى بشركة الخطوط الجوية الليبية العربية (والتى سنشير اليها بالاختصار أأ) بما فيها أمن الطائرات والركاب فى الرحلات الداخلية والخارجية .

(ب) الاشراف على تغطية مواقع عمل ضباط عمليات المخابرات التابعة لـ جى اس أو كموظفين فى شركة الخطوط الجوية الليبية فى دول مختلفة ومنها جمهورية مالطا .

٩ - خلال الوقت الذى شغل فيه سيد رشيد منصب مدير إدارة العمليات كان عبد الباسط على المجراحى رئيس قسم أمن الخطوط الجوية .

١٠ - شغل عز الدين الهنشارى (الذى سنشير اليه باسم الهنشارى) عدة مناصب يشار إليها فى هذا النص ، وهى : وزير النقل الليبى . وزير العدل ، الأمين العام للجنة العدل الشعبية فى ليبيا ، مدير ومساعد مدير ادارة الأمن المركزى فى منظمة جى اس أو .

١١ - منذ بداية ١٩٨٥ حتى ١٩٨٦ تلقى المنشارى أو استقبل عدد عشرين عدادا زمنيا ميقاتيا لصالح جى اس أو وكانت هذه العدادات من موديل ام . اس . تى - ١٣ ولها القدرة على بدء تشغيل جهاز تفجير وقامت بتصنيع هذه الأجهزة شركة ميسترايه بولير السويسرية .

١٢ - وشركة « ميستر ايه بولير » المحدودة لأجهزة الاتصالات تقع فى زيورخ بسويسرا ولها علاقات عمل قوية مع عناصر العسكرية الليبية وجى اس أو كشركة مصنعة وموردة للمعدات التكنولوجية .

١٣ - قامت شركة (ايه . بى . اتش) بتأجير مكتب فى زيورخ من الباطن من شركة « ميستر ايه بولير » .

١٤ - اشترك بدرى حسن - وهو أحد المواطنين الليبيين - مع عبد الباسط فى نشاطات شركة (ايه بى اتش) فى زيورخ .

١٥- قامت منظمة الجوهرة فى أوقات مختلفة من عام ١٩٨٨ بإصدار نوع من العبوات الناسفة يحتوى على المادة (أر . دى . اكس) ، (بى . اى . تى . ان) وكبسولة انفجار كهربائية وفتيل تفجير وعداد ميقاتى من نوع ام اس تى - ١٣ له المقدرة على بدء الانفجار فى وقت تال محدد سلفا وقد أمدت (جى اس أو) عددا من عملائها بهذه العبوات الناسفة للقيام بعمليات إرهابية خارج ليبيا ومنها جمهورية السنغال .

١٦ - كانت الخطوط الجوية الليبية العربية هى الخطوط الجوية الوطنية لليبيا ، وقامت جى اس أو باستخدامها لتسهيل أعمالها الإرهابية .

١٧ - كانت خطوط طيران مالطا - وهى الخطوط الوطنية لجمهورية مالطا - هى وكيل المعاملات لخطوط الطيران الليبية من وإلى مطار لوكا بمالطا ، وعلى ذلك تقوم خطوط الطيران الليبية باستخدام بطاقات الأمتعة المميزة لشركة طيران مالطا .

١٨ - كان أحد ممثلى خطوط الطيران الليبية يقوم بمساعدة موظفى طيران مالطا فى ترتيب أوضاع المسافرين والأمتعة على متن طائرات الخطوط الليبية .

١٩ - تم استخدام المتهم الأمين فهيمة - وهو أحد رعايا ليبيا .. فى عدة مناصب للتغطية لصالح عمليات (جى اس أو) ومنها مدير محطة الخطوط الليبية وممثلها فى مطار لوكا بمالطا .

٢٠ - كان من حق المتهم الأمين خليفة استخدام البطاقات المميزة لشركة طيران مالطا ، والحق فى تنظيم الركاب بالأمتعة على طائرات الخطوط الجوية .

٢١ - قامت منظمة جى اس أو باستخدام المتهم عبد الباسط المجراحى - وهو ليبى - فى عدة مناصب منها رئيس قسم أمن الخطوط الجوية وقسم العمليات ، وعلى ذلك كان ملما بإجراءات أمن الخطوط الجوية .

٢٢ - فى يوم ٢١ ديسمبر عام ١٩٨٨ بين الساعة ٨٥٠ و ٩٥٠ (بتوقيت أوروبا المركزى) كانت طائرة الخطوط الجوية الليبية رحلة رقم (ال . ١٤٧) المتوجهة إلى طرابلس - والتى كان على متنها المتهم عبد الباسط - فى أرض مطار لوكا بمالطا ، بينما كانت طائرة خطوط طيران مالطا رحلة رقم كى ام « ١٨٠ » المتوجهة إلى فرانكفورت بألمانيا موجودة أيضا فى أرض المطار بين الساعة ٨١٥ و ٩١٥ (بتوقيت أوروبا المركزى) .

٢٣ - فى ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ وصلت شركة طيران مالطا كى ام « ١٨٠ » إلى مطار فرانكفورت بألمانيا فى حوالى الساعة ١٢٥٠ (بتوقيت أوروبا المركزى) تقريبا قادمة من مطار لوكا .

٢٤ - فى ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ حوالى الساعة ١٦٠٠ اقلعت طائرة بان

امريكان رحلة ١٠٣ ألفا من مطار فرانكفورت بعد أن قامت بخدمة توصيلية إلى مطار هيثرو بلندن وطائرة بان امريكان ١٠٣ وذلك بنقل أمتعة من طائرة خطوط مالطا رقم كى ام « ١٨٠ » .

٢٥ - فى ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ بين الساعة ١٧٤٠ و ١٨٠٧ تم نقل الأمتعة القادمة من فرانكفورت من على متن الطائرة بان امريكان ١٠٣ الفا إلى الطائرة بان امريكان ١٠٣ وتحمل رقم (ان ٧٣١ بى ايه) وجرى النقل فى مطار هيثرو بلندن .

٢٦ - كانت شركة خطوط بان امريكان ورلد اير وايز مملوكة لاحدى المؤسسات العاملة فى ظل قوانين الولايات المتحدة الامريكية ومسجلة فى القسم رقم ٢٠ بند ٤٩ من كود الولايات المتحدة . وبموجب هذا التسجيل تقوم الشركة بإرسال طائرات للقيام برحلات تجارية بين الولايات المتحدة ودول أخرى ، وتم توثيق الطائرات العاملة على شركة خطوط بان امريكان تحت قوانين مقاطعة نيويورك .

٢٧ - كانت طائرة شركة بان امريكان التى تحمل رقم (ان ٧٣٩ بى ايه) طائرة مدنية تابعة للولايات المتحدة ومسجلة لدى إدارة الطيران الفيدرالية تحت بند ٤٩ (يو اس سى) قسم ١٤٠١ وتعمل فى نطاق سلطة الولايات المتحدة الأمريكية القضائية الخاصة بتشغيل الطائرات الخاصة .

٢٨ - فى ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ كانت طائرة بان امريكان رقم ١٠٣ فى رحلة طيران تجارية خارجية بين مطار هيثرو بلندن فى المملكة المتحدة ومطار جون كيندى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

٢٩ - فى يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ قامت طائرة بان امريكان ١٠٣ بحمل ٢٥٩ شخصا (٢٤٣ راكبا و ١٦ طاقم الطائرة) وهم رعايا الدول التالية : الولايات المتحدة ، المملكة المتحدة وايرلندا الشمالية ،

سويسرا ، فرنسا ، كندا اسرائيل ، الارجنتين ، السويد ، ايرلندا ، ايطاليا ، المجر ، جنوب أفريقيا ، المانيا ، أسبانيا ، جاميكا ، الفلبين ، الهند ، بلجيكا ، ترينيداد ، اليابان ، بوليفيا .

٣٠ - فى ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ حوالى الساعة ٧,٠٣ مساء بتوقيت جرنتش انشطرت طائرة بان امريكان ١٠٣ فوق الأراضى الاسكتلندية وهى على ارتفاع ٣١ ألف قدم نتيجة لاشتعال عبوةناسفة فى حاوية الشحن الأمامية للطائرة .

٣١ - نتيجة للانفجار تحطمت طائرة بان امريكان ١٠٣ وسقطت على الأرض ولقى جميع الركاب الـ ٢٥٩ مصرعهم إلى جانب ١١ شخصا كانوا يقيمون فى مدينة لوكربى الاسكتلندية .

المؤامرة

٣٢ - بداية من صيف ١٩٨٥ حتى يوم صدور هذا الاتهام ، قام المتهمان عبد الباسط والأمين فهيمة إلى جانب آخرين غير معروفى الهوية لدى هيئة المحلفين العليا ، قاما بإرادتهما وبشكل غير قانونى وهما على معرفة تامة ودراية ، بالتآمر على القيام بأعمال إرهابية ضد الولايات المتحدة الأمريكية ورعاياها ، وذلك داخل حدود كل من البلاد التالية : ليبيا وسويسرا ومالطا وألمانيا والمملكة المتحدة وأماكن أخرى خارج الولايات المتحدة .

٣٣ - لقد كان جزءا من المؤامرة أن يقوم المتهمان والمتآمرون معهما بوضع عبوة ناسفة عن عمد على متن طائرة بان امريكان ١٠٣ وهى طائرة تعمل فى نطاق سلطة الولايات المتحدة القضائية وهى طائرة مدنية تستخدم وتعمل عبر البحار فى الرحلات التجارية الخارجية طبقا للقانون ١٨ من دستور الولايات المتحدة قسم ٣٢ (أ) (٢) و ٢ .

٣٤ - وكان جزءا آخر من المؤامرة أن يقوم المتهمان والمتآمرون معهما بإحداث عطل وتدمير طائرة بان امريكان بواسطة تفجير عبوت ناسفة .

٣٥ - وقد تعمد المتهمان أن يقوما بتدمير الطائرة بان امريكان باستخدام عبوة ناسفة ومركبة تستخدم فى التجارة الخارجية ، وهو عمل يؤثر على التجارة الخارجية ويعد خرقا للقانون ١٨ من دستور الولايات المتحدة قسم ٨٤٤ (أ) و ٢ .

٣٦ - تعمد المتهمان والمتآمرون معهما أن يقتلوا رعايا الولايات المتحدة أينما يوجدون خارج البلاد ويعتبر هذا القتل عمدا طبقا للقسم ١١١١ (أ) من المادة ١٨ من دستور الولايات المتحدة وخرقا للقانون ١٨ من دستور الولايات المتحدة أقسام ٢٣٣١ (أ) و٢ .

٣٧ - تعمد المتهمان إخفاء تورط منظمة الجوهرة الأمنية الليبية فى أعمال إرهابية ضد الولايات المتحدة ورعاياها .

الطرق والوسائل التى استخدمها المتآمرون لتعزيز أهداف المؤامرة

٣٨ - من الطرق والوسائل التى استخدمها المتآمرون لتعزيز أهداف مؤامرتهم مايلى :

(أ) استخدم المتهمان - بوصفهما ضابطين وعميلين لـ (جى اس أو) - المصادر والتسهيلات المتاحة لدولة ليبيا ، بما فيها جى اس أو لتنفيذ مخططها لتدمير طائرة بان امريكان باستخدام عبوة ناسفة ولقتل الركاب على متنها .

(ب) قام المتهمان بتركيب عبوة ناسفة معدلة مكونة من متفجرات بلاستيكية تحتوى على مادى (أر دى اكس ، بى . أى . تى . ان) وميقات زمنى من نوع ام - اس تى - ١٣ قادر على بدء التفجير فى وقت محدد سلفا وتم تصنيعه فى شركة ميستر ايه بولير السويسرية خصيصا

ـ (جى اس أو) خلال الفترة من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٦ بناء على طلب رشيد والمنشارى .

(جـ) قام المتهمان والمتآمرون معهما بوضع جهاز راديو توشيبا داخل حقيبة سامسونايت ٤٠٠٠ بنية اللون .

(د) تعمد المتهمان والمتآمرون وضع الحقيبة فى غلاف من قماش يباع فى مالطا ليضفوا عليها مظهر حقيبة السفر العادية .

(هـ) تعمد المتهمان وضع الحقيبة وما تحويه من العبوات الناسفة ضمن أمتعة الركاب فى مطار لوكا بجمهورية مالطا .

(و) استخدم المتهمان هويات مزيفة متباينة للدخول إلى مالطا ودول آخرى تم تنفيذ المؤامرة داخلها .

(ز) استغل المتهمان معلوماتهما وحقهما كموظفين فى شركة الخطوط الليبية لمراوغة الجمارك المالطية وسلطات أمن مطار لوكا وأماكن أخرى ، وقاما باستغلال العلامات المميزة لخطوط طيران مالطا لتمرير الحقيبة التى تحمل العبوة الناسفة .

(ح) تعمد المتهمان والمتآمرون معهما وضع الحقيبة التى تحتوى العبوة الناسفة داخل مقصورة طائرة خطوط طيران مالطا رقم كى ام -١٨٠ فى مطار لوكا بمالطا وتعمدوا نقل نفس الحقيبة من الطائرة المالطية إلى طائرة بان امريكان ١٠٣ ألفا من مطار فرانكفورت بألمانيا ثم تنتقل ثانية إلى طائرة بان امريكان ١٠٣ فى مطار هيثرو بلندن المملكة المتحدة ، كما تعمدوا إحداث التفجير فى العبوة الناسفة اثناء رحلة طيران طائرة بان امريكان ١٠٣ إلى الولايات المتحدة مما أدى إلى تدميرها وقتل ٢٧٠ شخصا على متنها وعلى الأرض حين سقوطها .

أعمال علنيـة

٣٩ - من أجل تدعيم المؤامرة وصولا لتحقيق أهدافها تم ارتكاب الأعمال والأفعال العلنية التالية فى ليبيا وسويسرا ومالطا والمانيا والمملكة المتحدة وأماكن أخرى :

١ - فى حوالى بداية صيف ١٩٨٨ قام الأمين فهيمة بتخزين كميات من المتفجرات فى مكتبه بمحطة خطوط الطيران الليبية العربية بمطار لوكا بمالطا .

٢ - فى حوالى نهاية عام ١٩٨٨ طار عبد الباسط من طرابلس بليبيا إلى مطار لوكا بمالطا على الخطوط الجوية الليبية .

٣ - فى حوالى ٧ ديسمبر ١٩٨٨ سافر عبد الباسط من ليبيا إلى مالطا .

٤ - فى حوالى ٧ ديسمبر ١٩٨٨تم تسجيل اسم عبد الباسط فى فندق هوليداى ان فى سليمة بمالطا مستخدما اسم عبد الباسط أ - محمد وصفته مسئول طيران للخطوط الجوية الليبية .

٥ - فى حوالى ٧ ديسمبر ١٩٨٨ فى مدينة سليمة بمالطا قام عبد الباسط بشراء نوع من النسيج من محل مارى هاوس الذى يقع على بعد ٣٠٠ ياردة من الفندق الذى يقيم فيه .

٦ - فى حوالى ٩ ديسمبر ١٩٨٨ سافر عبد الباسط من مالطا إلى زيورخ بسويسرا

٧ - فى حوالى ١٥ ديسمبر ١٩٨٨ سجل الأمين فهيمة فى دفتر مذكراته العبارات التالية « عبد الباسط آت من زيورخ مع سلافو » و « أخذ علامات مميزة للحقائب من طيران مالطا » .

٨ - فى حوالى يوم ١٥ ديسمبر ١٩٨٨ أضاف الأمين فهيمة إلى مذكراته « أحضر العلامات المميزة من المطار عبد الباسط عبد السلام » .

٩ - فى حوالى ١٥ ديسمبر ١٩٨٨ أضاف الأمين فهيمة إلى يومياته كلمة (أو - كى) اضافة إلى عبد الباسط قام من زيورخ ..

١٠ - فى ١٧ ديسمبر سافر عبد الباسط من زيورخ بسويسرا إلى لوكا بمالطا ثم إلى طرابلس .

١١ - فى ١٨ ديسمبر ٨٨ سافر الأمين فهيمة من مالطا إلى ليبيا للاجتماع مع عبد الباسط .

١٢ - فى ٢٠ ديسمبر سافر عبد الباسط من ليبيا إلى مطار لوكا باستخدام هوية مزيفة باسم أحمد خليفة عبد الصمد .

١٣ - فى ٢٠ ديسمبر سافر الأمين فهيمة من طرابلس إلى مطار لوكا على نفس الطائرة تحت اسم عبد الباسط .

١٤ - فى ٢٠ ديسمبر أحضر المتهمان والمتآمرون معهما حقيبة سامسونايت كبيرة بنية اللون إلى مالطا .

١٥ - فى ٢٠ ديسمبر عقد عبد الباسط اجتماعا مع الأمين فهيمة فى مالطا .

١٦ - فى ٢٠ ديسمبر سجل عبد الباسط اسمه فى فندق هوليداى ان بمدينة سليمة بمالطا تحت اسم مزيف وهو أحمد خليفة عبد الصمد .

١٧ - فى ٢١ ديسمبر حوالى الساعة ٧,١١ (بتوقيت أوروبا المركزى اقام عبد الباسط بمخابرة الأمين فهيمة تليفونيا من فندق هوليداى ان .

١٨ - فى ٢١ ديسمبر غادر عبد الباسط مطار لوكا تحت اسم مستعار على طائرة تابعة للخطوط الجوية الليبية رحلة رقم ال ان (١٤٧) إلى طرابلس .

١٩ - فى ٢١ ديسمبر بين الساعة ٨١٥ و ٩١٥ بتوقيت أوروبا المركزى قام المتهمان والمتآمرون معهما غير المعروفين لهيئة المحلفين بوضع الحقيبة البنية السامسونايت التى تحتوى العبوة الناسفة ضمن الأمتعة التى دخلت طائرة الخطوط المالطية رقم كى ام ١٨٠ المتوجهة إلى فرانكفورت .

٢٠ - فى ٢١ ديسمبر قام المتهمان بتدمير طائرة رقم ان ٧٢٩ بى ايه كما سيأتى تفصيليا فى الجزء الثالث .

٢١ - فى ٢١ ديسمبر قام المتهمان بتدمير طائرة بان امريكان باستخدام وسائل اشتعال ومتفجرات ونتيجة لذلك لقى ٢٧٠ شخصا مصرعهم .

٢٢ - فى ٢١ ديسمبر قام المتهمان بتدمير طائرة بان امريكان وأدى ذلك إلى مصرع ١٨٩ شخصا من رعايا الولايات المتحدة كما هو آت طبقا للعدد خمسة حتى ١٩٢ (ويعد ذلك خرقا للقانون ١٨ من دستور الولايات المتحدة فقرة ٣٧١) .

الفقرة الاتهامية الثانية

١ - تكرر هيئة المحلفين العليا ادعاءها بالإشارة إلى الفقرة من واحد إلى ٢١ من الفقرة الاتهامية الأولى من نص الاتهام .

٢ - فى ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ فى مطار هيثرو بلندن / المملكة المتحدة / وفى أماكن آخرى قام المتهمان عبد الباسط والأمين خليفة بالاشتراك مع متآمرين آخرين غير معلومين لدى هيئة المحلفين العليا - بإرادتهم وبشكل غير قانونى - بوضع عبوة تدميرية على متن الطائرة رقم (ان ٣٩ بى ايه) وهى طائرة مدنية امريكية تستخدم وتعمل عبر البحار فى الطيران الخارجى التجارى من قبل شركة بان امريكان ورلد ايروايز

رحلة رقم ١٠٣ فى رحلتها إلى الولايات المتحدة من مطار هيثرو وتسببوا فى موت ٢٧٠ شخصا من ١٨ جنسية .

الفقرة الاتهامية الثالثة

١ - هيئة المحلفين العليا تكرر ادعاءها بالإشارة إلى الفقرات من ١ إلى ٢١ من الفقرة الاتهامية الأولى .

٢ - فى يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ وعلى ارتفاع ٢١ ألف قدم فوق مدينة لوكربى باسكتلندا قام المتهمان عبد الباسط والأمين فهيمة بإرادتها وبشكل غير قانونى بتدمير الطائرة المذكورة وسببت فى مصرع ٢٧٠ شخصا كما هو محدد فى الفقرة الاتهامية الثانية .

الفقرة الاتهامية الرابعة

١ - هيئة المحلفين العليا ...... إلخ

٢ - فى يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ وعلى ارتفاع ...... إلخ

٣ - فى يوم ٢١ ديسمبر وكنتيجة مباشرة لتدمير الطائرة بان امريكان فوق لوكربى والمنطقة المحيطة تسبب المتهمان عبد الباسط والأمين فهيمة فى قتل ٢٧٠ شخصا عن عمد ، وهؤلاء الاشخاص تم تعريفهم فى الفقرة الاتهامية الثانية .

الفقرة الاتهامية من الخامسة

١ - هيئة المحلفين العليا .... إلخ .

٢ - الضحايا الذين تم تعريفهم من الفقرات الخامسة وحتى ١٩٢ كانوا رعايا للولايات المتحدة كما هو معروف بالفقرة ٨ من دستور الولايات المتحدة جزء ١١٠١ (أ) (٢٢)

٣ - فى ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ خارج الولايات المتحدة فى مدينة لوكربى

باسكتلندا وداخل وإلى جوار المملكة المتحدة وأماكن أخرى قام المتهمان عبد الباسط والأمين خليفة بمحض ارادتيهماوعن عمد وبسبق الاصرار والترصد بقتل ١٨٩ شخصا من رعايا الولايات المتحدة الامريكية الذين كانوا ركاب وطاقم الطائرة المعرفين فى القائمة المذكورة فى الفقرة الاتهامية الثانية .

ماذا حدث للعقل المصرى؟

حزب مصر الفتاة ، وهو حزب (سياسى) شرعى ، يقوم برنامجه على مشروع لشق نهر عظيم مواز لنهر النيل ، يبدأ من بحيرة ناصر ، وينتهى إلى ما شاء الله ، ويكون واديا جديدا لنيل جديد يستوعب الزيادة السكانية ، ويملأ البطون ، ويزرع ملايين الأفدنة ..

وكيل مؤسسى حزب الشعب ، وهو الأستاذ أنور عفيفى ، صرح لإحدى الصحف اليومية ، بأن لديه (لدى الأستاذ أنور عفيفى) مشروعا لاستصلاح وزراعة أربعين مليونا من الأفدنة ، أى أن سيادته شخصيا سيضيف إلى المساحة المزروعة أكثر من سبعة أمثالها ..

من يصدق أن مستوى الفكر السياسى وصل إلى هذا الحد ؟

لو كان فيما يقوله هؤلاء ذرة من الحقيقة أو الإمكانية أو الواقعية لطالبت بإعدام وزراء الزراعة والرى فى مصر على مدى نصف القرن الأخير رميا بالرصاص ، لأنهم لم ينفذوا هذه الأحلام الجميلة ، الوردية ، الرائعة ..

المشكلة أن مجال تخصصى الدقيق فى رسالتى الماجستير والدكتوراه ، كان فى هذا الموضوع بالتحديد ، وهو موضوع اقتصاديات الرى فى مصر ..

الحقائق تقول إن لمصر حصة من مياه النيل ، وهى حصة محددة بمقدار ٤٨ مليار متر مكعب من المياه ، يضاف إليها نصيب مصر من مياه السد العالى وهو سبعة مليارات ، فيصبح المجموع ٥٥ مليارا ، يذهب منها

لاحتياجات الشرب والملاحة وتوليد الكهرباء ، ثلاثة مليارات ، ويتبقى حوالى ثمانية آلاف متر مكعب تقريبا للفدان الواحد ، الذى يزرع مرتين أو ثلاثا خلال العام . والحقائق تقول أيضا إن مصر تتغلب على عجز المياه بإعادة استخدام مياه الصرف ، وإنها أغلقت فرع دمياط بحيث لم يعد يصب فى البحر المتوسط ، وتحكمت فى مصب إدفينا بواسطة القناطر ، وسحبت من المياه الجوفية حتى الحد المسموح به إلى درجة انخفاض بعض مناسيب الآبار ، وإنها تتوسع فى الأراضى الجديدة فى استخدام أساليب الرى الحديثة ، التى يصعب أو يستحيل استخدامها فى الأراضى القديمة ومع المحاصيل التقليدية لأسباب فنية ، وإن فى مصر أكبر وأعظم وأعقد شبكة رى سطحى فى العالم ، وليس فى هذا القول أى مبالغة ، وإنه لا أمل فى متر مكعب واحد جديد من المياه ، ولا إمكانية لتوسيع كبير فى الاستصلاح إلا باستكمال قناة جونجلى (٩ مليارات لكل من مصر والسودان) . وإن حصة مصر الحالية من المياه مهددة بسدود جديدة تسعى بعض دول حوض النيل لإنشائها . فى اثيوبيا وفى السودان . وفى غيرهما ، وإن غير المتفائلين أمثالى يتوقعون أن يصل النزاع حول مياه النيل إلى مستوى الصراع المسلح لأسباب يطول شرحها ..

أى نهر جديد هذا الذى يتحدث عنه رئيس حزب مصر الفتاة ؟ وكيف إن شاء الله سوف يستصلح أربعين مليون فدان جديدة ؟ وكيف يصل التحدى للقضايا القومية إلى هذا المستوى على يد رؤساء الأحزاب ؟ وكيف أصبح المثل الشعبى المعروف هو الفلسفة العميقة لقيادات العمل السياسى فى مصر ؟ .

المثل الشعبى يقول (زغردى يا اللى مش غرمانة) ..

(٢)

فى العالم كله تصدر القوانين للأحوال العادية ، أما الحالات الشاذة فلا يوجد تشريع بشأنها ، لسبب بسيط هو أنها (شاذة) ..

أقصى ما يفعله المشرع هو أن يضع حدا أدنى وحدا أقصى للعقوبة ، ويترك الحرية للقاضى فى الحكم على أساس الوقائع ، وفى حدود العقوبة المقررة قانونا ..

نزيد الأمر توضيحا فنقول إن جريمة النشل مثلا ينظر إليها المشرع على أنها جريمة سرقة ، قد يكون المبلغ المسروق فيها صغيرا أو كبيرا ، وقد تقترن بالعنف ، أو لا تقترن به ، إلى آخر هذه الملابسات التى تدعو إلى تخفيف أو تشديد العقوبة فى حدود معينة ومعروفة ..

الملابسات التى ذكرناها تدخل فى إطار الأمور المتوقعة أو المعتادة وقد تحدث حالات شاذة ، لم يضعها المشرع فى اعتباره ، ولأنها (شاذة) فإن من المنطقى ألا يضعها المشرع فى اعتباره أبدا ، لأنه ليس معقولا أن يفترض المشرع مثلا أن المجنى عليها أرملة ، لا تملك من الدنيا كلها سوى مكافأة نهاية خدمة زوجها الذى توفى حديثا ، وأنها سحبت هذه الأموال لكى تدفعها لإجراء عملية عاجلة فى القلب لابنتها الوحيدة الجميلة الرقيقة ، وأن اللص سوف يسرق هذا المبلغ بأكمله ، فتكون النتيجة وفاة الابنة بالقلب ، ثم وفاة الارملة حزنا وكمدا ..

الحالة الشاذة السابقة تدفع المشرع بالتأكيد إلى الحكم بإعدام النشال ، وهى حالة قد تحدث فى الواقع ، لكنها ليست نموذجا لما يمكن أن يحدث ، ولا يجوز القياس عليها أبدا ، وهذا ما يحدث فى العالم كله ، وما كان يحدث فى مصر ، حتى السنوات الأخيرة ..

الآن تغيرت الصورة تماما ..

التشريعات فى مصر أصبحت توضع للحالات الشاذة ، وليس للحالات العادية ..

التشريع لجريمة هتك العرض يتم قياسا على حادثة العتبة ، وتفصيلا على (مقاسها) ..

التشريع لجريمة الاغتصاب يتم قياسا على حادثة المعادى ، وتفصيلا على (مقاسها) ..

ونحن فى انتظار حادث شاذ جديد ، بعد شهور أو سنوات ، حتى تتم صياغة تشريع جديد ، دون أن يتنبه أحد إلى أن التشريع الذى يوضع لمواجهة حادث شاذ ، لابد فى النهاية أن يكون تشريعا ... ولاداعى لاستكمال العبارة ، مع كل الاحترام للقانون والهيئات التشريعية ..

(٣)

انتهز أعداء المرأة ، وأعداء الحرية الشخصية حادثتى العتبة وامبابة ، للهجوم على المرأة وليس على الجناة ، فالسبب فى تقديرهم هو خلاعة النسوة ، وإغراء الأزياء الفاضحة ، واستهتار المرأة وعبثها المتمثل فى إبراز جمالها من خلال أدوات التجميل الحديثة ، التى تثير لواعج الشبان وتهز مشاعرهم ، وتدفعهم إلى المحظور ..

الذين يكتبون هذا ، وهم كثر ، لم يتنبهوا لحقيقتين : الأولى أن فتاة العتبة كانت محتشمة ، وبسيطة المظهر ، وتنتمى لطبقة فقيرة لا تتيح لها رفاهية (التجميل المثير) كما ورد فى أدبيات هؤلاء الكتاب ، وأن امرأة إمبابة ، سيدة تجاوزت الأربعين من العمر ، لا يوجد فى مظهرها ما يلفت أو يثير ، وكانت للمصادفة البحتة ، تلبس ثلاثة فساتين فوق بعضها ..

الخلاعة هنا ، والفتنة ، والإثارة ، أمور ليست واردة فى قواميس هاتين الجريمتين ..

الحقيقة الثانية ، أننا عاصرنا جميعا فى السبعينات ، موضة الميكروجيب . ولم نسمع فى هذه الفترة إطلاقا عن جريمة اغتصاب بشعة ، بينما انتشرت هذه الجرائم مع انتشار الحجاب ، وهذه حقيقة واضحة ، لا يختلف عليها اثنان ، ولا تنتطح فيها عنتزتان ..

الغريب حقا أن أحدا لم يتوقف أمام هذه الحقائق ، والأغرب ، وهذا ما أؤكده ، أن أحدا لن يتوقف أمامها ..

(٤)

منذ شهور كتبت فى هذا المكان مقالا عنوانه (لا تظلموا بطرس غالى) . تنبأت فيه بما يحدث الآن ..

كتبت وأكتب اليوم وسأكتب غدا ، وسيتحول ما أكتبه إلى (كلام فى الهوا) ..

نقول إن بطرس غالى لا يرسم سياسة بل ينفذ سياسة ، ولا يحكم بل ينفذ قرارات ، ولا يستطيع أن يخرج عن حدود الصلاحيات المرسومة له . فيقولون (خاب ظننا فيك يا بطرس) ..

نقول إنه لم يعد مصريا ولا عربيا ، بل أصبح أمميا وعالميا ، ولابد له أن يتخلى عن عواطفه وانتمائه ، وإننا يجب أن نساعده على ذلك ، أو على الأقل نفهم ذلك ، فيقولون (أخطأنا حين رحبنا بك يوم فزت بالمنصب ، ونحن نعلن اليوم اعتذارنا عن ذلك) ..

الحكاية يا سادة أننا نفهم ما نحب أن نفهمه ، بصرف النظر عن موقعه من الحقيقة أو الواقع أو طبيعة الأشياء ..

البعض فهم أن الأمم المتحدة (ستتكلم عربى) ..

والبعض فهم أننا بهذا حكمنا العالم..

والبعض فهم أننا أصبحت لنا (عزوة) فى مجلس الأمن ..

والبعض تصور أن أول قرار سيأخذه بطرس غالى هو ضرب إسرائيل بالصرمة القديمة أو اتخاذ قرار برفع العقوبات عن العراق ، أو إصدار أمر بتنفيذ قرار التقسيم الصادر فى الأربعينات ..

الذين فهموا هذا أو تصوروه ، كانوا من كتاب الأعمدة واليوميات والمقالات الثابتة ، للأسف الشديد ..

كانوا يكتبون وكنت أسأل نفسى ..

هل يعرفون الحقائق ويخدعون الناس ، أو أنهم صادقون وهذا هو فهمهم للأمور ؟.

الأولى مصيبة ، والثانية كارثة ..

الطريف حقا أنى كنت حسن الظن بهؤلاء الكتاب ، حين تصورت أنهم يعرفون الحقائق ، ويزايدون على الناس ..

اتضحت الحقيقة المحزنة والمخجلة أمامى وأنا أتابع التعقيبات الساخنة التى تناولت تصريحات بطرس غالى الأخيرة ..

قال بطرس غالى . إن القرارات المطبقة على العراق وعلى ليبيا تخضع لنصوص الفصل السابع من ميثاق حقوق الإنسان ، ومعنى هذا أنها قرارات ذات قوة تنفيذية ..

فى المقابل فإن قرارات مجلس الأمن الخاصة بالنزاع العربى الإسرائيلى لا تخضع لنصوص هذا الفصل ، ومعنى هذا أنها غير ملزمة بالتنفيذ ، وأن السبيل الوحيد لتنفيذها هو التفاوض بين الأطراف المتنازعة ..

ما قاله الرجل هو الحقيقة لا أكثر ولا أقل ..

وإذا كانت هذه الحقيقة لا تعجبنا ، وهى فعلا لا تعجبنا ، فالسبيل إلى تعديل ذلك واضح ..

السبيل هو إصدار قرار جديد من مجلس الأمن يستند فى ديباجته إلى ما ورد فى الفصل السابع ..

قرار جديد تنفيذى ملزم ، آليات التنفيذ فيه واضحة .. وإلى أن يحدث هذا ، علينا أن نتحمل ما يكتبه العباقرة ، وعلى بطرس غالى أن يدفع ثمن مفاهيم بعض الكتاب من دول العالم الثالث ..

(٥)

فى جريدة الأهرام طالعنا عنوان يقول (اللجنة التشريعية فى مجلس الشعب تطالب بتجريم سفور المرأة والشذوذ الجنسى والزنا بتراضى الطرفين) ..

العنوان أصابنى بالاكتئاب الشديد . لأنه يعبر عن فكر مجلس الشعب الموقر ، بل عن فكر الصفوة (التشريعية) فى هذا المجلس ..

أول ما يلفت الانتباه هو المساواة بين (سفور المرأة) والشذوذ الجنسى أو الزنا بالتراضى ..

وثانى ما يلفت الانتباه هو أن الزمن يستدير بنا دورة كاملة ، بحيث نترحم على رواد التنوير فى بدايات هذا القرن ، الذين استحقوا ريادتهم ومكانتهم فى تاريخ مصر ، بدعوتهم للسفور ، الذى يتطوع جهابذة العصر بالمطالبة ليس بتحريمه فقط ، بل بتجريمه أيضا ..

الشيخ أبو العيون فى الأربعينات أفتى بحرمة (المايوه) فأوسعه رسامو الكاريكاتير بالنكات اللاذعة ، واليوم أصبح السفور وليس المايوه ، هو جريمة الجرائم ..

ملايين النساء السافرات ، فى الجامعة ، وفى أماكن العمل ، وفى المصانع ، وفى كل مكان أصبحن مجرمات فى عرف أهل التشريع ..

لم يعد الأمر يحتمل إلا تفسيرا من اثنين ..

إما أننا فى حاجة إلى علاج هرمونى ، لأن شعر المرأة المسترسل لا يثير لواعجنا ولا يثير كوامننا ، ولا يلهب دماءنا ، وإما أن السادة المشرعين ، فى حاجة لمهدئات أو مسكنات ، والاحتمال الثانى هو الأقرب للواقع ، والمسئول هنا هو السيد وزير الصحة ، الذى لابد أن يطرح هذه المهدئات بأسعار مدعومة ، أو بأثمان رمزية ، رحمة بنا ، وبنسائنا ، وبأعصابنا أيضا ..

وتبقى المطالبة بتجريم الشذوذ الجنسى ، وهى تستدعى تساؤلات عن سبب هذه المطالبة ، لأننى لا أعتقد أن الشذوذ الجنسى قد أصبح ظاهرة فى مصر ، تؤرق المشرعين ، إلى الدرجة التى يطالبون فيها بالعلاج التشريعى ، وأعتقد أننا فى هذه القضية تحديدا ، فى حاجة لسماع رأى فضيلة الشيخ الشعراوى ، لأنه أقدر الناس على الإفتاء فى هذا الموضوع ..

(٦)

فى مجلة حريتى بتاريخ ١٩ ابريل ١٩٩٢ ، وعلى صفحتين كاملتين (٢٤ و ٢٥) ، دار حوار ساخن ، بين الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ محمد جلال كشك ولجنة الفتوى بالأزهر الشريف ..

القضايا الساخنة التى تناولها الحوار ، والتى انشغل بها الفقهاء هى قضية الممارسات الجنسية فى الجنة ..

الأستاذ جلال كشك يؤكد أن المسلمين فى الجنة سوف يكونون فى حالة (انتصاب) دائم . والفقهاء لا يؤكدون ولا ينفون ، وإن كانوا يتشككون فى (الديمومة) ، والأستاذ كشك يؤكد أن غلمان الجنة سوف يكونون (مقرطين مسورين) . أى أنهم سيلبسون الأساور والأقراط ، ومعنى هذا

أنهم سيكونون من حظ ونصيب ذكور الجنة ، حيث يستمتعون بهم كما يشاءون ، والعلماء يتشككون فى ذلك .

هذه هى هموم المسلمين إذن فى نهاية القرن العشرين ..

الانتصاب الدائم ، واللواط بالغلمان ، فى الجنة إن شاء الله ..

أكتب هذا وأنا أشعر بالحزن والأسى ، وأتساءل عن رأى غير المسلمين فى قوم هذه مشكلاتهم ، وتلك قضاياهم ..

أكتب هذا لكى أذكر الطرفين بأن العالم منشغل حولنا باختراق الفضاء والهندسة الوراثية وإعجاز الكمبيوتر ..

يا حسرة على الإسلام وعلى المسلمين ..

ويا حسرة على الوقت الضائع ، والجهد الذى لا طائل منه ، والقضايا المخجلة ، والعلم الذى لا ينفع ، وأترك الحكم على هذا كله للقراء ..

(٧)

فى كل مكان أذهب إليه ، أفاجأ بسؤال متكرر ، وأحيانا أرد ، وأحيانا أزهد فى الرد ، لأننى أتصور أحيانا أن صاحب السؤال لم يفكر فيه قبل أن ينطق به ..

السؤال هو : أين القدوة ؟ إن شبابنا يفتقد القدوة والنموذج والمثال وهذا هو السبب الرئيسى للتطرف والانحراف والتسيب ..

الإجابة جاهزة ، لأن مصر مزدحمة بعشرات النماذج ، التى يصلح كل منها لكى يكون قدوة للشباب المصرى ، والعربى ، بل للشباب فى كل مكان ..

نجيب محفوظ ، ألا يصلح قدوة على الانجاز والإعجاز والنجاح والانضباط الخلقى والإبداع غير المسبوق ..

بطرس غالى .. ألا يصلح قدوة ، وهو الذى وصل إلى أرفع منصب

عالمى ، ربما لن يحصل عليه مصرى أو عربى أو افريقى قبل زمن طويل طويل ..

الدكتور فاروق الباز ، والدكتور مجدى يعقوب ، ومحمد عبد الوهاب الذى تربع على عرش فنه أكثر من ستين عاما ، واحتفظ بقمته طوال هذه السنوات ، وفاتن حمامة التى احتفظت بتألقها وكرامتها وعظمتها ومكانتها على مدى سنوات طوال ، وطه حسين الذى حول عجزه إلى تألق رفيع . وإضافة هائلة إلى رصيد التنوير والحضارة ، وعباس العقاد الذى لم يحصل على الابتدائية ، واستطاع أن يحتل مكانة العقل الأكبر فى مصر ، والدكتور جمال حمدان ، الذى يعمل فى صمت ، ويبدع ويتألق ويتفوق ، ويرفض أن يدخل دائرة الضوء ، رغم أنه وحده أحد مصادر الإضاءة والإشعاع الفكرى والثقافى والحضارى ..

ولماذا نبعد بعيدا أو يدفعنا الخوف من مظنة النفاق ، وهو ما لم نعرفه فى حياتنا كلها ، إلى الابتعاد عن حقيقة واضحة ، ونموذج مؤكد للقدوة الصالحة الرائعة ؟.

الرئيس حسنى مبارك نفسه . الذى بدأ (طيارا) ثم وصل (بكفاءته) إلى قيادة القوات الجوية ، ومنها بكفاءته أيضا فى حرب أكتوبر ، إلى منصب نائب الرئيس ، ثم منصب الرئيس ..

المؤكد أن حسنى مبارك لم يحلم فى شبابه يوما بهذا المنصب ..

والمؤكد أن كفاءته واستقامته كانتا سبيله إلى أعلى منصب فى الدولة ..

ألا يصلح هذا كنموذج أو قدوة ؟ ..

إذن من أين ينطلق السؤال إلا من الرغبة المدمرة فى تعذيب النفس دون سبب ، أو إطلاق الأحكام دون دليل ؟.

طابور القدوة طويل ، وهو يشمل العشرات ممن لم نذكرهم ، ولا أظن أن بلدا آخر فى المنطقة كلها يحفل بهذه النماذج ..

ألا يشاركنى القارئ الآن فى أننا لم نعد نستخدم عقولنا ، وأن ما ذكرته طوال هذا المقال يدفع إلى سؤال واحد لا بديل له ، وهو سؤال مؤرق ، محزن ، مخجل :

ماذا حدث للعقل المصرى ؟ .

كل شيء هادئ
في منشية ناصر

الله لا يرضى .

الشعب لا يرضى .

القيادة السياسية لا ترضى .

الأحزاب المدنية لا ترضى .

أجهزة الأمن لا ترضى .

وحدث ما حدث فى منشية ناصر .

* * *

الأمن لا يقاس بعدد العساكر .

ولا بعدد الضباط .

ولا بعدد سيارات الأمن المركزى .

ولا بعدد البنادق أو المدافع أو المسدسات .

الأمن يقاس بشيء معنوى آخر .

هو هيبة الدولة .

* * *

الحدث الجسيم ليس نبتا شيطانيا .

إنه نتيجة تسبقها مقدمات .

وأول بديهيات الأمن ما يسمى بالضربة الوقائية .

وهى ضربة تجهض المقدمات ، فتنعدم النتائج .

ومقدمات حادث منشية ناصر متعددة .

وهى لم تكن مجهولة .

وهى أيضا لا يرضى عنها أحد .

ومع هذا استمرت المقدمات وتصاعدت .

ولا بد من تفسير .

* * *

المنظمة المصرية لحقوق الإنسان انها خاطبت السلطات المركزية بالقاهرة ٣ مرات ، تناشدها التدخل السريع لوضع حد لأعمال العنف الطائفى فى القرية . ولم تتلق ردا ، ولم يتدخل أحد .

شبهة الجهل بالمقدمات ليست واردة إذن

وشبهة تقصير الأهالى فى الشكوى ليست واردة .

وشبهة تدخل المسئولين لحل المشكلة قبل تفاقمها ليست واردة أيضا .

* * *

المنظمة تذكر فى تقديرها أن التنظيم المسمى بالجماعة الاسلامية فى ديروط ، يمارس أعمال عنف منظمة (منذ عدة أعوام) ، ويفرض أشكالا من الاضطهاد الاقتصادى والاجتماعى ، والايذاء البدنى والمعنوى ، والذى لم يفلت منه كثير من المسلمين من غير أنصار هذه الجماعة .

فى المثل الشعبى يقولون . (يا فرعون مين فرعنك) .

الفرعون هذه المرة أقام إمارة اجرامية .. فى التاريخ المصرى عرفنا (جمهورية زفتى) وكانت عملا بطوليا .. وفى زمننا هذا عرفنا (إمارة ديروط) ، وهى عمل اجرامى من طراز فريد .

* * *

إمارة ديروط الاجرامية حظرت على غير المسلمين أن يجهروا

بشعائرهم الدينية ، وهاجمت محاولة تجديد بلاط دار العبادة ، وأوقفت بفدائية وبطولة هذه المحاولة ، وحطمت فى جهادها بعض الأبواب والنوافذ ، ثم أجبرت بعض غير المسلمين على التبرع لها ، وسال لعابها لتبرع جديد حصلت عليه منهم لبناء (مسجد) بالقرية .

الانتصار يغرى بالانتصار ، ولهذا صدر قرار جديد يحظر على نفس المجموعة اقامة أى احتفالات علنية بالمناسبات الاجتماعية ، مثل الزواج أو حتى الموت .

الذى ينزعج لهذا يجب ألا يكمل المقال ، لأن هذا كله لا يزيد على كونه (مقبلات) بلغة أهل الشام أو (فكة) بلغة أهل المال .

* * *

ابتدعت إمارة ديروط الاجرامية ، عقوبة جديدة لمن يعصى أوامرها .

العقوبة هى تكسير عظام الذراع اليمنى والساقين .

والهدف المباشر هو (التعجيز) الكلى للضحية .

والهدف النهائى هو أن تصبح الضحية نموذجا (حيا) رادعا للآخرين .. المعلومة منقولة من تقرير المنظمة ، الذى يضيف إليها تعليقا وضعه بين قوسين ، تقول كلماته (يلاحظ أنها نفس العقوبة التى ابتكرها جيش الاحتلال الاسرائيلى فى مواجهة الانتفاضة الفلسطينية) .

الفرق هنا أن اسرائيل تفعل ذلك فى مواجهة (الانتفاضة) .

وجمهورية ديروط تفعل نفس الشىء فى مواجهة (الامتعاضة) .

* * *

فى أوائل شهر ديسمبر (نمى) إلى علم أمير الجماعة أن المواطن (بشرى خليل) تحدث عنه بألفاظ غير لائقة .

أعلنت حالة الطوارىء بالجمهورية ، وصدرت الأوامر بأن يدفع (بشرى) ، تعويضا قدره ٣ آلاف جنيه ..

رفض (بشرى) أن يدفع التعويض .
فى اليوم التالى قطعت عليه عناصر الجماعة الاسلامية الطريق بالأسلحة النارية ، ثم انهالوا عليه ضربا بالمواسير الحديدية .
أماكن الضرب هى الذراع اليمنى والساقان .
التقرير الطبى المبدئى الصادر من مستشفى ديروط المركزى فى نفس اليوم (١٧ ديسمبر ١٩٩١) يقول .
(اشتباه فى كسر بالساقين اليمنى واليسرى والذراع الأيمن .. سجمات بالذراع الأيسر والوجه .
نزيف وجروح رضية بالساقين اليمنى واليسرى) .
تأكد الأطباء بعد ذلك من وجود كسور فقاموا بوضع الساقين فى الجبس ، واحتاجت الذراع قبل (تجبيسها) إلى عملية جراحية خاصة .
تلقى المعارض (بشرى) انذارا من الجماعة بأن أشقاءه سوف يلقون نفس المصير إذا أصر على التمسك باتهاماته للجماعة الاسلامية أمام النيابة .
أدرك بشرى أن المقاومة لا تفيد ، واضطر الى التوقيع على محضر صلح بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٩٢ .
ذراع بشرى اليمنى فى حالة عجز كامل عن الحركة .

* * *

(كامل عزمى سمعان) مواطن مصرى متزوج وله ٦ أطفال .. شاء سوء حظه أن يكون أحد رعايا إمارة ديروط الاجرامية المستقلة .. جريمته أنه أمين صندوق دار العبادة .
يوم ٣١ ديسمبر ١٩٩١ حدث له ما حدث للأخ بشرى .
يقول التقرير المبدئى لمستشفى ديروط المركزى فى نفس اليوم (وجود كسر بعظمة الساعد الأيمن ، وجروح رضية ، وسجحات باليد اليمنى ،

وكسر متقتت أعلى عظمة القصبة اليمنى ، وكسور متعددة بالشظية اليمنى ، وتورم شديد بالساق اليمنى ، وعلامات قصور شديد بالدورة الدموية للساق اليمنى واحتمال حدوث غرغرينة بالساق اليمنى) .

ساق كامل اليمنى ما زالت فى الجبس .

ساق كامل اليسرى عاجزة كليا عن الحركة .

* * *

الإمارة تحتاج إلى موارد مالية ، ولهذا فرضت الجزية على غير المسلمين .

لم تتعسف القيادة الثورية للإمارة عند فرضها للضريبة ، حيث قصرتها على عمليات البيع ، إذا كان البائع غير مسلم .

هذه المعلومة هى مفتاح تفسير قصة (الخلاف حول بيع المنزل) التى أذاعتها وزارة الداخلية .

المنزل مملوك لمواطن مسيحى اسمه (عبد الله مسعود) .

المشترى مواطن مسلم اسمه (عبد العظيم صبرى) .

القرار الثورى الديروطى المستقل (ينص على ما يلى .

- يلغى عقد البيع الأول .

- يبيع عبد الله مسعود المنزل الى أحد أعضاء الجماعة بثمن أقل (تحدده الجماعة) .

- يدفع عبد الله مسعود جزية مقدارها ٥٠٠ جنيه من ثمن البيع الذى ستحدده القيادة الثورية للجمهورية الاجرامية .

رفض عبد الله مسعود الأوامر فاحتل الجيش الثورى أرضه بقوة السلاح .. ذهب عبد الله مسعود للأرض فأطلق عليه الجيش الثورى الرصاص .. تدخلت الشرطة (بعد اطلاق الرصاص) وأطلقت هى الأخرى الرصاص .

أسفرت الأحداث عن مصرع ثلاثة أشخاص .

مسيحى ، وعضو بالجماعة ، ومسلم لا صلة له بالنزاع ، وأصابته رصاصة طائشة .

صدر بيان من وزارة الداخلية يؤكد أن النزاع (عائلى) حول بيع أحد المنازل .

* * *

اجتمع المجلس الثورى للإمارة الاجرامية وأصدر بيانا ثوريا حماسيا .. مفردات البيان على النحو التالى .

- تدخل الشرطة يمثل اعتداء خارجيا على إمارة مستقلة ذات سيادة .
- الاعتداء تم نتيجة شكوى المسيحيين .
- تفرض حالة الطوارئ على القرية .
- يحظر خروج المسيحيين (الرجال) من منازلهم وإلا تعرضوا للقتل (هذا القرار هام لأنه يفسر ما حدث يوم ٤ مايو) .
- يتم اعدام ٤ مسيحيين بتهمة ابلاغ السلطات ، وقد تم تحديدهم بالاسم ، وكان أول اسم فى القائمة هو (بدر عبد الله مسعود) الموظف بمصلحة الطب الشرعى فى أسيوط والمقيم بها ، وهو ابن عبد الله مسعود صاحب المنزل .

* * *

فى يوم ١٤ ابريل ، وفى وضح النهار ، وفى شارع رياض وهو أحد أكثر شوارع مدينة أسيوط اكتظاظا بالحركة ، اعترض الجيش الثورى (بدر عبد الله مسعود) وأطلق الرصاص عليه .

سقط بدر على الأرض .

تقدم افراد الجيش الثورى وحاصروه ، وأجهزوا عليه (بالسواطير) .. قبل ذلك وبعده لزم من صدرت اليهم الأوامر منازلهم ،

وتولت النساء شراء لوازم المنازل وتخزينها خوفا من الحصار .

قبل ذلك وبعده أيضا ، انهالت البرقيات المرسلة إلى محافظ أسيوط ووزير الداخلية والمسئولين ، تطالبهم بالتدخل ، وتناشدهم العمل على رفع الحصار ، وانقاذهم من الجوع وفقدان الوظائف ، وخطر الموت ..

صور البرقيات موجودة .

* * *

فى صباح الرابع من مايو قررت قيادات الإمارة إعلان الحرب ، بعد أن وصل إلى علمهم أن بعض الرجال خالفوا قوانين الطوارئ وحظر التجول ، وتحركت أربع مجموعات للقصاص ممن خالفوا الاحكام العسكرية .

تم ضبط المخالفين فى حالة تلبس (خارج منازلهم) .

المجموعة الأولى توجهت إلى أسرة خالفت باكملها قرار حظر التجول .

كان مع الأسرة بالمصادفة أحد المسلمين وهو محمد لطفى عبد الحافظ .

قرأ محمد لطفى فى عيونهم ما سيحدث فتقدم إليهم متوسلا .

انطلق الرصاص فسقط محمد لطفى عبد الحافظ صريعا .

حصد الرصاص بعد ذلك الأسرة بكاملها .

ألفى سمعان بخيت .

سمعان ألفى سمعان .

ايليا ألفى سمعان .

(الطفل) اليشع ألفى سمعان .

كمال عزمى سمعان .

عياد لمعى سمعان .

المجموعة الثانية توجهت إلى مكان آخر على بعد ٢٠ كيلو مترا من المكان الأول ..

انطلق الرصاص فحصد أرواح المخالفين للقرارات ..

اسحاق أيوب خليل ..

سمير مرزوق عبد الله ..

سرحان حنا عبد الله ..

فهمى فهيم جرجس ..

بعد أن فرغت هذه المجموعة من مهمتها توجهت إلى (حديقة عنب أرض) حيث كان عادل شفيق شاروبيم متواجدا بالمخالفة للأوامر فأطلقوا عليه الرصاص وسقط قتيلا ..

المجموعة الثالثة توجهت إلى مدرسة منشية ناصر الابتدائية .. فى المدرسة كان (منصور قديس) يمارس عمله رغم أوامر الجماعة المشددة ..

اقتحمت الجماعة المدرسة وهى تطلق الرصاص فى الهواء ..

سمع منصور قديس صوت الرصاص وهو يقترب فأمر التلاميذ بالانبطاح تحت الكراسى حتى لا يصيبهم الرصاص ..

انفتح باب الفصل وانهال الرصاص على المدرس فسقط مضرجا فى دمائه ..

المجموعة الرابعة توجهت إلى طبيب بشرى يدعى صبحى بخيت وأحاطت بمنزله ..

تمت مراقبة المنزل ، حتى حدثت الكارثة ..

نزل الطبيب إلى الجراج أسفل المنزل لكى يستقل سيارته ..

معنى هذا أنه خالف قرار حظر التجول مع سبق الاصرار والترصد ..

اقتحمت المجموعة الجراج وأطلقت على الطبيب البشرى ٢٦ رصاصة ..

بعد يوم من الحادث توجه بعض أفراد الجماعة إلى (مقر النيابة) وأطلقوا عليه الرصاص من داخل سيارة ..

فى هذه المرة أطلقت الشرطة الرصاص وتم القبض على اثنين وألقى الثالث بنفسه من السيارة إلى الترعة حيث عثر على جثته فيما بعد ..

* * *

الكلمات هنا لا معنى لها ..

والحادث هنا (بشع) ليس لعدد القتلى ، ولكن لما هو أخطر .. القتل هنا على الهوية . وهذا نذير بالكارثة ..

المعلومة التى نهديها للقارئ حتى تكتمل ملامح الصورة ، أن عدد المسيحيين فى القرية أكثر من عدد المسلمين ، وأن نسبة المسيحيين حسب تقديرات مصادر وزارة الداخلية تصل إلى ٥٤ ٪ من اجمالى سكان القرية ..

* * *

ما يزال البعض يتساءلون وأنا منهم ..
ماذا حدث للمجرمين فى أبى قرقاص والمنيا والفيوم ..
أين قرارات الاتهام والمحاكمات والقصاص القانونى العادل ..
ماذا حدث للمتضررين وكيف تم تعويضهم ؟..
هل هناك إمارات مستقلة أخرى ، فى أماكن أخرى ؟ لا نعلم عنها شيئا ؟.. كيف تم تجاهل كل هذه النذر والمقدمات والاستغاثات والاشارات الواضحة ؟ كيف سيتم التعامل مع هذا الحادث ؟..

لقد ثار الرأى العام المصرى لانتهاك عرض فتاة العتبة ..
هاهو ذا عرض الأمان فى مصر كلها ينتهك ..
ألا يستحق هذا أن تشتعل النفوس بالغضب ؟..

لقد فزع المصريون جميعا لاغتصاب فتاة المعادى .
ما هو رأى المصريين فى اغتصاب أغلى ما نملكه فى مصر وهو وحدة الوطن ،

* * *

للصورة وجهها الآخر
فوزير الداخلية صاحب تجربة سياسية وأمنية سابقة وناجحة ، فى نفس المحافظة التى استقلت عنها الإمارة الإجرامية ..
كفاءته الأمنية ليست محل شك ..
رغبته فى تأكيد هيبة الدولة وسطوة الأمن ليس لها حد ..
سماحته الوجدانية معروفة ..
تعليماته لرجاله واضحة وصارمة ..
حرصه على سمعة جهازه يمنعه من البوح بما يضيق به صدره ، وصدور العاملين تحت قيادته ..
فالمرتبات هزيلة ..
والمخاطر جمّة ..
والأحداث متلاحقة ..
والمعدات متهالكة ..
والأسلحة فى حاجة لمسايرة التقدم العصرى والتطور الإجرامى ..
ووسط هذا كله يعمل رجاله ليلا ونهاراً ..
ويسقط منهم صرعى فى حوادث الإرهاب ..
ويتحملون مزايدات الأحزاب التى ظاهرها مدنى ، وجوهرها دينى ..
وهو أمام هذا كله فى حاجة إلى كلمة حق ..
وها نحن أولاء نقولها له ..
(اردعهم) وتوكل على الله ياشيخ العرب ..

أثبت لنا ياسيدى إن لقانون الطوارئ فائدة ..

افرض هيبة الدولة وسطوة القانون وكلنا معك ..

وثق أننا لن نحملّك فوق طاقتك ، فأنت فى كثير من الأحيان ضحية ..

ضحية للإعلام غير المتسق فى مواجهة الإرهاب ..

ضحية للتعليم غير المتطور لمعالجة فساد العقول والنفوس .. ضحية لمواردك المحدودة ..

ضحية لغلق ملفات القضايا السابقة ، وحديث هذا الغلق يفتح علينا أبواب الهم ..

* * *

يافرعون من فرعنك ..

يقول (فرعون) الإرهاب .

(فرعننى) أنهم تسامحوا معى ، فلم يعاقبوا أحدا على ما حدث فى أبى قرقاص ، فانطلقت إلى المنيا ، وفى المنيا شاعت التهمة ، ونجوت من المساءلة ، فتفرعنت فى الفيوم ، وعندما انتهت أحداث الفيوم وجدت نفسى حرا طليقا ، فأعلنت استقلالى فى منشية ناصر .. فى قضية اغتصاب فتاة المعادى ظل الجمهور يلهث وراء المطالبة بالعقاب ، حتى تحقق ..

وفى أحداث الفتن الطائفية لم يسمع أحد عن شىء تحقق .. لا العقاب حدث ..

ولا التعويضات دفعت ..

ولا المتابعة تحققت ..

إلقاء المسئولية إذن على وزارة الداخلية وحدها ظلم بين .. ومراجعة ما حدث هى المقدمة لمواجهة ما يحدث ..

* * *

كل شئ هادئ فى منشية ناصر ..

ما حدث خلاف (عادي) ، ونزاع (عائلى) يحدث كل يوم ..
ـ(مصارين) البطن تتشاجر فما بالك بالبشر ..

القصة كلها خلاف حول شراء منزل ..

الأصابع (الأجنبية) هى التى تدفع إلى الحديث عن الفتنة . لجان وزاة الأوقاف سوف تحل المشكلة ..

* * *

الدنيا ربيع ..
والجو بديع ..
قفل لى على كل المواضيع ..
لا تقول كانى
ولا تقول مانى ..
كانى مانى إيه ..
الدنيا ربيع .

عصر الأستيكة

(١)

وتدور العجلة للخلف ..

أي انتصار حضاري حتى ولو كان محدودا تتم مراجعته ، ويتفانى المجتمع فى الإصرار على التخلى عنه ..

قانون الأحوال الشخصية فرض للزوجة نفقة متعة بعد طلاقها ..

نفس القانون أعطاها الحق فى الاحتفاظ بمسكن الزوجية بشروط محددة ، منها أن تكون حاضنة (أى أن يكون لها أولاد من الزوج فى سن الحضانة) ، وأن يعجز الزوج عن توفير مسكن آخر (ملائم) ، وبشرط ألا تتزوج خلال تلك الفترة ..

منتهى العدل ، وإن كان هذا فى تقديرى يمثل الحد الأدنى للعدل ..

بديل ذلك أن يتشرد الأولاد ، وأن تصبح الزوجة المطلقة بلا مأوى . وأن تمتلئ حياتنا بنماذج شبيهة بنموذج الممثلة القديرة أمينة رزق فى دورها الخالد فى فيلم (أريد حلا) .. ونموذج الفنان الكبير فريد شوقى فى فيلم (جعلونى مجرما) ..

كل هذا تتم مراجعته الآن ..

فى أشهر محاكم الأحوال الشخصية فى مصر وهى محكمة زنانيرى ، بوادر النهاية لهذا الإنجاز المحدود ..

قال الزوج للزوجة أنت طالق ..

لم تجد الزوجة مبررا للطلاق ..

رفعت الزوجة دعوى نفقة متعة ودعوى بالتمكين من المسكن (لأولادهما) القصَّر ..

رد الزوج أمام المحكمة بأن قانون الأحوال الشخصية (غير دستورى) فى هاتين الدعويين ..

اضطرت المحكمة لتحويل طعن الزوج إلى المحكمة الدستورية العليا ..

أتى تقرير مفوض المحكمة الدستورية العليا مفاجئا للجميع ..

التقرير يقول ان استقلال المطلقة بمسكن الزوجية (حتى ولو لم يوفر لها ولأطفالها مسكنا آخر) يتم (جبرا) وهذا يخالف حق الملكية كما نص عليه الدستور ..

معنى هذا أن فى الشارع (بمعنى الطريق العام) متسعا للأم وللأطفال القصر ، من أجل عيون الأطفال القصر ، ومن أجل عيون الأم التى طلقها الزوج ، ولم تطلق نفسها لأنها لا تملك هذا الحق ..

معنى هذا أيضا أن ما يملكه الأب له من القداسة ما يمنع حتى أولاده من المساس به ، أما الأولاد أنفسهم فلا يتمتعون بما يتمتع به الجماد من رعاية وحماية وقدسية ..

الشقة أصبحت أغلى من فلذات الأكباد فى مصر ..

فى الولايات المتحدة الأمريكية تحصل الزوجة على نصف ما يملكه الزوج فى حالة الطلاق ، والمحامى (الشاطر) يدفع الزوج إلى حمد الله وتقبيل يديه ظهرا وبطنا ، لو استطاع الخروج من منزل الزوجية بملابسه الداخلية ..

فى الولايات المتحدة وفى أوروبا وفى أغلب بلدان العالم ، المتحضر وغير

المتحضر ، تكون الأولوية للأطفال القصر ، الذين لا ذنب لهم فى خلافات الوالدين ..

أظن أننا الآن على أعتاب عصر جديد ، هو عصر (الأستيكة) ..

أى إنجاز حضارى أو حق إنسانى ، مطلوب مسحه بالأستيكة ..

ان السباق الحضارى والإنسانى فى العالم يتجه لحقوق الإنسان ولكن عندنا من يحاول أن يسعى لهدمها ..

العالم ودع منذ قرون فكرة الدولة الدينية بسلطتها المعروفة ، والجهابذة فى بلادنا يسعون إليها ..

العالم يسعى لحماية (الحيوانات البرية) ونحن نسعى لتشريد الأطفال ليس الأطفال الأجانب ، بل أطفالنا نحن ..

العالم ينظر للمرأة على أنها إنسان ، على قدم المساواة مع الرجل لأنها الأم والأخت والزوجة والابنة ، والبعض منا ينظر إليها على أنها متاع ، ومتعة ، بل وأكثر من ذلك ، لا يرى أن هذه المتعة تستحق نفقة ..

ملايين الأسر فى العالم تنزعج إذا أصاب كلبها الأليف أو قطتها الأليفة ، نزلة برد ، ونحن لا ننزعج إطلاقا إذا تشرد أطفالنا بلا مأوى ..

(حتى لو عجز الزوج عن توفير مسكن ملائم لأولاده) ، فليس من حقهم الإقامة بمسكن الزوجية ..

هل رأى (العصر) سكارى مثلنا ..

هل رأى (الطفل) جبابرة مثلنا ..

هل رأت المرأة (أسيادا) مثلنا ..

عزيزى القارئ ، لا تفزع ، ولا تحزن ، وغنّ معى ..

خارج السباق يا بلدنا خارج السباق ..

كله منساق يا بلدنا كله منساق ..

(٢)

ضمان الديموقراطية هو الرأى العام المستنير ، وهو لن يتكون إلا بالممارسة الديموقراطية الصحيحة ، وهى لن تتحقق إلا إذا احترم الكتاب والسياسيون شرف الكلمة ..

ما يحدث فى الساحة السياسية المصرية الآن نذير بالعكس ..

هناك بدهيات لا يختلف عليها أحد ..

نزاع حلايب على سبيل المثال ..

هذه قضية قومية .. تتعلق بتراب وطنى ..

لا مجال هنا للمناورات الحزبية ، أو المزايدات السياسية ، لأن المناورات والمزايدات لا تحتمل إلا وصفا واحدا فى هذه الحالة . وهو الخيانة الوطنية ..

هل يمكن تبرير هذا الموقف الرخيص ، غير الوطنى ، بعزومة فى السودان ، أو لقاء مع حسن الترابى ؟ .

مجرد سؤال ننتظر إجابة عنه من بعض صحف المعارضة فى مصر .

(٣)

مادمنا نتحدث عن صحف المعارضة فلا بأس أن أنقل للقارئ مكالمة من صديق عزيز ، متفوق فى مجاله الطبى ، ومشارك فى الحياة السياسية والعامة ..

قال لى ، هل قرأت ما يكتبه محمد عباس فى الشعب ..

– تقصد رسالة إلى السيد الرئيس ؟..

– نعم ، لقد أصابتنى الرسالة بارتفاع فى ضغط الدم ..

الصديق معه حق ، سلسلة المقالات التى يكتبها الأخ عباس ، الذى لم

أتشرف بالتعرف عليه ، سياسيا أو كاتبا من قبل ، تذكرنا بمحاولاتنا الأولى ونحن هواة ، حين كنا نتخيل أننا نجلس إلى السيد الرئيس ، ونكتب الصفحات الطوال ، ونأخذ راحتنا فى الحديث ، وينتهى الأمر بمحاولة نضحك عليها حين نقرؤها (على كبر) ..

أنا شخصيا كتبت رسائل مطولة للرئيس السادات وللرئيس مبارك . وكان ذلك قبل نحو عشر سنوات ، لكنى والحق يقال لم أبلغ ما بلغه الأخ عباس ، من مستوى لا أسمح لنفسى بوصفه ..

ما معنى أن يتحدث كاتب للسيد الرئيس قائلا ما معناه ، إن عمرك اليوم قد تجاوز الخامسة والستين ، وقد اقترب موعد لقائك بربك ، وسوف يسألك عن كذا وكذا ، وساعتها لن يكون معك كذا وكذا .

أين اللياقة وأدب الحوار ، بل وأين الفكر فى هذا كله ، ومن هذا كله ؟

إننى أعتذر للقارئ بأننى لم أقرأ الرسائل كاملة ، واكتفيت بنظرة سريعة إلى السطور ، لأننى فوجئت بالكاتب فى الرسالة الأولى يكتب شيئا أذهلنى ، حيث كان يتوقع كما يقول ، أن يبدأ حسنى مبارك عهده بالإفراج عن قتلة السادات ..

هكذا ..

أين حدث هذا إن شاء الله ؟ .

واستنادا إلى أى شرع أو دين أو فكر ..

قتل رئيس الدولة وسبعة معه ، يؤدى إلى براءة المتهمين ؟ ..

لماذا لا يكمل إذن سلسلة مقالاته ، ويبوح بما يعتمل فى صدره ، ويطالب لهم بأوسمة ؟

يبدو أن الكاتب يعيش فى (الباى باى) ، ويتخيل أوهاما دينية لا سند لها إلا الارهاب ، ولا شفيع لها إلا مرض النفوس ، شفاه الله منه وعافاه ..

عندما قتل عبد الرحمن بن ملجم الإمام عليا ، تولى أمره عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقطع يديه ، وقطع رجليه ، وسمل عينيه ، وقطع لسانه ، ثم قتله ، ثم صلبه وأحرق جسده ..

هذا عن قاتل على إمام المتقين ..

فى عهد أبي جعفر المنصور ، كتب الأديب الرائع ابن المقفع (رسالة الصحابة) ناصحا له ، فماذا كان جزاء النصيحة ، مجرد النصيحة ..

اختلفت الروايات يا أستاذ عباس ..

رواية تقول إنهم قطعوا جسده قطعة قطعة ، وأخذوا يشوون القطع على النار ، ويطعمونه إياها حتى مات ..

ورواية أخرى أنهم أحرقوه فى التنور ..

والحديث طويل ، وأئمة الفقه الأربعة ، كان مسموحا لهم فى عهد ازدهار الدولة الإسلامية بالحديث عن الدين ، فإذا تجاوزوا إلى شبهة السياسة ، أو حتى شبهة الاختلاف الفقهى مع فقهاء الخليفة ، نالوا ما نالوه من جلد وضرب وتعذيب ..

الإمام (أبو حنيفة) جلد لرفضه ولاية القضاء ، وقيل إنه مات بعد أن دسوا له السم ..

الإمام مالك ، جلدوه وهو عار ، ولم يستروا عورته ، إمعانا فى إذلاله ، حتى خلع كتفه ، وامتنع عن الذهاب للمسجد بعد ذلك ، خجلا من الناس ، حتى توفاه الله ..

الإمام ابن حنبل ، عذب وجلد ، لرأيه فى خلق القرآن ، على خلاف رأى المعتزلة ، الذى اقتنع به الخليفة المأمون ..

الإمام الشافعى ، تربص به تلاميذ الفقيه فتيان ، فقيه السلطة وضربوه حتى مات ..

والسلسلة طويلة ..

الإمام زيد بن على إمام المذهب الزيدى ، قتل وصلب جثمانه ..
الإمام ابن تيميه ، خرج من سجن إلى سجن حتى مات ..
فلتحمد الله يا أستاذ عباس على أنك تعيش فى عصر ، غير العصر الذى تدعو إليه ، وتظللك الديمقراطية الوارفة بظلها الظليل ، ويحميك القانون (الوضعى) ، مهما تجاوزت ، وتكفل لك الدولة (المدنية) أن تكتب ما تكتب وأنت آمن ..
وإذا لم تستح ، فاكتب فى جريدة الشعب ..

(٤)

مطلوب قانون لتجريم توزيع أشرطة التسجيل التى تحض على الفتنة الطائفية ، وتهدد الوحدة الوطنية .
مطلوب أيضا ألا تسقط هذه الجريمة بالتقادم ..
مطلوب أيضا أن يعاقب المتحدث فى الشريط ، إذا كان حديثه مثيراً للمسلمين ضد الأقباط ، أو للأقباط ضد المسلمين ..
مطلوب أيضا أن يتم إعمال القانون الذى يعاقب على ازدراء الأديان السماوية ، ليس فى حق الكُتّاب وحدهم ، بل فى حق رجال الدين قبلهم ، لأنهم أولى بالعقاب إذا خرجوا على قواعد الدين وقيمه النبيلة ، وعلى رأسها التسامح الدينى ..
لو عاد القارئ إلى ما كتبته فى كتابى (الإرهاب) ، الذى صدر عام ١٩٨٨ لتبين أننا حذرنا من العواقب ، قبل الهنا بسنة ، بل بسنوات ، وحتى يدرك سببا جوهريا من أسباب ما نراه الآن وننكره ، ونفشل أحيانا فى معرفة أسبابه ..
ليقرأ القارئ حتى يدرك أن المخدرات أنواع ، وأن الهيروين ليس أكثرها ضررا ، لأنه على الأقل يصيب الفرد ، أما المخدرات التى سنكتب

عنها الآن ، فهى مدمرة للأمة كلها ..

فى صفحة ٩٤ من الكتاب كان من بين ما كتبته حديث طويل عن شريط كاسيت لشيخ شهير جهير ، منعه الرئيس السادات من العودة إلى منبره . فى الوجه الأول من هذا الشريط يتحدث حديثا سافرا يحرض فيه على الفتنة بين المسلمين والأقباط بشكل لا يحتاج إلى شرح أو توضيح . فهو ينصح المسلمين بعدم مصادقة النصارى لأن أساقفتهم يعلموتهم فى الكنائس كراهية المسلمين ويوصونهم من بين ما يوصون قائلين لهم : (إذا قلبك راق للمسلم خليه بفتة سودة) . والوصية الأخرى : « يا شباب النصارى تعلموا الطب لتبتزوا أموال المسلمين ، وتكشفوا عورات نساء المسلمين ، وتحددوا نسل المسلمين ».

ما أشد الغفلة ، ما أشد غفلتنا ، تعلموا الطب لتبتزوا أموالهم ، وتحددوا نسلهم ، وتكشفوا عورات نسائهم) ، ياإلهى ، حديث لم نتحرج فى نشره لأنه منتشر ، وكما قلت فى مئات الألوف من الأشرطة ، وهو حديث يدفع المسلم إلى أن يمسك بخناق أول قبطى يصادفه عند خروجه من المسجد ، وهو حديث كاذب مختلق لا يسمح قبطى مصرى لنفسه أن يسمعه ، ناهيك عن أن يقوله ، وهو واضح الاختلاق لمثلى أو لمثلك أيها القارئ ، لكن أنا وأنت لسنا مستهدفين ، المستهدف هم البسطاء ، المؤمنون الودعاء ، المعتقدون أن الشيخ إذا وقف على المنبر لا يأتيه الكذب من بين يديه ولا من خلفه . والشيخ يدرك ذلك ويتوجه إلى هدفه فى رقة النمر وخفته ، فيتخلى عن الفصحى ، ويقترب من ذهن البسطاء ووجدانهم بعبارة تناسبهم (إذا قلبك راق للمسلم خليه بفتة سودة) ثم يستدير لكى يطعن طعنته المدمرة (ويكشفون عورات نسائكم) ، نعم إلى هذه الدرجة ، يتفوق الطالب القبطى فى الثانوية العامة ، ويحصل على مجموع كبير ، لكى يدخل الطب ، ويقضى سبع سنوات فى الدراسة

الشاقة ، وهدفه الوحيد من وراء ذلك ، الفرجة على عورات النساء ، وأى نساء نسائنا ، يا إلهى ، ونتعجب بعد ذلك إذا حدثت فتنة طائفية ، ولم يحاسبه أحد على أقواله حتى الآن ، وشرائطه مازالت تباع دون مصادرة أو قيد ، ودون رقابة تصادر ، أو شرطة تمنع ، أو تحقيق يجرى ، بينما ترتج المصنفات وتخرج الحملات ، وتسود المحاضر ، لأغنية لعدوية أو لطقطوقة لليلى نظمى ، أو لعبارة تهدد أمن المجتمع ووحدته مثل السلم نايلو فى نايلو ، ودون رد من علمائنا الأجلاء ، الذين ينشغلون أحيانا بالتوسط لدى وزير الأوقاف لعودة الأئمة المبعدين عن منابرهم ومن بينهم ، بل على رأسهم الشيخ الشهير ، الأشهر من أن يقع تحت طائلة القانون ، ودون أن تتعرض لذلك الصفحات الدينية بالصحف والبرامج الدينية فى الإذاعة والتليفزيون وترد عليه ، بدلا من أحاديث الختان وحرمة معاشرة الجان ..

لا يغرنكم أن الشجرة خضراء ، وأنها واقفة ، وأن ظلالها وارفة ، فقد تعلمنا فى الزراعة أنه أحيانا يحدث هذا ، بينما دود الأرض يأكل الجذور ، وساعتها يفاجأ الجميع بالانهيار ..

ما ذكرته كله يربطه خيط وإن كان خيطا رفيعا ..

كل شيء جميل ونبيل فى حياتنا يتم محوه الآن ، أو على الأقل محاولة محوه ، بالأستيكة ..

حقوق المرأة يحاول البعض محوها بالأستيكة ..

حقوق الطفل يحاول البعض محوها بالأستيكة ..

التقليد العظيم المتمثل فى احترام رئيس الدولة ، لأنه رمز للدولة ، وهو احترام لا يفرضه القانون ، ولكن تفرضه الأعراف والقيم والمبادئ والتاريخ بل والجغرافيا أيضا ..

هذا التقليد يحاول البعض محوه بالأستيكة ..

الوحدة الوطنية ، أعظم إنجازات الوطن فى تاريخه ..
يحاول البعض محوها بالأستيكة ..
غنِّ معى يا عزيزى القارئ ..
تيكة تيكة ..
كله بيمسح ..
بالأستيكة ..
كله بيرجع ..
وبيتغطى ..
بالبولوتيكة ..
تيكة تيكة ..
والسلام عليكم ورحمة الله ..

رسالة عتاب
لكاتب قدير

مطلوب من القارئ ألا يحترم الكلمة المكتوبة .

مطلوب منه عند قراءته لأى مقال ألا يصدق ما ورد فيه ، لأنه من الممكن أن يأتى نفس الكاتب بعد أسبوع ، ويكتب فى نفس المساحة ما نصه أو ما معناه ، أو ما مفهومه ، (ضحكت عليك أيها القارئ ، عليك واحد) .

هذا هو الدرس الذى نقله إلينا كاتب كبير قدير ، تعودنا أن نختلف معه ونحترمه فى ذات الوقت ، وهو الأستاذ فهمى هويدى .

بدون مقدمات فاجأنا فى الاهرام بتاريخ ١٩٩٢/٥/١٢ بمقال ساخن ، عنوانه (تقرير عربى عن الفتنة الأمريكية) ، وذكر فيه أنه كان فى الولايات المتحدة ، وحضر المؤتمر الصحفى الذى انعقد فى البيت الأبيض ، وسمع بأذنيه أن جماعة من الأصوليين الإسلاميين . يطلق عليها اسم (البلاليين) نسبة إلى بلال مؤذن الرسول ، كانت وراء ما حدث فى لوس انجلوس وغيرها .

الكاتب يذكر أن الزنجى الذى اعتدى عليه البوليس بالضرب المبرح ، كان مستأجرا بواسطة الجماعة ، وهو الذى بدأ الاعتداء ، ولم يكن صاحب كاميرا الفيديو الذى صور الحادث موجودا بالمصادفة ، بل كان موجودا بقصد وترتيب من نفس الجماعة ، وقد تم مسح بداية

الشريط وفيها يبدأ الزنجي بالاعتداء ، ويبقى الجزء الأخير المثير ، الذى يثبت اعتداء الشرطة .

الكاتب الاسلامي الكبير ، فهمى هويدى أضاف أن لدى أجهزة الاستخبارات الأمريكية مايثبت ذلك بالصور ، فقد شوهد بعض الملتحين يوجهون الزنوج لتخريب أماكن محددة ، كما شوهد الزنجي المعتدى عليه والآخر الذى قام بتصويره يترددون على أحد مساجد الأصوليين ، ثم أضاف أن الأمر يتعدى الحوادث المحدودة إلى التنظيم الجماعى العالمى الدقيق ، الذى يشارك فيه عمر عبد الرحمن والغنوشى ، ولم يذكر اسميهما مكتفيا باشارة واضحة فى مقال الأهرام ، وإن كان البعض قد ذكر لى أنه ذكر الأسماء فى نفس المقال الذى ينشر فى نفس اليوم بالصحف العربية .

كاتب يكتب هذا ويذكر فى بداية المقال أنه – ولا فخر – أول من ينشر القصة الحقيقية الكاملة لما حدث فى المدن الأمريكية ، وأول من ينشر ما وراء الأحداث من أسباب وتفصيلات ، ويؤكد أنه سمع ذلك بأذنيه ، وأنه ناقل أمين لما سمع ، ثم ينهى مقاله بقوله إنه – ولا فخر أيضا – يسجل السبق الصحفى فى نقل هذه الحقائق ، ويتعمد (وهذا هو ما يحزن حقا) أن تكون آخر كلمات المقال ، تلك العبارة السامية الرائعة (ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد) .

ماذا يتوقع مثل هذا الكاتب من القارئ العادى وغير العادى ، وقد أشهد الله على ما يقول .

وحدثت المفاجأة

فقد كتب الأستاذ هويدى فى الأسبوع التالى بتاريخ ١٩٩٢/٥/١٧ مقالا جديدا ذكر فيه أن هذه القصة كلها كانت من نسج خياله ، وأنها –

ولا فخر – ليست حقيقية ، وأنه تعجب حين صدقها الناس – هكذا – ومعنى هذا أن الناس ظالمون ، ومغرضون ، لأنهم يصدقون أى شىء يقال ضد التيار السياسى الدينى مهما بلغت درجة غرابته أو شذوذه .

هكذا بكل بساطة ، وعلى صفحات الأهرام العريقة ، التى تعودنا منها الجدية والصدق ، وأمانة النقل ، (شنكل) الكاتب قراءه ، وأخذهم (مقص) ، وتلاعب بهم على مدى أسبوع كامل ، حتى يثبت أن المجتمع كله فاسد النفس ، ظالم القصد ، سيىء الطبع ، ملىء بالشك والعقد النفسية ، سادى النزعة ، يحكمه هواه عندما يكون الحديث عن (الاسلاميين) ، وأشهد أننى فى حياتى كلها لم أقرأ شيئا كهذا ، ولعلى لا أجد وصفا لهذا أيضا .

ولهذا صدقنا الكاتب الكبير

صدقناه أولا لأنه كاتب إسلامى ، ومن آداب الاسلام صدق الكلمة . والنأى عن شهادة الزور .

الكاتب (الاسلامى) إذا قال صدق ..

وإذا ذكر لنا أنه شاهد ، فشهادته – ولا فخر .. حق وعدل .

وصدقناه لأنه أشهد الله على بلاغه ، والذى يشهد الله لابد وأن يكون صادقا ، ويستحيل أن نتصور كاتبا إسلاميا يجرؤ على أن يشهد الله على دعاية ، أو أكذوبة .

وإذا كان هذا يكفى لتبرير الوقوع فى الشرك الذى نصبه لنا الكاتب الكبير ، فإن هناك من الأدلة فيما ذكر ، مايدفع أمثالى إلى تصديق القصة بأكملها .

القصة تبدأ بخداع وكذب وتلفيق ، وهذه سمة من سمات التيار الذى يتحدث عنه .

عندما حاول البعض اغتيال وزير الداخلية الأسبق اللواء حسن أبو باشا . لفقوا له أنه كان يدوس المصحف بقدميه .

عندما هاجموا حفلا غنائيا فى جامعة القاهرة ، تحييه فرقة (المصريين) أشاعوا أن المغنى (هانى شنودة) يفرش أرض المسرح بصفحات القرآن (ويدبدب) عليها هو وفرقته .

عندما حرقوا المحلات والصيدليات وممتلكات الأقباط فى المنيا أشاعوا أن الأقباط يملكون شقة (الكترونية) مجهزة بأجهزة سرية ، لتصوير المسلمات عاريات ، حتى يتاح لأهل الذمة اغتصابهن تحت سيف التهديد .

عندما أشعلوا الفتن قبلها بسنوات فى قرى ومدن الصعيد ، أشاعوا قصة (الاسبراى) الذى يرشه الأقباط على ملابس المحجبات ، فيتطاير فى الهواء وتبقى منه (صلبان) لا تظهر إلا بعد (الغسيل) .

تلفيق التهم إذن أحد خصائص هذا التيار المأثورة .. الكذب والاختلاق إذن إحدى وسائل هذا التيار المعروفة .

تزوير الحقائق إذن أحد أساليب هذا التيار المتداولة .

ما الذى يمنع إذن من تزوير فيلم ضرب الزنجى ، بإخفاء بدايته التى اعتدى فيها الزنجى على الشرطة ، واظهار رد الفعل وكأنه الفعل الوحيد . والتركيز على رد الاعتداء ، وتزييفه بحيث يصبح اعتداء ، وبحيث تنعكس الحقائق ، ويصبح الحق باطلا ، والباطل حقا .

أيلومنا الأستاذ هويدى بعد ذلك إذا صدقناه ، وقد ساق إلينا كذبا تعودناه منهم ، وتلفيقا عرفناه عنهم ، وتزييفا للحقائق لم نعرف غيره منهم ، ولم نعرف سندا له غيرهم ؟ !

والإرهاب دليل لا يكذب

فالذى حدث فى المدن الأمريكية كان مزيجا من جرائم متعددة .. كانت هناك سرقة المحلات ، فاندفعت ذاكرتنا إلى سرقة محلات الصاغة فى نجع حمادى وشبرا الخيمة والزيتون ومحاولة سرقة أحد البنوك فى المنصورة .

وكان هناك حرق للمحلات فتذكرنا حوادث نوادى الفيديو .

وكان هناك تدمير للأماكن العامة ، فتذكرنا تدمير المحلات والصيدليات وأماكن السكنى والعبادة فى المنيا وأبى قرقاص وامبابة .

وكان هناك اعتداء وحشى على الآمنين ، فطفت على ذاكرتنا الجنازير والمواسير الحديدية ، والخناجر والسنج ، وهى جزء من (أدبيات) هذا التيار على مدى السنوات الطوال السابقة .

وكان هناك قتل لمن لا ذنب لهم ، فتذكرنا أحداث قتل مائة جندى وضابط فى أسيوط صباح عيد الأضحى ، عقب قتل الرئيس السادات ، دون ذنب جناه واحد منهم ، وانتعشت ذاكرتنا بحوادث منشية ناصر الأخيرة .

أيلومنا الأستاذ هويدى بعد ذلك إذا صدقناه .

وهناك دليل آخر

فعلى العكس مما حاول الأستاذ هويدى أن يثبته لنا فى مقاله الأخير يبدو لنا أن الارهاب الدولى سمة أخرى من سمات التيار الذى يتحدث عنه ، فإيران لم تنف عن نفسها أبدا تهمة تصدير الارهاب ، وإن كانت أسمته (تصدير الثورة) ، ومسلسل خطف الرهائن الغربيين فى لبنان ، لصالح إيران مخطط معروف ومشهور ومتواتر ، والذين شاركوا فى الحرب الأفغانية بدأوا يعودون إلى بلادهم ومعهم خبرتهم العسكريه التى يحاولون

توظيفها لقلب نظم الحكم ، ومثال الجزائر واضح ، والطموح لزعامة شبكات الإرهاب الدولية محل نزاع بين قيادة الأخوان فى (ميونيخ) وبين قيادة الترابى فى الخرطوم .

الارهاب الدولى الذى ينطلق من مظلة أو مظنة العداء للحضارة الحديثة له إذن سنده ومظاهره ، والعالم كله لم يعد يسمع عن محاولات اغتيال الحكام بصورة متواترة إلا فى بلادنا ، وتحت راية واحدة للأسف الشديد هى راية الإسلام السياسى ، والعالم كله لم يعد يسمع عن مطاردات الكتاب والحكم بقتلهم بسبب آرائهم أو معتقداتهم إلا فى بلادنا وتحت نفس الراية .

ما الذى يمنع إذن من تصديق أن الارهاب الدولى قد انتشر هذه المرة ، وطال أرض الولايات المتحدة ..

الأقرب للمنطق هو التصديق وليس التكذيب ، والقبول وليس الانكار ، والموافقة- وليس الرفض ..

ويبقى لنا عتاب ..

وهو عتاب يمليه علينا أدب الإسلام الرفيع ، الذى علمنا ألا تمر علينا ليلة واحدة ، وفى نفس المسلم منا شيء نحو أخيه ، والأستاذ هويدى أخى فى الوطن وفى الإسلام ، ولو كان العتاب شخصيا ما ذكرناه هنا ، لكنه عتاب يتعلق بحق من نتوجه إليه ، أنا والأستاذ هويدى ، وأقصد به القارئ فى أن يصل إلى الحقيقة دون لبس أو تزيين أو إضافة أو حذف ، ويعلم الله أننى قد اخترت هذه الألفاظ بدقة وعناية ، احتراما ومودة ، وبديلا عن ألفاظ أخرى أصدق فى وصف ما حدث ..

لقد أشار الأستاذ هويدى إلى ما أكتبه أكثر من مرة دون ذكر الاسم ، وقد أرسلت إليه منذ سنوات أكثر من رد ولم ينشره ، وهذا تقديراته وموازناته ، لكن الحادثة التى أفزعتنى حقا ، هى نشره لأخطاء تاريخية

واضحة فى أحد مقالاته ، ورفضه أن ينشر تصحيحا لها أرسلته إليه ..

الأمر هنا يخرج عن الخلاف إلى حق القارئ فى المعرفة ، وإلى واجب جريدة الأهرام فى تصحيح الخطأ ، وأعترف أن فى نفسى شيئا من هذا الموقف ، ولهذا أستسمح القارئ فى نشر ما ذكره الأستاذ هويدى ، وما عقبت به عليه ..

فلتكن خاتمة المطاف أن أنقل للقارئ نص الرسالة التى أرسلتها للأستاذ هويدى ، ولم ينشرها ، وعنوانها (مع خالص الاعتذار) ..

(أشهد أننى منذ سنوات طويلة ، لم أقرأ فقرة قصيرة ، حفلت بأخطاء تاريخية كثيرة ومثيرة ، كما حدث عندما قرأت للأستاذ الكبير فهمى هويدى فى مقاله (إنكار فى الحاضر واهدار للماضى) ما نصه :

« والذين جاءوا بعد معاوية كانوا على الجملة أهل حكمة وسداد وعلم وحزم ، مروان بن الحكم انتخب فى ظل شورى حقيقية ، تحت فى مؤتمر عقده أهل الرأى بالشام ، واستمر ثلاثين يوما فى بلدة « الجابية » – بين الأردن ودمشق – حيث رجحت كفته على عبد الله بن الزبير وخالد بن الوليد وكان مروان شيخ قريش فى زمانه ، وكبير بنى أمية ، وعرفت عنه الكفاءة والشجاعة والتفوق فضلا عن أنه يعد من الطبقة الأولى للتابعين ، الذين تلقوا معارفهم على أيدى الصحابة ..

ابنه عبد الملك ، الذى تولى الخلافة بعده . كان من أعظم الناس عدالة كما يقول ابن خلدون ، فوق كونه من أفقه أهل زمانه ، حتى احتج الإمام مالك بفعله فى كتابه « الموطأ » وفى عهد خلفه الوليد بن عبد الملك ظهرت عظمة الدولة الإسلامية ، ويذكر له أنه لم يعهد بالخلافة من بعده لأحد من أولاده وإنما عهد بها إلى أفضل أهل زمانه ، عمر بن عبد العزيز الذى هو أجلُّ من أن يعرَّف ..

ولا نريد أن نستطرد ، فنفصل فى بقية المسيرة الظافرة التى استمرت

حتى العصر العباسي الأول » .

لقد حفلت الفقرة السابقة بالأخطاء التاريخية التالية :

أولا : ذكر الأستاذ هويدى أن الوليد بن عبد الملك عهد إلى عمر بن عبد العزيز بعده ، والصحيح أن الوليد عهد إلى أخيه سليمان بن عبد الملك تنفيذا لوصية والدهما عبد الملك بن مروان ، واستمر حكم سليمان بعد الوليد سنتين وستة أشهر وخمسة عشر يوما ..

ثانيا : ذكر الأستاذ هويدى أن خالد بن الوليد كان منافسا لمروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير عندما اختير مروان فى « الجابية » والصحيح أن خالد بن الوليد مات قبل هذا التاريخ بأربعين عاما ، وبالقطع فإن الأستاذ هويدى يشاركنا الرأى فى أن أرواح الموتى لا تشارك فى الشورى . ناهيك عن المنافسة على الخلافة ..

ثالثا : الحديث عن كفاءة مروان وتقواه ينقضه ما أجمعت عليه كتب التاريخ (راجع الطبرى وابن كثير وابن الأثير والمسعودى) من أنه كان وراء أخطاء عثمان ، وأنه كان دائم الإفساد لمحاولات على بن أبى طالب لإصلاح ما بين المسلمين وخليفتهم ، وهو صاحب القول المشهور قبيل قتل عثمان (جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من بين أيدينا ، اخرجوا عنا - « الطبرى - جزء ٣ - ص ٣٩٧ ») ولعله أول قول يصف الخلافة بالملك ، وهو القول الذى عجل بفجيعة قتل ثالث الخلفاء الراشدين ، ولا بأس أن نذكر الأستاذ هويدى بما تجمع عليه كتب التاريخ من أن مروان كان صاحب السهم الذى أصاب طلحة بن عبيد الله ، المبشر بالجنة ، وزميل مروان فى جيش عائشة ، وحسبنا ذلك دليلا على تقوى مروان ، وصلاحه ..

رابعا : ساق الأستاذ هويدى واقعة اختيار مروان بن الحكم فى « الجابية ، كمثال للشورى الصحيحة ، وأوحى ظاهر لفظه بأن الأمر كان

اختيارا بين مروان وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير ، أما خالد بن الوليد فقد صححنا الأمر بالنسبة له . والصحيح أن المقصود هو خالد بن يزيد بن معاوية ، ولم يكن الأمر شورى كما ذكر الأستاذ هويدى ، بل كان مؤامرة أموية ، دبرها عمر بن سعيد الأشدق بعد وفاة معاوية بن يزيد . أو (قتله على الأرجح) مقابل وعد من مروان بتوليته وليا ثانيا للعهد بعد خالد بن يزيد ، وذلك لمواجهة نفوذ عبد الله بن الزبير وسيطرته على أغلب ديار المسلمين عدا الشام ، ويصف المسعودى فى كتابه مروج الذهب (جزء ٣ – ص ٩٥ – دار المعرفة) اختيار مروان فى الجابية بمايلى (وكان مروان أول من أخذها بالسيف كرها على ما قيل بغير رضا من عصبة من الناس – بل كل خوفه إلا عددا يسيرا حملوه على وثوبه عليها . وقد كان غيره ، ممن سلف أخذها بعدد وأعوان ، إلا مروان فإنه أخذها على ما وصفنا) ، أين الشورى إذن والايحاء بأن المسلمين قضوا شهرا فى الجابية فى الأردن يقلبون الأمر على وجوهه ويختارون بين ثلاثة يعرضون أنفسهم عليهم (مروان ، وروح خالد بن الوليد ، وعبد الله بن الزبير) ، ولا بأس أن يعلم القارئ كيف انتهى الأمر بشورى الجابية فلم تنقض خمسة أشهر حتى نقض مروان عهده لخالد بن يزيد وللشدياق من بعده ، وأحضر حسان بن مالك ، وأرغبه ورهبه ، فقام حسان فى الناس خطيبا ودعاهم إلى بيعة عبد الملك ابن مروان بعد مروان وبيعة عبد العزيز ابن مروان بعد عبد الملك فلم يخالفه فى ذلك أحد (مروج الذهب للمسعودى – جزء ٥ ص ٩٧) .

خامسا : ليس صحيحا أن من عهد إلى عمر بن عبد العزيز هو الوليد ، والصحيح أنه سليمان بن عبد الملك ، وأسباب العهد إلى عمر لم تكن التقوى والورع فقط ، بل يضاف إلى ذلك ثلاثة أسباب توردها كتب التاريخ ، أولها صغر أبناء سليمان بما لا يمكنهم من القيام بأعباء الحكم

وثانيها أن الوليد (شقيق سليمان والخليفة السابق له) كان قد أراد نقض البيعة لسليمان خلافا لعهده لأبيه ، وتولية ابنه من بعده ، فعارض عمر بن عبد العزيز فى ذلك ، فحبسه الوليد فى غرفة سد منافذها حتى يهلك اختناقا ، ثم عفا عنه بعد ذلك وتراجع عن فكره تولية ابنه فحفظها له سليمان ، وثالثها أن عمر بن عبد العزيز لم يكن بعيدا عن الخلافة بحيث تصبح توليته مفاجأة ، فوالده عبد العزيز بن مروان كان ولى عهد عبد الملك ، ولولا وفاة عبد العزيز قبل عبد الملك لآلت إليه الخلافة ثم إلى عمر ، ولما وصلت إلى الوليد أو سليمان ، والمفاجأة الوحيدة فى تولية عمر ابن عبد العزيز أنه كان صالحا بأكثر مما هو معروف عن بنى أمية وتقيا بأكثر مما هو مطلوب لخليفة من شاكلتهم ، ولعل هذا ما دفع سليمان إلى العهد بالحكم إلى يزيد بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز ، حتى يفسد ما أصلحه عمر ، فتعتدل الكفة ويستقيم الميزان ، وهو ما حدث بالفعل دون زيادة أو نقصان ..

سادسا : لعل أغرب ماورد فى الفقرة السابقة ، حديث الأستاذ هويدى عن عدل عبد الملك بن مروان وفقهه فى الدين وتقواه (حتى احتج الامام مالك بفعله فى الموطأ) . ولعلى أذكره بأن اليد اليمنى لعبد الملك كان الحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى قتل من المسلمين مالم تقتله جيوش الفرس أو الروم ، والذى كان أول من رمى الكعبة بالمنجنيق ، وهدمها على من فيها دون أن ينكر عليه عبد الملك ذلك ، بل إن آخر وصايا عبد الملك لخليفته الوليد ، أن يلزم الحجاج وأن يحفظ له صنيعه فى الدفاع عن ملك بنى أمية ، ويؤثر عن عبد الملك أنه خطب عام حج سنة خمسة وسبعين للهجرة على منبر الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة قائلا (والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه) — راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى — ولابن كثير فى كتابه الشهير (البداية

والنهاية – جزء ٩ – مجلد ٥ – ص ٦٧) رواية طريفة تقول (انه لما سلم على عبد الملك بالخلافة كان فى حجره مصحف فأطبقه وقال : هذا فراق بينى وبينك) ، ومادمنا فى مجال الحديث عن فقه عبد الملك وتقواه ، فقد روى عنه أنه نهى عن ذكر عمر بن الخطاب وسيرته لأن سيرة عمر فى رأيه (مرارة للأمراء – مفسدة للرعية) – المرجع السابق ص ٧١ .

سابعا : لعل القارئ يلاحظ انتقال الأستاذ هويدى فجأة من ذكره لمعاوية إلى ذكره لمروان بن الحكم ، متخطيا يزيد بن معاوية ، الذى حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر ونصف بينما لم تزد فترة حكم مروان عن ثمانية أشهر وخمسة أيام حتى يتجنب ذكر مقتل الحسين أو واقعة ذى العرة التى استباحت فيها جيوش يزيد المدينة وقال فيها شعرا أنأى بمشاعر القراء عن ذكره ، كما يلاحظ القارئ أيضا انتقال الأستاذ هويدى من عمر بن عبد العزيز إلى صدر الدولة العباسية متحاشيا ذكر يزيد بن عبد الملك الذى قتله عشقه لجاريته (حبابة) ولهشام بن عبد الملك (الذى قتل يزيد ابن على بن الحسين وصلبه عريانا) وللوليد بن يزيد الذى كان يهوى رشق المصحف بالسهام ويقول فى ذلك شعرا وكم أتمنى على الأستاذ هويدى أن يفعل ما ذكر أنه يوده من استطراد فى وصف المسيرة الظافرة ، غير أنى منصف له من حيث لايحتسب ، فمعاوية وعبد الملك والمنصور والمأمون عظماء ما فى ذلك شك ، لكن ليس بمقياس الدين والعقيدة ، بل بمقياس الدنيا والسياسة والحكم . وهذا جوهر مانختلف عليه ، ويبقى علىَّ فى النهاية واجب الشكر للأستاذ هويدى لأن مقاله أتاح لنا تصحيح ما سلف من أخطاء ، ولعلها أخطاء مطبعية ، أو لعلها كبوة جواد عظيم ، ولا بأس ولاضير ، ففوق كل ذى علم عليم) ..

أيلومنى القراء بعد ذلك إذا غضبت ، ليس من أجلى بل من أجلهم ومن أجل الحقيقة .

اللهم لا حسد

اللهم لا حسد .
هكذا الدنيا على رأى الأستاذ محمود السعدنى .
إذا أقبلت (باض الحمام على الوتد) .
وإذا أدبرت (بال الحمار على الأسد) .
وقد أقبلت بالنسبة لعلماء النفس فى مصر .
وأدبرت بالنسبة للعقلاء فى بلدنا المحروسة .
أقبلت بغير حد .
وأدبرت بغير حد .

* * *

الجنس يلعب دورا أساسيا فى تفسير السلوك .
هذا رأى فرويد .
والمشكلة أننا نواجه الجنس بمزيج من المشاعر .
أحيانا نواجهه بالخجل الشديد .
وأحيانا أخرى بالتجاهل الأشد .
حادث العتبة كان محوره الجنس .
وقد ناقش الجميع تفاصيل الحادث
تحدثوا عن الفتاة .
وتحدثوا عن الفتى .
تحدثوا عن الجريمة .

وتحدثوا عن العقاب .

تحدثوا عن أدق التفصيلات .

ولم يتحدث عن المشكلة الجنسية أحد .

معنى هذا أن المشكلة سوف تتفاقم .

وسوف تتعقد .

وسوف تشتد .

والرابح فى النهاية عيادات الطب النفسى .

واللهم لا حسد .

* * *

الجماعات الظلامية لها من المشكلة الجنسية نصيب .

صحيح أنها ظاهرة احتجاج سياسى .

لها أسبابها الاقتصادية والاجتماعية .

ولها أيضا غطاؤها الدينى نتيجة تفسيرات صبيانية .

الا أن الجنس يلعب دورا مؤثرا فى التفكير والسلوك .

فى تونس أدركوا هذه الظاهرة .

لا يوجد تونسى واحد لم يسمع عن أو لم يشاهد شريط (على العريض) .

ثالث قيادات جماعة النهضة .

الشريط لدى وهو شريط فيديو بشع شاذ .

منذ شهرين تلقيت شريط فيديو آخر .

بطل الشريط هذه المرة هو الأستاذ عبد الفتاح مورو .

المؤسس الأول لحزب النهضة ونائب الرئيس .

الأستاذ مورو يناضل بطريقته وفى مكتبه مع صديقة تونسية بالغة الجمال .

ضاق بهما المكان فلجآ إلى الأرض .
ولم يجدا ما يفترشانه سوى سجادة الصلاة .
البعض لام الدولة لتسجيلها الشريط .
لكن الأستاذ مورو استحق اللوم الأشد .
لم يقف معه أحد .
ناشدته الصحف أن يلجأ للقضاء .
صمت ولم يرد .
ماذا يكسب الإنسان إذا ربح حزبا وتأثيرا وخسر نفسه .
ماذا يبقى للحزب إذا الرأس فسد .

* * *

فى سمالوط منذ خمس سنوات حرمت الجماعات أكل (الكوسة) والباذنجان .. حجة الجماعة أن (الكوسة) يتم حشوها
وكذلك الباذنجان .
وفى الحشو إيحاء جنسى ، هكذا زعم الصبيان .
إذن فالبائع يستحق الجلد .
والمشترية تستحق أن يقام عليها الحد .
انتهت القصة حين لم يستمع إليهم أحد .
الحق أقول للقارئ إننى شعرت بتعاطف شديد معهم .
البطالة وأزمة الاسكان وارتفاع المهور وغريزة الجنس لا ترحم .
إذا اغتصب أعدموه .
إذا هتك العرض طالبوا بإعدامه .
إذا عالج مشكلته بنفسه أفتوا بحرمة ما فعل .
فلتختف المرأة من أمامه .
وأد البنات حرام .

إذن فليكن النقاب هو الحل .
ولتدفع المرأة الثمن .
بيد أن الغريزة باقية .
وهى غريزة لا ترحم .
والكوسة والباذنجان لا بواكى لهما .
إذن فلتدفع الكوسة الثمن .
وليدفع الباذنجان الثمن .
ولن يبكى على الكوسة أحد .
ولن يبكى على الباذنجان أحد .

* * *

منذ أوائل القرن ونحن نلعب كرة القدم .
أطربنا رفعت الفناجيلى .
وأمتعنا أبو جريشة .
وأسعدنا الخطيب .
كانت عيوننا تتابع الكرة ولا أكثر .
وظهرت الجماعات الظلامية وغريزة الجنس لا ترحم .
تابعنا الكرة وتابعوا أفخاذ اللاعبين .
كنا نهتف هذا لاعب فذ .
وكانوا يهتفون هذا لاعب فخذ .
كما نهتف باللاعب اقذف الكرة فى المرمى .
أصبحوا يهتفون باللاعب ، غط فخذك أيها الداعر .
اكتشفنا فجأة أن فخذ اللاعب عورة وفتنة .
الأحاديث الدينية الصحيحة تنفى ذلك .
كتبنا هذا ووثقناه .

لم يستمع إلينا أحد .
انصرفت أذهانهم إلى (فتنة الأمرد) .
الفتى الأمرد هو الفتى صغير السن .
أمامى كتاب من كتب زماننا السعيد .
يقول الكاتب إن فتنة الفتى الأمرد تعادل فتنة سبعين امرأة .
فى الملعب يوجد ٢٢ لاعبا .
فتنة كل منهم تعادل سبعين .
أكثر من ألف وخمسمائة فاتنة تلهب خيال صبية الجماعات .
ناهيك عن الحكم ومراقبى الخط .
أما الاحتياطى فيا ألطاف الله .
فتنة ، فتنة ، فتنة .
مجتمع كافر لا يرحم .
ألف وخمسمائة فاتنة فى ملعب صغير .
أزمة اسكان وبطالة وارتفاع مهور .
كبت وألم .
ومعاناة بغير حد .

* * *

بعض كبار الفقهاء أصابهم المد .
أحدهم أفتى ألا يجلس رجل مكان امرأة فى الاتوبيس الا بعد مرور دقائق عشر .
الحكمة هى أن تختفى حرارة الجسد .
آخر أفتى بكراهة تشريح الطبيبة لجثة الرجل .
ثالث أفتى بحرمة أن تخلع الفتاة ملابسها أمام كلب ذكر .
رابع أفتى بحرمة الموسيقى اذا اهتز الجسد .

جسد .. جسد .. جسد ...
من يفتى معنا بحرمة هذا البلد .
من يحترم معنا والدا وما ولد .
من يدرك معنا أن الإنسان خلق فى كبد .
وأن الحرمان كبد .
وأن الكبت كمد .
أيحسب هؤلاء أن كرامة الإنسان قد ضاعت سدى .
أيحسب هؤلاء أن لن يقدر عليهم أحد .

* * *

جريدة مايو بتاريخ ٢٥ مايو ١٩٩٢ نشرت الموضوع التالى الصفحة الثانية .. جلست الفتاة المنقبة أمام لجنة الفتوى فى دار الافتاء .
بكت الفتاة بدمع سخين .
الفتاة تحمل مؤهلا متوسطا .
الملهاة أنها تزوجت أمير الجماعة .
المأساة أنه طلقها بعد شهور أربعة .
المأساة الأكبر أنه زوجها فى اليوم التالى لنائب الأمير .
تكررها مرة أخرى (فى اليوم التالى) .
سألته عن شهور العدة فأخبرها أن القرآن يذكر أنها ثلاثة قروء .
القروء معناها الشهور .
فضيلة (أمير الجماعة) فسر القروء بأنها قراءة القرآن الكريم .
ذكر لها أنه قرأه ثلاث مرات فى ليلة واحدة .
استمع الشيخ الجليل للقصة وهو منذهول .
ساد الصمت القاعة والفتاة تتساءل عن مصير الولد .
ابن من سيكون ؟!

ابن الأمير أم ابن نائبه .
القصة نسخة كربونية من قصة مماثلة لفتاة الغردقة .
كانت مشكلة كتبها الأستاذ ضياء الدين بيبرس على صفحات هذه المجلة منذ أكثر من عام .
كان العنوان على ما أتذكر (النصب باسم الإسلام) .
الفرق الوحيد بين القصتين أن الفتاة الأولى من الغردقة .
والثانية من القاهرة ، وأن الأولى جامعية والثانية تحمل مؤهلا متوسطا .
فى الحالين سؤال عن مصير الولد .
أزمة الاسكان والبطالة وارتفاع المهور والجنس لا يرحم .
فى الزمن البعيد السعيد لم تكن هناك مشكلة .
كان الزواج غالبا بأربع .
وكان التسرى بالجوارى بغير حد من عدد .
كان التسرى دون قيد .
الراغبون فى استعادة التاريخ ينقلون سطرا ويتركون سطرا .
وليس ثم من بديل .
كل الحوار ينتهى لحارة سد .

* * *

ماذا أقول لسائلى عن حل .
أعرف من بلغوا سن الأربعين دون علاقة سوية .
أعرف أيضا أن الأسباب شتى .
لكنى ألمح ذلك المارد خلف كثير من ظواهر السلوك .
تدفعنى رغبة عارمة إلى المداعبة وإثارة الابتسام .
لكنى حزين فعلا ومتألم .

حتى الحضارة الإنسانية لم نعد نرى فيها سوى هذا المارد .
الحرية الجنسية ، الدعارة ، الانحلال ، الإيدز ، الشذوذ .
هذه هى مفردات الحضارة فى أذهان الكثيرين منا .

لا شيء عن الوصول للقمر ، ولا عن الكمبيوتر ، ولا عن الهندسة الوراثية . ولا عن تقدم وسائل الاتصال ، ولا عن النظافة والنظام واحترام الوقت وأداء العمل .

لا شيء .

حتى عندما يذهب إليهم شبابنا ، يذهبون وفى ذهنهم غزو هذا العالم الجديد ، بأسلوب وحيد .

لست أدرى حقا أيها أفضل .
الذى يعيش بالجنس ؟.. أم الذى يعيش للجنس ؟
مثل هذه الأسئلة مزعجة ، لأن لغتنا الجميلة تكفلت بالاجابة .
لغتنا هى لغة (أفعل) التفضيل .
نحن الأروع والأعظم والأفضل والأرقى والأحسن .
أحسن .
لا داعى لإرهاق الذهن .
لا داعى لكشف الغطاء .
فليس فينا من يحب النقد .

* * *

الشيء بالشيء يذكر .
الصحف الدينية تقود حملة على (التبرج) .
منطقهم بسيط .
هتك العرض سببه هياج الشبان .
وهياج الشبان سببه تبرج المرأة .

فى المجتمعات القديمة كانت المرأة تستتر .

وكانت النتيجة عشرات الكتب فى فتنة الأمرد .

فى العصر العثمانى كانوا يجمعون المكوس من بيوت الدعارة .

فى نهاية العصر العباسى الأول وطوال العصر العباسى الثانى كانت بغداد تمتلىء بالحانات ، والمراقص ، وكان فى بغداد وحدها فى عصر المأمون مائة حانة (للغلمان) . وفيها كما يقول أبو حيان التوحيدى فى كتابه (الامتاع والمؤانسة) ، كان يفتضح أصحاب النسك والوقار ، خاصة عندما يخرج عليهم الأمرد ، ويفك أزراره ، ويفتح إزاره ، ويقول أقبلوا علىَّ يا أسيادى .

أحيانا أسأل نفسى ما الذى تغير .

هل اكتشفنا إسلاما جديدا منذ ربع قرن .

هل التركيب الفسيولوجى لغدة البروستاتا كان مختلفا لدى الآباء والأجداد عنه لدينا .

أم أنه أسلوبنا القديم المعروف .

لابد من شماعة نعلق عليها مشاكلنا وأخطاءنا .

الشماعة هذه المرة هى المرأة .

تثور مشاعرنا فنطالبها بلزوم المنزل .

تفور دماؤنا فنطالب بالنقاب وما هو أكثر .

تشتعل غرائزنا فنطالب بالعقاب على التبرج ، بل أيضا على السفور .

المرأة هى الشماعة .

ولا تفسير لذلك إلا اعتقادنا بأنها أضعف .

وأننا كشرقيين .

من حقنا أن نفرض عليها ما نراه .

ومن واجبها فى تقديرنا ألا ترد .

* * *

لماذا نطالب الآن بإلغاء المرأة .
لماذا لا يطالب الجوعى بإلغاء الطعام .
لماذا لا يطالب (العطاشى) بإلغاء الماء .
السبب منطقى .
لا يستطيع الإنسان العيش بغير طعام أو شراب .
لكنه يستطيع أن يعيش بغير جنس .
وفى هذه الحالة سوف يعيش .
ولكنه لن يدع غيره يعيش .. وهذا ما نحصد .

* * *

يا وزير الصحة مطلوب منك أن ترد .
طالبتك فى مقال سابق بدعم المهدئات الجنسية ولم ترد .
عدم استجابتك هذه المرة تهدد الأمن القومى .. الأمن القومي مهدد .
الارهاب يزيد .
والتطرف يشتد .
والحل فى يدك .
وإلى أن تعالج الدولة مشكلات الاسكان والبطالة .
فلابد من دعم المخرج الوحيد للمشكلة .
بل هو المخرج الأوحد .
الزواج صعب .
والاختصاء غير إنسانى .
والقضاء على المرأة غير ممكن .
وحل المشكلات المعقدة يحتاج إلى زمن طويل .

والكافور هو الحل .
الكافور هو الحل .
من أجل انقاذ البلد .
ويا أطباء علم النفس .
اللهم لا حسد .. اللهم لا حسد .

* * *

أهل البقدونس

أسخف نكتة سمعتها فى حياتى هى نكتة (البقدونس) ..

قال شاب لصديقه ، إننى أستطيع أن أجرى مائة متر فى عشر ثوان فقط ..

رد عليه صديقه قائلا .. ليه .. هوه أنت بقدونس ..

هل هناك ما هو أسخف من ذلك ..

السخافة هنا مصدرها إنه لا علاقة بين الجرى وبين البقدونس ..

هذا جرى وهذا بقدونس ..

منتهى السخافة وتقل الدم ..

أراهن أنك تبتسم الآن ..

لماذا تبتسم ؟ ..

هل أنت بقدونس ..

* * *

ماذا جرى لنا ..

أحيانا قلت مساحة الابتسام وزادت مساحة الاكتئاب فى حياتنا ..

حاول يا عزيزى القارئ أن ترصد المارة وأنت تسير فى الشارع . وسوف تكتشف أن الوجوه مشدودة ومكدودة وعابسة وأن التجهم هو السمة العالية ..

الوجه (المفرود) الذى ترتسم على ملامحه تباشير الابتسام أصبح عملة نادرة ..

حتى النكت تحولت إلى (بقدونس) ..

انكمشت مساحة حسن الظن فى حياتنا وحل محلها الشك واتهام الآخرين .. بسند أو بغير سند .. فى ذمتهم أو فى وطنيتهم أو فى دينهم ..

انتقل هذا إلى الكتاب فأصيب أغلبهم بحالة شلل جزئى ..

إذا دافع عن مظلوم اتهمه البعض بأنه شريك فى الجريمة ..

إذا مدح إنجازا اتهمه البعض بالنفاق ..

إذا هاجم سلوك بعض المسلمين اتهمه البعض بالعداء للإسلام ..

التهمة الأخيرة شديدة البشاعة . وقد نال كاتب هذه السطور منها بعض الرذاذ ..

* * *

نسبة واحد فى المائة من الخطابات التى تصلنى تحمل هذا المعنى تصريحا أو تلميحا ..

الناس ماتزال تخلط بين الإسلام وبين تاريخ المسلمين . ورغم أن الأول دين سماوى مقدس والثانى تاريخ بشر يصيبون ويخطئون ..

الوليد بن يزيد كان خليفة أمويا ، وكان ماجنا وفاسقا ، فهل يحسب مجونه وفسوقه على الإسلام ..

السؤال لا يحتاج إلى إجابة ، لأن إجابته واضحة ..

حتى علماء الدين الذين يعيشون بيننا ، أصبحوا فى نظر بعض القراء رموزا مقدسة لايجوز المساس بها أو الاقتراب منها أو النقد لسلوكها .

هل هذا معقول ؟

قلناها ونقولها ألف مرة ..

الإسلام شىء والمسلمون شىء آخر . ونقد أخطاء بعض المسلمين دفاع عنهم وعن المسلمين وعن الإسلام ..

المشكلة فى تقديرى لا تأتى من القراء وحدهم ، لكنها تأتى قبل ذلك من المناخ الفكرى العام ..

أصبح الناس يفضلون الراحة والأخذ باليسير من الأمور ، ومن شروط الراحة أو التيسير ألا يحاول أحد مناقشة المقولات السائدة ، فالتسليم بها أدعى لراحة النفس والعقل والوجدان ، بينما مناقشتها وتغييرها أدعى لإرهاق الذهن ، وهذا ما يرفضه الكثيرون ..

تعود الناس أن يقرأوا مقال كاتبهم المفضل قبل النوم ، حتى يسرع النوم إلى عيونهم ، ومعنى هذا أن رسالة المقال يجب أن تكون على (مقاس) أفكارهم وتصوراتهم ، فإذا اختلفت أو طرحت مفاهيم عكسية ، أصبح الكاتب مزعجا حتى ولو كان الحق معه وأصبح مرفوضا حتى ولو كان منطقيا ، وهذه كارثة لأن الفكر الإنسانى لا يتطور إلا بالرأى والرأى الآخر ، والثقافة الإنسانية لا تتجدد إلا بحوار العقل ..

هذه بدهيات ، أو المفروض أن تكون كذلك ، لكن البعض يرفض هذا كله ،ويرى أن ما هو سائد صحيح تماما ، لمجرد أنه سائد ، ومنطقى تماما لمجرد أنه مريح ..

* * *

القارئ (ج أ .أ) أرسل إلى خطابا غاضبا ..

موجز رأيه أننى أرفض خلط الأوراق السياسية بالدين ، وهذا فى تقديره (كفر بواح) ..

سيادته ينهى مقاله بمبررات دعوته للدولة الدينية ، وهى مبررات يوجزها فى العبارات التالية ..

(لقد جربنا النظام الليبرالى قبل الثورة وفشل ..

وجربنا النظام الاشتراكى وفشل ..

وجربنا الانفتاح الاقتصادى وفشل ..

لقد انتقلنا من فشل إلى فشل منذ سقوط الخلافة العثمانية التى وحدت المسلمين ، وحاربها الاستعمار ، فحدث ما حدث لنا) ..

* * *

نبدأ من حيث انتهى القارئ العزيز ، ونلفت انتباهه إلى حقيقة غائبة عنه ، رغم أنها واضحة ، وهى أن ما يدعونا إليه ليس تصورا خياليا ، وليس حلما لا علاقة له بالواقع ، فالصحيح أننا عشنا تجربة الدولة الدينية أكثر من ألف عام ، والدولة العثمانية التى يتحدث عنها حكمت الشرق الإسلامى كله ، أكثر من خمسمائة عام وقد بدأت بتفريغ مصر من العمال المهرة والحرفيين ونقلهم إلى (الآستانة) ، وانتهت إلى واقع بصفة علماء الحملة الفرنسية بقولهم ، « كل شىء فى مصر ميت تقريبا ، آلاف الكسالى بلا عمل سوى تدخين الحشيش وأكل المنزول والحديث عن الحريم ..

الزراعة كما هى من أيام الفراعنة ، أما الصناعات والحرف فهى بدائية وإن كانت لا تخفى عبقرية دفينة توارثها المصريون عن أجدادهم ..

لقد انقطعت صلة هؤلاء بالعالم تماما ، والشىء الوحيد الذى يربطهم بالسلطة المركزية هو استبداد الولاة ، وجمعهم للأموال بالقوة ، وللأفراد بالسخرة لمقاومة الفيضان أو للاشتراك فى جيش الدولة ، وقد تعود المصريون أن يودِّعوا جنودهم بالصراخ والعويل ، لأنهم عادة يسافرون إلى بلاد بعيدة ولا يعودون منها أبدا » ..

بلغة الأرقام نعيد صياغة الفقرة المغلوطة التى ذكرها القارئ فى رسالته ..

جربنا النظام الليبرالى قبل الثورة نحو ثلاثين عاما ..

جربنا النظام الاشتراكى بعد الثورة نحو عشرة أعوام ..

جربنا الانفتاح الاقتصادى نحو عشرين عاما ..

جربنا الدولة الدينية أكثر من ألف ومائتى عام ..

كلها تجارب إذن ، والدولة الدينية هى أطول التجارب فى التاريخ المصرى كله ، وهى تجربة انتهت إلى ما انتهت إليه ، وأدبيات التيار السياسى الإسلامى تردد باستمرار مقولة (العبرة بالخواتيم) ، ونظن أن الخواتيم ليست فى حاجة إلى بيان ..

* * *

هل فشلت التجارب الحديثة حقا فى مصر ..

الليبرالية والاشتراكية والانفتاح ..

أم أنها تجارب لها وعليها ..

وأن مالها باليقين كان أكثر ..

المشكلة هنا تتعلق بمساحة المقال ..

والأفضل للقراء ولكاتب هذه السطور أن نبدأ بالتجربة التى نعيشها حتى الآن ، وهى تجربة الانفتاح الاقتصادى والسياسى ، وسوف يكتشف كاتب الخطاب أن الحديث عن الفشل المطلق لهذه التجربة ، يدخل فى باب اليقدونس ، وأنها مأساة حقيقية أن يدفعنا البعض إلى ترديد هذه المقولات (البقدونسية) دون تفكير أو مراجعة ، وأننا نهوى تعذيب أنفسنا حين لا نرى من الكوب إلا الجزء الفارغ منه ...

* * *

قبل خمسة عشر عاما ذهبت إلى مرسى مطروح لأول مرة ..

من الاسكندرية وحتى مرسى مطروح لم يكن هناك شىء على الشاطئ كله سوى فندق سيدى عبد الرحمن ومدينة أو (قرية) العلمين ..

فى العام الماضى ذهبت إلى هناك مرة أخرى ..

تذكرت قصص ألف ليلة وليلة ، وأحاديث (الجن) الذى يخرج من القمقم ويفعل المستحيل ..

الذى حدث للشاطئ الطويل لا يمكن وصفه بالكلمات ، لأنه يتعدى الإنجاز إلى الإعجاز ..

عفريت من الجن لم يترك كيلو مترا واحدا دون عمران على أرقى المستويات ..

قرى شاطئية وسياحية بالغة الروعة والجمال على طول الطريق ..

الحكومات تذهب وتجئ والحكام يأتون ويذهبون والأجيال تموت والعمران .

الحكومة والقطاع الخاص فعلا ذلك فى صمت وهدوء وجنون عبقرى أيضا .. هل هناك صلة بين الفشل وبين هذا الإنجاز ..

* * *

الطريق الصحراوى بين مصر والاسكندرية لم يبق منه سوى الاسم ..

ثلاثة أرباعه تحول إلى طريق زراعى صناعى ..

طريق مصر الاسماعيلية الصحراوى نموذج آخر مشابه ، فايد التى كانت قرية مغمورة أصبحت مدينة سياحية شاطئية متكاملة ..

مدينة العاشر من رمضان أصبحت أكبر مدينة صناعية فى مصر ..

مدينة ٦ أكتوبر والسادات و ١٥ مايو تشكل ثورة معمارية وصناعية وحضارية حقيقية ..

الغردقة أصبحت إحدى المعالم السياحية العالمية ..

لم يكن فيها شيء منذ ربع قرن ، ولم يعد فيها شبر الآن للتوسع ، والنتيجة كانت الامتداد إلى سفاجا ..

المدن السياحية على امتداد شواطئ جنوب سيناء من رأس سدر إلى طابا إنجاز مذهل ..

الذى أتحدث عنه الآن لم يكن له وجود ، منذ بداية الخليقة وحتى بدء عصر الانفتاح ..

أكرر ، منذ بداية الخليفة ، لم أتساءل عن الفشل الذى يتحدثون عنه ..

* * *

فى مصر الآن آلاف مصانع الملابس الجاهزة على أرقى المستويات العالمية ..

فى مصر الآن آلاف مزارع التسمين وإنتاج البيض بالأساليب الحديثة ..

فى مصر الآن مئات المزارع الحديثة بأسلوب الزراعات المحمية ويوسائل الرى المتطورة ..

هل كان لهذا وجود قبل ربع قرن ..

ما يقال عن الملابس يقال عن الأحذية ، والصناعات الجلدية ، وتصنيع الأثاث ، وصناعات الأدوية ، وصناعات التجميل و الصناعات الغذائية ، والصناعات الهندسية (الثلاجات والبوتاجازات والمراوح وصناعة التكييف) والصناعات الالكترونية ، وصناعات الألومنيوم ، والفنادق السياحية ، وصناعات مواد البناء ، وصناعة السيراميك ، وصناعات السجاد والموكيت ، والقائمة طويلة . وأحد أصدقائى ذكر لى أنه منذ عشرة أعوام أثث منزله وكان كل شىء مستوردا . ثم خطر له أن يعيد تجديد المنزل وتأثيثه ، فإذا بكل شىء من الإنتاج المحلى ، وعلى أرقى المستويات ..

ويتحدثون بعد ذلك عن الفشل ..

* * *

من منا يتذكر أوضاع التليفونات فى مصر منذ ربع قرن ..

من منا يتذكر أوضاع المجارى فى القاهرة منذ ربع قرن ..

من منا يتذكر أحوال الطرق منذ ربع قرن ..

هل هذا كله حدث فى كوكب المريخ ..

الطرق العلوية والأوتوستراد ومترو الانفاق والمستشفيات الحديثة والمطار الجديد والقرية الأوليمبية الصالات المغطاة ، والأوبرا وقاعة المؤتمرات والتوسع فى محطات الطاقة الكهربائية ، وتطوير قناة السويس ، كل هذا قبض ريح ..

أى تعذيب للنفس هذا ..

القائمة طويلة ، والملاحظة التى ذكرتها فى بداية المقال هى التى تدفعنى إلى الاختصار ، لأن المدافع عن الحق يصبح فى نظر البعض منافقا ، وهذه كارثة ، والمؤكد أن أصحاب هذه المقولات (البقدونسية) لا يدركون حقيقة جوهرية ، وهى أن مصر رائعة وخالدة بقدرة أبنائها الخيالية على التطور بقوة الدفع الذاتى ..

تتغير النظم والمصريون يتقدمون ..

تحاربهم البيروقراطية وهم ينجزون ..

جذورهم ممتدة فى عمق الأرض إلى أبعد مما يتصور أحد ..

يحتاجون فقط إلى التواصل مع حضارة العصر ، فتنفجر داخلهم عبقرية الزمان والمكان ، والرغبة فى التحدى ، والقدرة على إثبات الوجود .

بعد خراب الدولة العثمانية لما يقرب من خمسة قرون ، ظهر محمد على وأرسل البعثات إلى فرنسا ، فانفجر المارد فى نفوس المصريين ، وبعد ربع قرن . كان لهم أعظم أسطول بحرى ، وكان جيشهم يطرق أبواب الآستانة . وكانت أعلامهم تخفق على ربوع المنطقة كلها ، واحتاج الأمر إلى تكتل جيوش الدول الكبرى للقضاء على الحلم ..

بعد محمد على أتى عباس الأول .. فأعاد الأمر إلى ما كان عليه قبل محمد على . وقطع صلات مصر بالحضارة ، وامتلأ وجدانه بالتعصب فأخذ

يحلم بإجلاء الأقباط إلى السودان وخمدت الروح فى مصر ، وسكنت مصر إلى حين .. وفجأة ظهر الخديو اسماعيل ..

مرة أخرى عاد التواصل الحضارى من جديد ، وتضاعفت الرقعة الزراعية وامتدت شبكات الري ، وافتتحت قناة السويس ، وأعيد تخطيط القاهرة والاسكندرية ، ونشط العمال والصناع ، وأصبحت مصر قطعة من أوروبا ، وخرج الجيش المصرى إلى أن وصل إلى مصوع وزيلع وهرر ، وتحالف عليه الأعداء ، وحدث ما حدث ، وانتكست مصر من جديد ، وخضعت للاحتلال المباشر ..

مرة أخرى صحت مصر ، وكانت الصحوة على يد سعد زغلول ، وكانت النهضة من خلال ثورة ١٩١٩ ، وأهل البقدونس فقط هم الذين ينكرون تراث الثورة المتمثل فى طلعت حرب ، ومحمد عبده وسيد درويش وشوقي وحافظ ودستور ١٩٢٣ والديموقراطية التى عرفتها مصر قبل أى دولة فى المنطقة كلها ..

وحتى ثورة عبد الناصر التى ينكر أهل البقدونس أى فضل لها ، ويركزون على أخطائها ، وأنا واحد من المنتقدين لهذه الأخطاء ..

هل ينكر أحد مكانة مصر السياسية عالميا وعربيا وأفريقيا ، خلال هذا العهد ، وهى مكانة مانزال نتمتع بآثارها ..

هل ينكر (صبية البقدونس) أن الثورة حققت عدلا اجتماعيا لولاه ما تمتع أغلبهم بالتعليم إلى أعلى مراحله ، وبالمساواة المطلقة دون تأثير لألقاب أو انتماء لأسرة أو لفريق سياسى ..

لقد اختلفت مع عبد الناصر فى حياته ، ودخلت المعتقل لأيام معدودة لأول وآخر مرة فى عهده ، لكنى شعرت بالفزع حقا وأنا أقرأ هذا الأسبوع فى أحد الصحف الأسبوعية مقالا عنوانه (من أنتم ومن هو ناصر ؟) ..

يا سلام ، من هو ناصر ؟ إلى هذا الحد ..

لقد انتشر البقدونس فى الحياة السياسية بصورة مفزعة حقا ..

حاول عهد عبد الناصر إلغاء تاريخ الوفد ، فأتى الوفد لكى يفعل نفس الشىء مع العهد الناصرى ، وحاول الساداتيون نسف المرحلة الناصرية ، فعاد الناصريون لنسف المرحلة الساداتية ، ونسى الجميع أن مصر كلها تاريخ متواصل متصل ، وأن إلغاء الآخر مستحيل ، وأن المستفيد الوحيد من هذا كله هو صبية البقدونس ..

* * *

فى عهد الفراعنة كانت المسلة الفرعونية ، أجمل إنجاز معمارى فى التاريخ .

عندما دخلت المسيحية مصر ، لم يكن المسيحيون يعرفون برج الكنيسة ، وبعد أن أستقرت المسيحية فى مصر ، ظهرت المسلة الفرعونية من جديد .

فقد كانت فيها فتحة يظهر منها جرس الكنيسة ..

ظهرت أبراج الكنائس وانتشرت فى أنحاء الكون كله

عندما دخل الإسلام مصر ، لم يكن للمسجد مئذنة ..

وعندما استقر الإسلام فى مصر ، ظهرت المسلة الفرعونية ، وحولها شرفة دائرية تسمح للمؤذن بالدعوة للصلاة ..

ظهرت مآذن المساجد ..

من المسلة الفرعونية إلى برج الكنيسة إلى مئذنة المسجد ، تظهر روح مصر الرائعة ، وهى روح متصلة .. متواصلة ..

أما باقى ما ورد فى خطاب القارئ ، عن خلط أوراق السياسة والدين ، وعن حق الكاتب فى انتقاد علماء الدين ، فمجاله حديث آخر ..

فقط تذكروا المسلة وبرج الكنيسة ومئذنة المسجد ..
تذكروا مصر ، وأصالة مصر ، وتواصل مصر ..
مع الاعتذار لأهل البقدونس ..

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة

اقرأ فى هذه المجموعة

١ - الحكومة العالمية

د . بطرس غالى

٢ - السيد درويش ومائة سنة على ميلاده

عبد الحميد توفيق زكى

٣ - المياه، الصراع القادم فى الشرق الأوسط

مجدى شندى

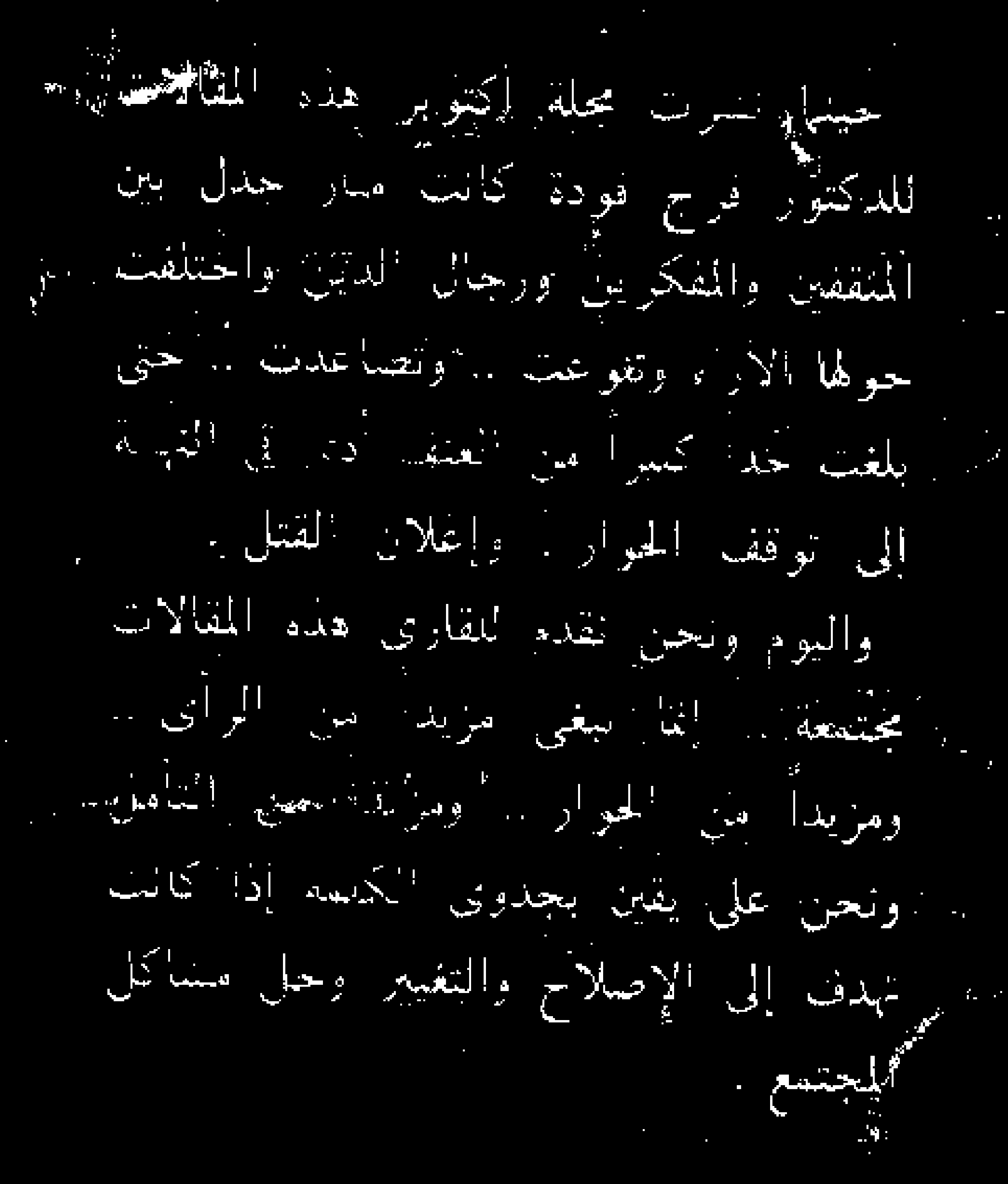
٤ - جماعات الإسلام السياسى والعنف فى الوطن العربى

د . محمد سعيد أبو عامود

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٥٥١١
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3741-8

١ / ٩٢ / ١٧٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



حينما نشرت مجلة إكتوبر هذه المقالات للدكتور فرج فودة كانت مثار جدل بين المثقفين والمفكرين ورجال الدين واختلفت حولها الآراء وتنوعت .. وتصاعدت .. حتى بلغت حداً كبيراً من العنف أدى في النهاية إلى توقف الحوار .. وإعلان القتل .

واليوم ونحن نقدم للقارئ هذه المقالات مجتمعة .. إنما نبغي مزيداً من الرأي .. ومزيداً من الحوار .. ومزيداً من التأمل .

ونحن على يقين بجدوى الكلمة إذا كانت تهدف إلى الإصلاح والتغيير وحل مشاكل المجتمع .

